"ما يجب أن يعرفه العالم"

الحضارة الإسلامية هل هي الأقوى في التاريخ؟

التاريخ يشهد أن الحضارة الإسلامية هي الأقوى في التاريخ وهذا الكتاب بحث في التاريخ برؤية محايدة ومن كتب الغرب أنفسهم وهو مهم للباحثين في التاريخ ولجميع المهتمين بمعرفة الحقيقة.

خالد عبدالعزيز

الكتاب: الحضارة الإسلامية هل هي الأقوى في التاريخ؟

المؤلف: خالد عبدالعزيز

رقم الإيداع: ١٥٨٥٤\ ٢٠٢١

الترقيم الدولي: ٤ – ٩٨ – ٦٧٤١– ٩٧٧– ٩٧٨

***

دار الميدان للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية

هاتف ٠١٢١٠٣٤٣٥٩٣/ ٠٥٥٢٣١١٤٠٨

Website: www.daralmidan.com

E- mail: almidan@daralmidan.com

FB: fb.com/dar.almidan





بسم الله الرحمن الرحيم

الحضارة الإسلامية هل هي الأقوى في التاريخ؟

مقدمة

المنهج الإسلامي هو أقوى منهج عرفته البشرية منذ فجر التاريخ . ويؤكد ذلك أثار الحضارة الإسلامية في كافة مناحي الحياة من علوم وآداب وفلسفة. حتى إن ظهور الإسلام في تلك الطبيعة الجاهلية التي كانت تمتلئ بمظاهر الفساد والانحراف من الزنى والفجور والاستعباد وهذا غير التعصب الأعمى الذى كان يجعل بأسهم بينهم شديد فكان الإسلام هو بداية التغيير من أضعف أمة إلى أقوى أمة حتى أننى أتذكر أن "الفرس" كانوا يضعون أعداءهم بالترتيب ولم يكن يومها أمة العرب خطر على مملكة الفرس أبدا نظرا لضعفهم الشديد وكانت حروبهم فيما بينهم فلما دخل الإسلام جزيرة العرب أصبحوا أمة قوية لدرجة أنهم هم من أسقطوا مملكة الفرس في عهد الخليفة "عمر بن الخطاب". فالمسلمون يختلفون عن الآخرين لأنهم يفتحون البلاد وينشرون فيها الإسلام لتوحيد الله عز وجل ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور أما الحملات الصيليبية والتتار والأمريكان كانوا يحتلون البلاد فينهبون خيراتها ويقتلون الأبرياء بدون ذنب هذا غير تدمير الوعي الفكري لدى الشعوب ويشهد على ذلك التاريخ من مجازر الحملات الصليبية في الشرق الأوسط ثم مجازر التتار وخاصة في بغداد حيث قتلوا مليون مسلم في بغداد وحدها بمساعدة الشيعة أحفاد المجوس ولا ننسى تدمير التراث الثقافي فألقوا بمئات الكتب في نهري دجلة والفرات هكذا يتصرف الإستعمار البغيض دائما.. أما المسلمون فيشهد كل مكان ذهبوا إليه والخلافة الإسلامية في الأندلس خير مثال فيرقي وتقدم الشعوب في وقتها حيث أن نتاج المسلمين الثقافي والعلمي كان بداية لخروج أوروبا من العصور المظلمة. وهذا دليل واضح أن الحضارة الإسلامية هي الأقوى في

التاريخ. فالمنهج الإسلامي هو منهج شامل ويأتي جاهل فيقول ماذا فعل المسلمون بالعالم سوى التدمير والتخريب ففى حين أن الغرب هو من قدم المدنية والتطور للبشرية؟ وهو جاهل بالتاريخ لا يعلم أن أن هذا أساسه نتاج المسلمون من العلم والثقافة الذي تم ترجمته من العربية إلى اللاتينية

ويتلخص هذا الكتاب في الآتي:

١. ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية وأثار ذلك على المجتمع الجاهلى
٢. الفتوحات الإسلامية .
٣. نشر رسالة التوحيد خارج شبه الجزيرة العربية .
٤. نص رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس القبطي.
٥. دعوة الصحابي / ربعى بن عامر لرستم قائد الفرس يوم القادسية.
٦. الحضارة الإسلامية وأصحاب الأديان الأخرى.
٧. الفرق الواضح بين الحضارة الإسلامية والهمجية "محاكم التفتيش".
٨. شهادة الكولونيل ليموتسكي "محاكم التفتيش"
٩. محاكم التفتيش.. أهوال تشيب لها الولدان.
١٠. مجازرالحملات الصليبية في بلاد المسلمين.
١١. مجازر التتار في بلاد المسلمين.

١٢. الاستعمار المعاصر.

١٣. رؤية تاريخية للاستعمار .

١٤. اسباب تفكير المانيا في الاستعمار داخل افريقيا.

١٥. الاستعمار الفرنسي في افريقيا.

١٦. السياسات الاستعمارية .

١٧. آثار الاستعمار واشكاله الجديدة في الوطن العربي.

١٨. مجازر امريكا .

١٩. الطرق التي انتقلت من خلالها المعرفة."مراكز الترجمة"

٢٠. التقنيات الإسلامية.

٢١. ذلك الدين القيم.

٢٢. الفرق الشاسع بين الجهاد والإرهاب.

ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية وأثار ذلك على المجتمع الجاهلى.

"من الجاهلية إلى الإسلام"

كان العرب في ذلك الوقت غارقون في الجهل والإنحراف يشركون بالله عز وجل. يخالفون الفطرة. فانتشر الانحلال والفجور في المجتمع الجاهلي. فالرايات الحمر في كل مكان. الخمر أم الخبائث كالماء .حتى النساء تورّث كقطعة أثاث ليس لها أيقيمة .بل كانت البنات تؤدفي التراب ظنا منهم أنها تجلب العار لقبيلتها. كانت قلوبهم أشد من الحجارة. ومظاهر الإستعباد وإهانة النفس البشرية كانت من معالم العصر الجاهلي. ومن أشد ضلال الإنسان دائما الكفر بالله فكانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها ولم أجد في حياتي شرا وفسادا وانحرافا عن الفطرة إلا في جاهلية العرب.

. وما يأتي تلخيص لحياة العرب قبل الإسلام:

في جانب العقيدة

كان العرب يعبدون الأصنام، ويتقربون لها، ويذبحون عندها، ويعظمونها التعظيم كله، وهي من صنع أناس مثلهم من البشر، وأحياناً تكون من صنع أيديهم، من التمر، أو الطين، أو غيرها، وكان عدد الأصنام التي حول الكعبة المشرفة حوالي ٣٦٠ صنماً.

قال تعالى واصفاً أولئك الجاهليين: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا

لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)

يونس/ ١٨

وكانوا يتطيرون: فإذا أراد أحدهم زواجاً، أو سفراً، أو تجارة: ألقى طيراً في السماء، فإن ذهب يميناً: مضى في أمره، واعتقد فيه الخير والنفع، وإن ذهب

الطير شمالاً: أحجم عن أمره، وترك المضي فيه، واعتقد فيه الشرّ! .

وكانوا يتشاءمون: فإذا سمع أحدهم صوت بومة، أو رأى غراباً ضاق صدره، واعتقد أنه سيصيبه ضرر أو أذى في يومه، وكانوا لا يتزوجون في شوال؛ اعتقاداً منهم بأنه لن يكتب له النجاح.

كان ولاء أهل الجزيرة العربية يتوزع على القوى العظمى في زمانهم، فبضعهم ولاؤه للروم، وآخرون للفرس، وثالث للحبشة.

ب. في جانب الأخلاق والسلوك والعادات

كان العرب في الجاهلية يغزو بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، لأتفه الأسباب، وتطول الحروب بينهم لأعوامٍ عديدة، فيَقتل الرجال، وتُسبى النساء والأطفال. ومن ذلك: " حرب البسوس " وقد دامت ثلاثين سنة، سبب أن ناقة وطئت بيضة " قبّرة " - نوع من أنواع الطيور -

فكسرتها، ومنها: " حرب داحس والغبراء "، وقد دامت أربعين سنة، بسبب أن فرساً غلبت أخرى في الجري.

كانوا لا يتنزهون عن الخبائث، ومنها أنهم كانوا يأكلون الميتة، ويشربون الدم.

كان غير القرشيين يطوفون بالكعبة عراة نساء ورجالاً، إن لم يمن عليهم القرشيون بثياب من عندهم، ويعتقدون أن ثياباً عصي الله فيها لا تصلح أن يطاف بها، وتقول قائلته: اليوم يبدو كله أو بعضه وما بدا منه فلا أحلّه!!

و كان الزنا منتشراً بينهم، وكذا آثاره، ومن أعظمها: نسبة الولد لغير الزوج.

عن عَائشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: إِنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ:

فَنكَاحٌ منْهَا: نكَاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوْ ابْنَتَهُ فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا

وَنكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لامْرَأَته إِذَا طَهُرَتْ منْ طَمْثهَا أَرْسلى إِلَى فُلَان فَاسْتَبْضعى منْهُ وَيَعْتَزلُهَا زَوْجُهَا وَلَا يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا منْ ذَلكَ الرَّجُل الَّذي تَسْتَبْضعُ منْهُ فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَة الْوَلَد فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نكَاحَ الاسْتبْضَاع. وَنكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَة فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَة كُلُّهُمْ يُصيبُهَا فَإِذَا حَملَتْ وَوَضَعَتْ وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَال بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَسْتَطعْ رَجُلٌ منْهُمْ أَنْ يَمْتَنعَ حَتَّى يَجْتَمعُوا عنْدَهَا تَقُولُ لَهُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ الَّذي كَانَ منْ أَمْركُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلَانُ تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ.

وَنكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمعُ النَّاسُ الْكَثيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَة لَا تَمْتَنعُ ممَّنْ جَاءَهَا وَهُنَّ الْبَغَايَا كُنَّ يَنْصبْنَ عَلَى أَبْوَابهنَّ رَايَات تَكُونُ عَلَمًا فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ فَإِذَا حَملَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمْ الْقَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالْتَاطَ بِهِ وَدُعِيَ ابْنَهُ لَا يَمْتَنِعُ منْ ذَلكَ.

فَلَمَّا بُعثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ.

رواه البخاري (٨٤٣٤)

(فيَصدقها) : يجعل لها مهراً .

(طمثها):حيضها .

(فاستبضعي منه): اطلبي منه المباضعة، وهي المجامعة (نجابة الولد):

أي ليكون نفيساً في نوعه، وكانوا يطلبون ذلك من أشرافهم، ورؤسائهم، وأكابرهم.

(الرهط): ما دون العشرة من الرجال.

(يصيبها): يجامعها.

(البغايا): جمع بغي وهي الزانية.

(رايات) جمع راية وهي شيء يرفع ليلفت النظر .

(علماً): علامة. (القافة): جمع قائف، وهو الذي ينظر في الملامح ويُلحق الولد بمن يرى أنه والده.

(فالتاط به): فالتحق به، والتصق.

وكانوا يقتلون أولادهم بسبب ما هم فيه من فقر، وبسبب خوفهم من الوقوع في الفقر، وكان بعضهم يدفنون بناتهم خشية وقوعهن في الأسر، وجلب العار لهم، قال تعالى: (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) الأنعام/ من الآية ١٥١، وقال تعالى: (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً) الإسراء/ ٣١، وقال عز وجل: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) النحل/ ٥٨، ٥٩.

وكان عندهم الفخر بالآباء والنسب، حتى إنهم ليذكرون آباءهم ويفتخرون بهم في موسم الحج، وأثناء إقامة شعائره.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ ؛ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ ؛

أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ رواه الترمذي (٣٩٥٥) وأبو داود (٥١١٦) وحسّنه الألباني في " صحيح الترمذي" .

العبية: الكبر والفخر.

الجِعلان: دويبة سوداء، كالخنفساء تدير الخراء بأنفها.

وكانوا يتعاملون بالربا، على أشكال وأصناف وصور متنوعة. وقد أجمل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حالهم في الجاهلية فقال أمام النجاشي في الحبشة لما هاجر إليها: " كنَّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويّ منا الضعيف " رواه أحمد (٣ / ٢٦٥) وحسنه محققو المسند.

ح. المرأة في الجاهلية:

وقد تعرضت المرأة لأبشع صنوف العذاب، والإهانة، والتحقير، في الجاهلية، ويتمثل ذلك في صور كثيرة – وهذا غير الوأد الذي ذكرناه من بعض أفعال العرب:

١- كانت المرأة تُحرم من الميراث مطلقاً، فلا نصيب لها فيما يتركه ولدها، أو والدها، أو أمها من مال، ولو عظم، بل كانوا يعاملونها على أنها سلعة تورث ! وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً) النساء/ ١٩.

روى البخاري (٤٣٠٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلَه: كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَته، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يزوجوهَا، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هَذِه الآيَةُ فِي ذَلِكَ.

٢- وكانوا يجبرونهن على الزواج بمن يكرهن، أو يمنعونهن من الزواج.

٣-وكان الأزواج يعلقون أمر زوجاتهم، فلا هي زوجة له، ولا هي تستطيع

الزواج بغيره، ومن ذلك: أنه كان يحرمها على نفسه، ويجعلها كأمه، أو أخته، أو يحلف أن لا يجامعها، فتصير معلقة، فجاء الإسلام بتحريم الظهار، و بوضع أمد لمن أقسم أن لا يجامع زوجته، وجعل ذلك إلى أربعة أشهر، فإما أن يكفر عن يمينه ويجامعها، أو يجبر على تطليقها، وهو ما يسمّى " الإيلاء "، وهو المذكور في قوله تعالى: (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) البقرة/ ٢٢٦، ٢٢٧.

٤- ولنقرأ ماذا كانت تفعل الزوجة بعد وفاة زوجها:

قَالَتْ زَيْنَبُ بنت أَبِي سلمة: كَانَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا دَخَلَتْ حفْشًا، وَلَبِسَتْ شَرَّ ثِيَابِهَا، وَلَمْ تَمَسَّ طيبًا حَتَّى تَمُرَّ بِهَا سَنَةٌ، ثُمَّ تُؤْتَى بِدَابَّةٍ حِمَارٍ أَوْ شَاةٍ أَوْ طَائِرٍ فَتَفْتَضُّ بِهِ، فَقَلَّمَا تَفْتَضُّ بِشَيْءٍ إِلاَّ مَاتَ، ثُمَّ تَخْرجُ فَتُعْطَى بَعَرَةً فَتَرْمِي.

رواه البخاري (٥٠٢٤) ومسلم (١٤٨٩) .

والحفش: البيت الصغير.

تفتض: تمسح به جلدها.

ظهر الإسلام في هذه البيئة الصعبة طبيعة جاحدة فهدم كل هذه العادات السيئة فأعطى الإنسان كرامته وحرره من الرق والإستعباد ساوى بين البشر فلا فرق لعربى على أعجمى ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح. وأعطى للمرأة مكانتها فالنساء شقائق الرجال كما جعل لله الحق في الميراث وأن تقرر مصيرها. ومما يلى بعض أثار التغيير في حياة العرب بعد ظهور الإسلام:

كان تأثير الإسلام في أتباعه العرب وغير العرب قوياً واضحاً فقد رفع من المستوى ا لفكري والعقلي للعرب رفعاً يكاد يكون معجزة وذالك يتمثل في عدة أمور منها :

نصب الإسلام للناس مثلاً اعلى جديداً في الحياة فبعد أن كان للجاهلية الوثنية قيمها وأخلاقها واتجاهاتها جاء الإسلام فرسم للحياة مثلاً أخر لا يتفق مع المثل الأعلى الجاهلي بل كثيراً ما يناقضه ، فقد كانت المثل الجاهلية تقوم علي الأنفة والعصبية القبلية التي تورث العداوات والأحقاد بين القبائل فجاء الإسلام ويمم شطر الناس نحو الخير في جميع صورة وسبله قال تعالى :\" لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) سورة البقرة.

فجاء الإسلام ونبذ العصبية الجاهلية ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ:لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ. أخرجه أبو داود (٥١٢١).

عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْد الله يَقُولُ:كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمَّعَهَا اللهُ رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيّ: يَالَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ النَّبِي صلى الله عليه وسلم: دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ. قَالَ جَابِر: وَكَانَت الأَنْصَارُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَكْثَرَ، ثُمَّ كَثُرَ الْمُهَاجِرونَ بَعْدُ، فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ: أَوَ قَدْ فَعَلُوا، وَالله، لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرَ بْنُ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: دَعْنِي، يَا رَسُولَ الله، أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، قَالَ النَّبِي صلى ا لله عليه وسلم: دَعْهُ، لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ. أخرجه \"البُخَارِي\" ٣٥١٨ و\"مسلم\"

١٩/٨(٦٦٧٥) والتِّرْمذِيّ\" ٣٣١٥.

ولقد عدل الإسلام كثيرا من أخلاق العصبية الجاهلية فجعل النصرة بالحق وليست بالحق والباطل ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم:انْصُرْ أَخَاكَ ظَالمًا، أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ: تَحجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ، منَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلكَ نَصْرُهُ. أخرجه أحمد ٩٩/٣(١١٩٧١). والبخَارِي ٢٨/٩(٦٩٥٢).

٢- وحد الإسلام ونظم الفكر الديني عند العرب فنشر بين الناس عقيدة الوحدانية ونفى كل عقيدة أخرى ونقلهم من عقلية الوثنية والسحر والاعتقاد في النجوم إلى عقلية المسلم الذي يتأمل في خلق السموات والأرض. قال تعالى: \" وَعنْدَهُ مَفَاتحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ منْ وَرَقَة إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّة فِي ظُلُمَات الْأَرْض وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِس إِلَّا فِي كتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) سورة الأنعام.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَالْحَسَنِ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ:مَنْ أَتَى كَاهنًا، أَوْ عَرافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزلَ عَلَى مُحَمَّد. أخرجه أحمد ٤٢٩/٢(٩٥٣٢).
عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: \"لن يلج الدرجات العلى من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر تطيرا \" أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١١٨/٥) الألباني في \" السلسلة الصحيحة \" ٥ / ١٩٣.

٣- نشر الإسلام بين العرب الكثير من أحوال الأمم الأخرى وتاريخها بإطناب أحياناً وبإيجاز أحيانا أخرى ، وبعث النفوس على الاستزادة منها فكان في ذلك نوع من الثقافة أفاد العرب ووسع مداركهم ودعاهم إلى تتبع أخبار الأمم الأخرى وأخذ العبرة منهم ، قال تعالى: \ " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصهِمْ عبْرَةٌ لأُولِي الْأَلْبَاب مَا كَانَ حَديثًا يُفْتَرَى وَلَكنْ تَصْدِيقَ الَّذي بَيْنَ يَدَيْه وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْء وَهُدًى وَرَحْمَةً لقَوْمٍ يُؤْمنُونَ (١١١) سورة يوسف وقال: \"أَوَلَمْ يَسيرُوا فِي الْأَرْض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) سورة غافر.

٤- شرع الإسلام أحكاماً جديدة في الزواج والطلاق والعبادات وكذا في الشؤون المدنية والمالية ونظم أمور المسلمين في معيشتهم ومعاملاتهم قال تعالى: \" {يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه. .. } ثم قال تعالى {واستشهدوا شهيدين من رجالكم. .. } إلى قوله تعالى محدداً الهدف والغاية من ذلك {ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابو} [البقرة: ٢٨٢]، وقال تعالى في النهي عن أكل المال بالباطل، وأنه ظلم وإثم وطغيان ومفسدة: {ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون} [البقرة: ١٨٧].

وبيّن تعالى الحكمة والهدف والمقصد من تحريم الخمر، فقال تعالى: {إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، ويصدكم عن ذكر الله والصلاة فهل أنتم منتهون} [المائدة: ٩١].

وبيّن عز وجل الحكمة والغاية من مشروعية القصاص وأنها لتأمين الحياة البشرية، وحفظ النفس والأرواح، فقال تعالى: {ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون} [البقرة: ١٧٩]، وأكد ذلك رسول الله ρ: \"حدٌّ يُعملُ به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمطَروا أربعين صباحًا\" رواه النسائي وابن ماجة عن أبي هريرة مرفوعًا. [انظر سنن النسائي ٦٨/٨، سنن النسائي ٨٤٨/٢].
وبيّن تعالى أنه لا يهدف من التكليف الإرهاق، بل الهدف من الأحكام رفع الحرج والمشقة عن الناس، فقال تعالى: {لا يُكلِّف الله نفسًا إلا وسعه} [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: {ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابو} [البقرة: ٢٨٢] {ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابو} [البقرة: ٢٨٢].
وقد حصر علماء الأصول مقاصد التشريع في ثلاثة مقاصد: الضروريّات،

الحاجيات، والتحسينيات.

أما الأمور الضرورية فهي ما تقوم عليه حياة الناس، ولا بد منه لاستقامة مصالحهم، وإذا فُقدَ اختل نظام حياتهم، ولم تستقم مصالحهم، وعمّت فيهم الفوضى والمفاسد.

والأمور الضرورية ترجع إلى حفظ خمسة أشياء، هي: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال .

وقد شرع الإسلام لكل واحد من هذه ا لخمسة أحكامًا تكفل إيجاده وتكوينه، وأحكامًا تكفل حفظه وصيانته، وبهذين النوعين من الأحكام حقق للناس ضرورياتهم.

٥- ارتبط العلم في الإسلام بالدين فقد حث الإسلام تعلم جميع العلوم النافعة فأقبل المسلمون ينهلون من جميع العلوم. قال تعالى \" هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) آل عمران.

عَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، أَتَيْتُكَ مِنَ الْمَدِينَةِ، مَدِينَةِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُ بِهِ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: فَمَا جَاءَ بِكَ تِجَارَةٌ ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: وَلاَ جَاءَ بِكَ غَيْرُهُ ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ:مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ

عَلَى الْعَابِد، كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاء، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْ عِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِر. أخرجه أحمد ١٩٦/٥(٢٢٠٥٩) و\"الدارمي\" ٣٤٢ و\"أبو داود\"٣٦٤١ و\"ابن ماجة\"٢٢٣.

٦- سلك الإسلام في دعوته إلى الإيمان بالله وصفاته مسلكاً يثير العقل وهو الدعوة إلى النظر إلى ما في العالم وظواهره واستجلاء الحكمة من خلقه ، قال تعالى: \" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) سورة آل عمران.

٧- أثر اللغة العربية في الناس وأثر القرآن في تلك اللغة قبل ذلك ، فقد أثر القرآن الكريم في اللغة العربية تأثيرا واسعا لفظا ومعنى ، ولقد ترك القرآن الكريم أثره البيّن في الأسلوب العربي فنهل منه الناهلون ، قال تعالى: \ " وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) سورة الزمر.

وهكذا قد أثر الإسلام في الفكر العربي والعقلية العربية فكانت معجزة كبري في نقل هذا الإنسان من الكفر إلى الإيمان ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم ومن البداوة إلى الحضارة ، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجران كتابا قال فيه: أما بعد، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد. انظر: البداية والنهاية (٤٨/٥).

وقالها رسول المسلمين إلى رستم في القادسية \" إن الله بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام\".
وهكذا نقل الإسلام العرب نقلة حضارية لا يوجد لها نظير في التاريخ.

مكانة المرأة في الإسلام وعند الأمم الأخرى

ومن المهم جدا تناول هذا الموضوع لأن المرأة هي المجتمع والإسلام كرم المرأة وأعطى لها مكانتها فلم تعطى حضارة سابقة حقوقها كاملة كما فعل الإسلام فالمرأة مهانة في كل الحضارات ومنبوذة عند الروم والفرس والهنود أما في الإسلام فالنساء شقائق الرجال "فاستوصوا بالنساء خيرا".. ومما يلى دلائل على مدى إهانة المرأة واحتقار لمكانتها عند الأمم الأخرى

المرأة عند الهنود:

في شرائع الهندوس أنه» :ليس الصبر المقدر، والريح، والموت، والجحيم، والسم، والأفاعي، والنار؛ أسوأ من المرأة. [1]«

وكان علماء الهنود الأقدمون يرون أن الإنسان لا يستطيع تحصيل العلوم والمعارف ما لم يتخل عن جميع الروابط العائلية.

ولم يكن للمرأة في شريعة «مانو» حق في الاستقلال عن أبيها وزوجها أو أولادها، فإذا مات هؤلاء جميعًا وجب أن تنتمي إلى رجل من أقارب زوجها، وهي قاصرة طيلة حياتها، ولم يكن لها حق في الحياة بعد وفاة زوجها؛ بل يجب أن تموت يوم موت زوجها، وأن تُحرق معه وهي حية على موقد واحد، واستمرت هذه العادة حتى القر ن السابع عشر حيث أبطلت على كرهٍ من رجال الدين الهنود.

وكانت تقدم قربانًا للآلهة لترضى، أو تأمر بالمطر أو الرزق.

وفي بعض مناطق الهند القديمة شجرة يجب أن يقدم لها أهل المنطقة فتاة تأكلها كل سنة[2].

وخلاصة القول:فالمرأة العزب -من لا زوج لها- والمرأة الأيِّم -من مات زوجها- تعتبران منبوذتين في المجتمع الهندوسي، والمنبوذ عندهم في رتبة الحيوان، ويجب على المرأة التي تفقد زوجها أن تظل في الحداد بقية حياتها، وعادت لا تعامل كإنسان، وَعُدَّ النظر إليها مصدرًا لكل شؤم، وعدت مدنسة لكل شيء تمسه، وأفضل شيء لها أن تقذف نفسها في النار التي يُحرق بها جثمان زوجها، وإلا لقيت الهوان الذي يفوق عذاب النار[3].

خامسًا: المرأة عند الفرس:

أبيح الزواج بالأمهات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، ويرى «مزدك» أن أكثر ما بين الناس من الشحناء وسفك الدماء سببه النساء والأموال، فأحل النساء، وأباح الأموال، وجعل النساء شركةً فيها كالماء والنار والكلأ.

وكان الحجاب شديدًا على نساء الطبقة الراقية، أما الفقيرات فكن حرات في التنقل، وكذلك الخليلات والحظايا؛ لأن المفروض فيهن أنهن يرفهن عن سادتهن وعن ضيوفهم[4].

وكانت المرأة عند الفرس تنفى في فترة الطمث -الحيض- إلى مكان بعيد خارج المدينة، ولا يجوز لأحد مخالطتها إلا الخدام الذين يقدمون لها الطعام، وفضلًا عن هذا كله كانت المرأة الفارسية تحت سلطة الرجل المطلقة، يحق له أن يحكم عليها بالموت أو ينعم عليها بالحياة[5].

سادسًا: المرأة عند اليهود:

كانت المرأة عند اليهود تسبى وتباع، وللآباء أن يؤجروا أبناءهم لموعد، وأن يبيعوا بناتهم القاصرات بيع الرقيق.

والمرأة عندهم تورث كالمتاع وإذا مات زوجها ورثها أقرباؤه، ولا حق لها في

الميراث[6].

واليهود يعتبرون المرأة لعنة؛ لأنها أغوت آدم، وعندما يصيبها الحيض لا يجالسونها ولا يؤاكلونها، ولا تلمس وعاء حتى لا يتنجس، وكان بعضهم ينصب للحائض خيمة، ويضع أمامها خبزًا وماء، ويجعلها في هذه الخيمة[7].

وقد قال أنس بن مالك ت: (إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت -بمعنى يساكنوهن- فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾]البقرة: ٢٢٢] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اصنعوا كل شيء إلا النكاح. فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه[8](؛ بل إن الرسول كان يأمر عائشة ل وهي حائض أن تتزر فيباشرها[9].

فانظر إلى هذه الآية والحديثين وقارنه بما يوجد عند اليهود الذين يعتبرون المرأة نجسة أثناء حيضها.

سابعًا: المرأة عند النصارى:

هال رجال النصرانية الأوائل ما رأوا في المجتمع الروماني من انتشار الفواحش والمنكرات، وما آل إليه المجتمع من انحلال أخلاقي شنيع، فاعتبروا المرأة مسؤولة عن هذا كله؛ لأنها كانت تخرج إلى المجتمعات وتتمتع بما تشاء من اللهو، وتختلط بمن تشاء من الرجال كما تشاء؛ فقرروا أن الزواج دنس يجب الابتعاد عنه، وأن العزب أكرم عند الله من المتزوج، وأعلنوا أن المرأة باب الشيطان، وأن العلاقة بالمرأة رجس في ذاتها، وأن السمو لا يتحقق إلا بالبعد عن الزواج، قال «ترتوليان» الملقب بالقديس: «إن المرأة مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، ناقضة لنواميس الله، مشوهة للرجل«.

وقال سوستام الملقب بالقديس: «إنها شر لابد منه، وآفة مرغوب فيها، وخطر على الأسرة والبيت، ومحبوبة فتاكة، ومصيبة مطلية مموهة».

وفي القرن الخامس اجتمع بعض اللاهوتيين ليبحثوا ويتساءلوا في مجمع «ماكمون»: «هل المرأة جثمان بحت أو هي جسد ذو روح يناط به الخلاص والهلاك؟ وغلب على آرائهم أنها خلْوٌ من الروح الناجية، وليس هناك استنثاء بين جميع بنات حواء من هذه الوصمة إلا مريم عليها الصلاة والسلام[10]».

وأما عن مكانة المرأة في الإسلام

لقد رفع الإسلام مكانة المرأة، وأكرمها بما لم يكرمها به دين سواه؛ فالنساء في الإسلام شقائق الرجال، وخير الناس خيرهم لأهله؛ فالمسلمة في طفولتها لها حق الرضاع، والرعاية، وإحسان التربية، وهي في ذلك الوقت قرة العين، وثمرة الفؤاد لوالديها وإخوانها.

وإذا كبرت فهي المعززة المكرمة، التي يغار عليها وليها، ويحوطها برعايته، فلا يرضى أن تمتد إليها أيد بسوء، ولا ألسنة بأذى، ولا أعين بخيانة. وإذا تزوجت كان ذلك بكلمة الله، وميثاقه الغليظ؛ فتكون في بيت الزوج بأعز جوار، وأمنع ذمار، وواجب على زوجها إكرامها، والإحسان إليها، وكف الأذى عنها.

وإذا كانت أماً كان برّها مقروناً بحق الله-تعالى-وعقوقها والإساءة إليها مقروناً بالشرك بالله، والفساد في الأرض.

وإذا كانت أختاً فهى التى أُمر المسلم بصلتها، وإكرامها، والغيرة عليها . وإذا كانت خالة كانت بمنزلة الأم في البر والصلة .

وإذا كانت جدة، أو كبيرة في السن زادت قيمتها لدى أولادها، وأحفادها، وجميع أقاربها؛ فلا يكاد يرد لها طلب، ولا يُسَفَّه لها رأي .

وإذا كانت بعيدة عن الإنسان لا يدنيها قرابة أو جوار كان له حق الإسلام العام من كف الأذى، وغض البصر ونحو ذلك .

وما زالت مجتمعات المسلمين ترعى هذه الحقوق حق الرعاية، مما جعل للمرأة قيمة واعتباراً لا يوجد لها عند المجتمعات غير المسلمة .

ثم إن للمرأة في الإسلام حق التملك، والإجارة، والبيع، والشراء، وسائر العقود، ولها حق التعلم، والتعليم، بما لا يخالف دينها، بل إن من العلم ما هو فرض عين يأثم تاركه ذكراً أم أنثى.

بل إن لها ما للرجال إلا بما تختص به من دون الرجال، أو بما يختصون به دونها من الحقوق والأحكام التي تلائم كُلاً منهما على نحو ما هو مفصل في مواضعه.

ومن إكرام الإسلام للمرأة أن أمرها بما يصونها، ويحفظ كرامتها، ويحميها من الألسنة البذيئة، والأعين الغادرة، والأيدي الباطشة؛ فأمرها بالحجاب والستر، والبعد عن التبرج، وعن الاختلاط بالرجال الأجانب، وعن كل ما يؤدي إلى فتنتها.

ومن إكرام الإسلام لها: أن أمر الزوج بالإنفاق عليها، وإحسان معاشرتها، والحذر من ظلمها، والإساءة إليها.

بل ومن المحاسن-أيضاً-أن أباح للزوجين أن يفترقا إذا لم يكن بينهما وفاق، ولم يستطيعا أن يعيشا عيشة سعيدة؛ فأباح للزوج طلاقها بعد أن تخفق جميع محاولات الإصلاح، وحين تصبح حياتهما جحيماً لا يطاق .
وأباح للزوجة أن تفارق الزوج إذا كان ظالماً لها، سيئاً في معاشرتها، فلها أن

تفارقه على عوض تتفق مع الزوج فيه، فتدفع له شيئاً من المال، أو تصطلح معه على شيء معين ثم تفارقه .

ومن صور تكريم الإسلام للمرأة أن نهى الزوج أن يضرب زوجته بلا مسوغ، وجعل لها الحق الكامل في أن تشكو حالها إلى أوليائها، أو أن ترفع للحاكم أمرها؛ لأنها إنسان مكرم داخل في قوله- تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) الإسراء.

وليس حسن المعاشرة أمراً اختيارياً متروكاً للزوج إن شاء فعله وإن شاء تركه، بل هو تكليف واجب.

قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: (لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يضاجعها) رواه البخاري ومسلم.

فهذا الحديث من أبلغ ما يمكن أن يقال في تشنيع ضرب النساء؛ إذ كيف يليق بالإنسان أن يجعل امرأته - وهي كنفسه - مهينة كمهانة عبده بحيث يضربها بسوطه، مع أنه يعلم أنه لا بد له من الاجتماع والاتصال الخاص بها .

ولا يفهم مما مضى الاعتراض على مشروعية ضرب الزوجة بضوابطه، ولا يعني أن الضرب مذموم بكل حال .

لا، ليس الأمر كذلك؛ فلا يطعن في مشروعية الضرب إلا من جهل هداية الدين، وحكمة تشريعاته من أعداء الإسلام ومطاياهم ممن نبتوا من حقل الغرب، ورضعوا من لبانه، ونشأوا في ظله.

هؤلاء الذين يتظاهرون بتقديس النساء والدفاع عن حقوقهن؛ فهم يطعنون في هذا الحكم، ويتأففون منه، ويعدونه إهانة للمرأة.

وما ندري من الذي أهان المرأة؟ أهو ربّها الرحيم الكريم الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟

أم هؤلاء الذين يريدونها سلعة تمتهن وتهان، فإذا انتهت مدة صلاحيتها ضربوا بها وجه الثرى؟

إن هؤلاء القوم يستنكفون من مشروعية تأديب المرأة الناشز، ولا يستنكفون أن تنشز المرأة، وتترفع على زوجها، فتجعله-وهو رأس البيت- مرؤوساً، وتصر على نشوزها، وتمشي في غلوائها، فلا تلين لوعظه، ولا تستجيب لنصحه، ولا تبالي بإعراضه وهجره.

تُرى كيف يعالجون هذا النشوز؟ وبم يشيرون على الأزواج أن يعاملوا به الزوجات إذا تَمَرّدْنَ ؟

لعل الجواب تضمنه قول الشنفرى الشاعر الجاهلي حين قال مخاطباً زوجته:

إذا ما جئت ما أنهاك عنه *** فلم أنكر عليك فطلقيني
فأنتِ البعلُ يومئذٍ فقومي *** بسوطك-لا أبا لك- فاضربيني

نعم لقد وجد من النساء - وفي الغرب خاصة - من تضرب زوجها مرة إثر مرة، والزوج يكتم أمره، فلما لم يعد يطيق ذلك طلّقها، حينئذ ندمت المرأة، وقالت: أنا السبب؛ فلقد كنت أضربه، وكان يستحيي من الإخبار بذلك، ولما نفد صبره طلّقني!

وقالت تلك المرأة القوامة: أنا نادمة على ما فعلت، وأوجه النصيحة بألا تضرب الزوجات أزواجهن!

لقد أذن الإسلام بضرب الزوجة كما في قوله-تعالى-: (وَاللاَّتِي تَخَافُونَ

نُشُوزَهُنَّ فَعظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ) النساء: ٣٤.
وكما في قوله - عليه الصلاة والسلام - في حجة الوداع: (ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح).
ولكن الإسلام حين أذن بضرب الزوجة لم يأذن بالضرب المبرح الذي يقصد به التشفي، والانتقام، والتعذيب، وإهانة المرأة وإرغامها على معيشة لا ترضى بها.

وإنما هو ضرب للحاجة وللتأديب، تصحبه عاطفة المربي والمؤدب؛ فليس للزوج أن يضرب زوجته بهواه، وليس له إن ضربها أن يقسو عليها؛ فالإسلام أذن بالضرب بشروط منها:

أ- أن تصر الزوجة على العصيان حتى بعد التدرج معها.

ب- أن يتناسب العقاب مع نوع التقصير؛ فلا يبادر إلى الهجر في المضجع في أمر لا يستحق إلا الوعظ والإرشاد، ولا يبادر إلى الضرب وهو لم يجرب الهجر؛ ذلك أن العقاب بأكثر من حجم الذنب ظلم .

ج- أن يستحضر أن المقصود من الضرب العلاجِ والتأديب والزجر لا غير؛ فيراعي التخفيف فيه على أحسن الوجوه؛ فالضرب يتحقق باللكزة، أو بالمسواك ونحوه.

د- أن يتجنب الأماكن المخوفة كالرأس والبطن والوجه.

هـ - ألا يكسر عظماً، ولا يشين عضواً، وألا يدميها، ولا يكرر الضربة في الموضع الواحد .

و- ألا يتمادى في العقوبة قولاً أو فعلاً إذا هي ارتدعت وتركت النشوز .
فالضرب - إذاً - للمصلحة لا للإهانة، ولو ماتت الزوجة بسبب ضرب

الزوج لوجبت الدية والكفارة، إذا كان الضرب لغير التأديب المأذون فيه . أما إذا كان التلف مع التأديب المشروع فلا ضمان عليه، هذا مذهب أحمد ومالك .

أما الشافعي وأبو حنيفة فيرون الضمان في ذلك، ووافقهم القرطبي - وهو مالكي.
وقال النووي-رحمه الله-في شرح حديث حجة الوداع السابق: (وفي هذا الحديث إباحة ضرب الرجل امرأته للتأديب، فإن ضربها الضرب المأذون فيه فماتت وجبت ديتها على عاقلة الضارب، ووجبت الكفارة في ماله).
ومن هنا يتبين لنا أن الضرب دواء ينبغي مراعاة وقته، ونوعه، وكيفيته، ومقداره، وقابلية المحل، لكن الذين يجهلون هداية الإسلام يقلبون الأمر، ويلبسون الحق بالباطل.

ثم إن التأديب بالضرب ليس كل ما شرعه الإسلام من العلاج، بل هو آخر العلاجات مع ما فيه من الكراهة؛ فإذا وجدت امرأة ناشز أساءت عشرة زوجها، وركبت رأسها، واتبعت خطوات الشيطان، ولم ينجع معها وعظ ولا هجران-فماذا يصنع الرجل في مثل هذه الحال؟

هل من كرامته أن يهرع إلى مطالبة زوجته كل ما نشزت؟ وهل تقبل المرأة ذلك، فينتشر خبرها، فتكون غرضاً للذم، وعرضة للَّوم؟ إن الضرب بالمسواك، وما أشبهه أقلُّ ضرراً على المرأة نفسها من تطليقها الذي هو نتيجة غالبة لاسترسالها في نشوزها، فإذا طُلِّقت تصدع بنيان الأسرة، وتفرق شملها، وتناثرت أجزاؤها.

وإذا قيس الضرر الأخف بالضرر الأعظم كان ارتكاب الأخف حسناً جميلاً، كما قيل:

وعند ذكر العمى يستحسن العورُ.

فالضرب طريق من طرق العلاج يجدي مع بعض النفوس الشاردة التي لا تفهم بالحسنى، ولا ينفع معها الجميل، ولا تفقه الحجة، ولا تقاد بزمام الإقناع .

ثم إذا أخطأ أحد من المسلمين سبيل الحكمة، فضرب زوجته وهي لا تستحق، أو ضربها ضرباً مبرحاً-فالدين براء من تبعة هذه النقائص، وإنما تبعتها على أصحابها .

هذا وقد أثبتت دراسات علم النفس أن بعض النساء لا ترتاح أنفسهن إلا إذا تعرضن إلى قسوة وضرب شديد مبرح، بل قد يعجبها من الرجل قسوته، وشدته، وعنفه؛ فإذا كانت امرأة من هذا النوع فإنه لا يستقيم أمرها إلا بالضرب.

وشواهد الواقع والملاحظات النفسية على بعض أنواع الانحراف تقول: إن هذه الوسيلة قد تكون أنسب الوسائل لإشباع انحراف نفسي معين، وإصلاح سلوك صاحبه، وإرضائه في الوقت ذاته؛ فربما كان من النساء من لا تحس قوة الرجل الذي تحب أن يكون قواماً عليها إلا حين يقهرها عضلياً.
وليست هذه طبيعة كل امرأة، ولكن هذه الصنف من النساء موجود، وهو الذي يحتاج إلى هذه المرحلة الأخيرة؛ ليستقيم على الطريقة.

والذين يولعون بالغرب، ويولون وجوههم شطره يوحون إلينا أن نساء الغرب ينعمن بالسعادة العظمى مع أزواجهن ولكن الحقيقة الماثلة للعيان تقول غير ذلك؛ فتعالوا نطالع الإحصاءات التي تدل على وحشية الآخرين الذين يرمون المسلمين بالوحشية.

أ- نشرت مجلة التايم الأمريكية أن ستة ملايين زوجة في أمريكا يتعرضن لحوادث من جانب الزوج كل عام، وأنه من الفين إلى أربعة آلاف امرأة

يتعرضن لضرب يؤدي إلى الموت، وأن رجال الشرطة يقضون ثلث وقتهم للرد على مكالمات حوادث العنف المنزلي. انظر دور المرأة المسلمة في المجتمع إعداد لجنة المؤتمر النسائي الأول ص٤٥.

ب- ونشر مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي عام ١٩٧٩م أن ٤٠% من حوادث قتل النساء تحدث بسبب المشكلات الأسرية، وأن ٢٥% من محاولات الانتحار التي تُقْدم عليها الزوجات يسبقها نزاع عائلي. انظر دور المرأة المسلمة في المجتمع ص٤٦ .

ج- دراسة أمريكية جرت في عام ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م أشارت إلى ٧٩% يقومون بضرب النساء وبخاصة إذا كانوا متزوجين بهن .

وكانت الدراسة قد اعتمدت على استفتاء أجراه د .جون بيرير الأستاذ المساعد لعلم النفس في جامعة كارولينا الجنوبية بين عدد من طلبته. وقد أشارت الدراسة إلى أن استعداد الرجال لضرب زوجاتهم عالٍ جداً، فإذا كان هذا بين طلبة الجامعة فكيف بمن هو دونهم تعليماً؟
د- وفي دراسة أعدها المكتب الوطني الأمريكي للصحة النفسية جاء أن ١٧% من النساء اللواتي يدخلن غرف الإسعاف ضحايا ضرب الأزواج أو الأصدقاء، وأن ٨٣ % دخلن المستشفيات سابقاً مرة على الأقل للعلاج من جروح وكدمات أصبن بها كان دخولهن نتيجة الضرب.

وقال إفان ستارك معد هذه الدراسة التي فحصت (١٣٦٠) سجلاً للنساء: إن ضرب النساء في أمريكا ربما كان أكثر الأسباب شيوعاً للجروح التي تصاب بها النساء، وأنها تفوق ما يلحق بهن من أذى نتيجة حوادث السيارات، والسرقة، والاغتصاب مجتمعة.

وقالت جانيس مور-وهي منسقة في منظمة الائتلاف الوطني ضد العنف المنزلي ومقرها واشنطن: إن هذه المأساة المرعبة وصلت إلى حد هائل؛

فالأزواج يضربون نسائهم في سائر أنحاء الولايات المتحدة، مما يؤدي إلى دخول عشرات منهن إلى المستشفيات للعلاج.

وأضافت بأن نوعية الإصابات تتراوح ما بين كدمات سوداء حول العينين، وكسور في العظام، وحروق وجروح، وطعن بالسكين، وجروح الطلقات النارية، وما بين ضربات أخرى بالكراسي، والسكاكين، والقضبان المحماة. وأشارت إلى أن الأمر المرعب هو أن هناك نساء أكثر يُصبن بجروح وأذى علىِ أيدي أزواجهن ولكنهن لا يذهبن إلى المستشفى طلباً للعلاج، بل يُضمِدن جراحهن في المنزل .

وقالت جانيس مور: إننا نقدر بأن عدد النساء اللواتي يُضربن في بيوتهن كل عام يصل إلى ستة ملايين امرأة، وقد جمعنا معلومات من ملفات مكتب التحقيقات الفيدرالية، ومن مئات الملاجئ التي توفر المأوى للنساء الهاربات من عنف وضرب أزواجهن. انظر من أجل تحرير حقيقي ص١٦-٢١ وانظر المجتمع العاري بالوثائق والأرقام ص٥٦-٥٧. هـ - وجاء في كتاب ماذا يريدون من المرأة لعبدالسلام البسيوني ص٣٦-٦٦ ما يلي:

- ضرب الزوجات في اليابان هو السبب الثاني من أسباب الطلاق.
- ٧٧٢ امرأة قتلهن أزواجهن في مدينة ساوباولو البرازيلية وحدها عام١٩٨٠م.
- يتعرض ما بين ثلاثة إلى أربعة ملايين من الأمريكيات للإهانة المختلفة من أزواجهن وعشاقهن سنوياً.

- أشارت دراسة كندية اجتماعية إلى أن ربع النساء هناك-أي أكثر من ثمانية ملايين امرأة-يتعرضن لسوء المعاملة كل عام .

- في بريطانيا تستقبل شرطة لندن وحدها مائة ألف مكالمة سنوياً من

نساء يضربهن أزواجهن على مدار السنين الخمس عشرة الماضية .

- تتعرض امرأة لسوء المعاملة في أمريكا كل ثمان ثوان.

- مائة ألف ألمانية يضربهن أزواجهن سنوياً، ومليونا فرنسية.
-٦٠% من الدعوات الهاتفية التي تتلقاها شرطة النجدة في باريس أثناء الليل- هي نداءات استغاثة من نساء تُساء معاملتهن.

وبعد فإننا في غنى عن ذكر تلك الإحصاءات؛ لعلمنا بأنه ليس بعد الكفر ذنب.
ولكن نفراً من بني جلدتنا غير قليل لا يقع منهم الدليل موقعه إلا إذا نسب إلى الغرب وما جرى مجراه؛ فها هو الغرب تتعالى صيحاته من ظلم المرأة؛ فهل من مدكر؟

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة *** فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

ومن صور تكريم الإسلام للمرأة أن أنقذها من أيدي الذين يزدرون مكانها، وتأخذهم الجفوة في معاشرتها؛ فقرر لها من الحقوق ما يكفل راحتها، وينبه على رفعة منزلتها، ثم جعل للرجل حق رعايتها، وإقامة سياج بينها وبين ما يخدش كرامتها

ومن الشاهد على هذا قوله-تعالى- : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوف وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) البقرة: ٢٢٨ .

فجعلت الآية للمرأة من الحقوق مثل ما للرجل؛ وإذا كان أمر الأسرة لا يستقيم إلا برئيس يدبره فأحقهم بالرياسة هو الرجل الذي شأنه الإنفاق عليها، والقدرة على دفاع الأذى عنها .

وهذا ما استحق به الدرجة المشار إليها في قوله-تعالى-: وللرجال عليهن

درجة وقوله: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) النساء: ٣٤ .

بل إن الله-عز وجل-قد اختص الرجل بخصائص عديدة تؤهله للقيام بهذه المهمة الجليلة.

ومن تلك الخصائص ما يلي:

أ- أنه جُعل أصلها، وجعلت المرأة فرعه، كما قال-تعالى-: (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) النساء: ١.

ب- أنها خلقت من ضلعه الأعوج، كما جاء في قوله-عليه الصلاة والسلام-: (استوصوا بالنساء؛ فإن المرأة خلقت من ضلَع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه؛ إن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج؛ استوصوا بالنساء خيراً) .

ج- أن المرأة ناقصة عقل ودين، كما قال-عليه الصلاة والسلام-: (ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم منكن) .

قالت امرأة: يا رسول الله، وما نقصان العقل والدين؟ قال: (أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، وتمكث الليالي ما تصلي، وتفطر في رمضان؛ فهذا نقصان الدين) .

فلا يمكن-والحالة هذه-أن تستقل بالتدبير والتصرف .

د- نقص قوّتها، فلا تقاتل ولا يُسهَم لها .

هـ- ما يعتري المرأة من العوارض الطبيعية من حمل وولادة، وحيض ونفاس، فيشغلها عن مهمة القوامة الشاقة .

و- أنها على النصف من الرجل في الشهادة-كما مر-وفي الدية، والميراث،

والعقيقة، والعتق.

هذه بعض الخصائص التي يتميز بها الرجل عن المرأة.

قال الشيخ محمد رشيد رضا-رحمه الله- : (ولا ينازع في تفضيل الله الرجلَ على المرأة في نظام الفطرة إلا جاهل أو مكابر؛ فهو أكبر دماغاً، وأوسع عقلاً، وأعظم استعداداً للعلوم، وأقدر على مختلف الأعمال) .

وبعد أن استبان لنا عظم شأن القوامة، وأنها أمر يأمر به الشرع، وتقره الفطرة السوية، والعقول السليمة-فهذا ذكر لبعض ما قاله بعض الغربيين من الكتاب وغيرهم في شأن القوامة؛ وذلك من باب الاستئناس؛ لأن نفراً من بني جلدتنا لا يقع الدليل موقعه عندهم إلا إذا صدر من مشكاة الغرب.

أ- تقول جليندا جاكسون حاملة الأوسكار التي منحتها ملكة بريطانيا وساماً من أعلى أوسمة الدولة، والتي حصلت على جائزة الأكاديمية البريطانية، وجائزة مهرجان مونتريال العالمي تقول: (إن الفطرة جعلت الرجل هو الأقوى والمسيطر بناءً على ما يتمتع به من أسباب القوة تجعله في المقام الأول بما خصه الله به من قوة في تحريك الحياة، واستخراج خيراتها، إنه مقام الذاتية عند الرجل التي تؤهله تلقائياً لمواجهة أعباء الحياة وإنمائها، واطراد ذلك في المجالات الحياتية).

ب- الزعيمة النسائية الأمريكية (فليش شلافي) دعت المرأة إلى وجوب الاهتمام بالزوج والأولاد قبل الاهتمام بالوظيفة، وبوجوب أن يكون الزوج هو رب الأسرة وقائد دفتها.

ج- وفي كتاب صدر أخيراً عن حياة الكاتبة الإنجليزية المشهورة (أجاثا كريستي) ورد فيه قولها: (إن المرأة الحديثة مُغَفَّلة؛ لأن مركزها في المجتمع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم؛ فنحن النساء نتصرف تصرفاً أحمق؛

لأننا بذلنا الجهد خلال السنين الماضية؛ للحصول على حق العمل والمساواة في العمل مع الرجل.

والرجال ليسوا أغبياء؛ فقد شجعونا ع لى ذلك معلنين أنه لا مانع مطلقاً من أن تعمل الزوجة وتضاعف دخل الزوج .

ومن المحزن أن نجد بعد أن أثبتنا نحن النساء أننا الجنس اللطيف الضعيف أننا نعود اليوم لنساوى في الجهد والعرق الذي كان من نصيب الرجل وحده) .

د- وتقول طبيبة نفسية أمريكية: (أيما امرأة قالت: أنا واثقة بنفسي، وخرجت دون رقيب أو حسيب فهي تقتل نفسها وعفتها) .

هذا ما يقول العقلاء من أولئك القوم، فماذا يقول العلم الحديث في ذلك الشأن؟

لقد أثبت العلم الحديث أخيراً وَهْمَ محاولات المساواة بين الرجل والمرأة، وأن المرأة لا يمكن أن تقوم بالدور الذي يقوم به الرجل؛ فقد أثبت الطبيب (د .روجرز سبراي) الحائز على جائزة نوبل في الطب-وجود اختلافات بين مخ الرجل ومخ المرأة، الأمر الذي لا يمكن معه إحداث مساواة في المشاعر وردود الأفعال، والقيام بنفس الأدوار. وقد أجرى طبيب الأعصاب في جامعة (بيل) الأمريكية بحثاً طريفاً رصد خلاله حركة المخ في الرجال والنساء عند كتابة موضوع معين أو حل مشكلة معينة، فوجد أن الرجال بصفة عامة يستعملون الجانب الأيسر من المخ، أما المرأة فتستعمل الجانبين معاً.

وفي هذا دليل-كما يقول أستاذ جامعة بيل- أن نصْفَ مُخِّ الرجل يقوم بعمل لا يقدر عليه مُخُّ المرأة إلا بشطريه.

وهذا يؤكد أن قدرات الرجل أكبر من قدرات المرأة في التفكير، وحل

المشكلات.

وهذا ما اكتشفه البروفيسور ريتشارد لين من القسم السيكيولوجي في جامعة ألستر البريطانية حيث يقول: (إن عدداً من الدراسات أظهرت أن وزن دماغ الرجل يفوق مثيله النسائي بحوالي أربع أوقيات). وأضاف لين: (أنه يجب الإقرار بالواقع، وهو أن دماغ الذكور أكبر حجماً من دماغ الإناث، وأن هذا الحجم مرتبط بالذكاء) .

وقال: (إن أفضلية الذكاء عند الذكور تشرح أسباب حصول الرجال في بريطانيا على ضعفي ما تحصل عليه النساء من علامات الدرجة الأولى) . وسواء صح ما قالوه أم لم يصح فإن الله-سبحانه-أخبرنا في كتابه بالاختلاف بين الجنسين على وجه العموم فقال-عز وجل- : (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى) آل عمران: ٣٦.

فكل ميسر لما خلق له، وكل يعمل على شاكلته .

ولا يفهم من خلال ما مضى أن ضعف المرأة ونقصها الخلْقي يعد من مساوئها بل هو من أعظم محاسنها .

قال العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي-رحمه الله-: (ألا ترى أن الضعف الخلْقيّ والعجز عن الإبانة في الخصام عيب ناقص في الرجال مع أنه يعد من جملة محاسن النساء التي تجذب إليها القلوب. قال جرير:

إن العيون التي في طرفها حور *** قتلننا ثم لم يحين قتلانا
يَصْرَعْن ذا اللب حتى لا حراك به *** وهن أضعف خلق الله أركانا

وقال ابن الدمينة:

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له *** ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
فلم يعتذرْ عُذْرَ البريء ولم تزل *** به سكتة حتى يقال مريب

فالأول تشبيب بهن بضعف أركانهن، والثاني بعجزهن عن الإبانة في

الخصام كما قال-تعالى-: (وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) الزخرف: ١٨.
ولهذا التباين في الكمال والقوة بين النوعين صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم - (اللعن على من تشبه منهما بالآخر) .

وقال-رحمه الله-بعد أن ذكر بعض الأدلة على فضيلة الذكر على الأنثى: (فإذا عرفت من هذه أن الأنوثة نقص خلقي، وضعف طبيعي-فاعلم أن العقل الصحيح الذي يدرك الحكم والأسرار يقضي بأن الناقص الضعيف بخلقته وطبيعته يلزم أن يكون تحت نظر الكامل في خلقته، القوي بطبيعته؛ ليجلب له ما لا يقدر على جلبه من النفع، ويدفع عنه ما لا يقدر على دفعه من الضر).

ومن إكرام الإسلام للمرأة: أن أباح للرجل أن يعدد، فيتزوج بأكثر من واحدة، فأباح له أن يتزوج اثنتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، ولا يزيد عن أربع بشرط أن يعدل بينهن في النفقة، والكسوة، والمبيت، وإن اقتصر الزوج على واحدة فله ذلك.

هذا وإن في التعدد حكماً عظيمة، ومصالح كثيرة لا يدركها الذين يطعنون في الإسلام، ويجهلون الحكمة من تشريعاته، ومما يبرهن على الحكمة من مشروعية التعدد مايلي:

١- أن الإسلام حرم الزنا، وشدَّد في تحريمه؛ لما فيه من المفاسد العظيمة التي تفوق الحصر والعد، والتي منها: اختلاط الأنساب، وقتل الحياء، والذهاب بالشرف وكرامة الفتاة؛ إذ الزنا يكسوها عاراً لا يقف حده عندها، بل يتعداه إلى أهلها وأقاربها.

ومن أضرار الزنا: أن فيه جناية على الجنين الذي يأتي من الزنا؛ حيث يعيش مقطوع النسب، محتقراً ذليلاً.

ومن أضراره: ما ينتج عنه من أمراض نفسية وجسدية يصعب علاجها، بل

ربما أودت بحياة الزاني كالسيلان، والزهري، والهربس، والإيدز، وغيرها. والإسلام حين حرم الزنا وشدَّد في تحريمه فتح باباً مشروعاً يجد فيه الإنسان الراحة، والسكن، والطمأنينة ألا وهو الزواج، حيث شرع الزواج، وأباح التعدد فيه كما مضى.

ولا ريب أن منع التعدد ظلم للرجل وللمرأة؛ فمنعه قد يدفع إلى الزنا؛ لأن عدد النساء يفوق عدد الرجال في كل زمان ومكان، ويتجلى ذلك في أيام الحروب؛ فَقَصْر الزواج على واحدة يؤدي إلى بقاء عدد كبير من النساء دون زواج، وذلك يسبب لهن الحرج، والضيق، والتشتت، وربما أدى بهن إلى بيع العرض، وانتشار الزنا، وضياع النسل.

٢- أن الزواج ليس متعة جسدية فحسب: بل فيه الراحة، والسكن، وفيه- أيضاً-نعمة الولد، والولد في الإسلام ليس كغيره في النظم الأرضية؛ إذ لوالديه أعظم الحق عليه؛ فإذا رزقت المرأة أولاداً، وقامت على تربيتهم كانوا قرة عين لها؛ فأيهما أحسن للمرأة: أن تنعم في ظل رجل يحميها، ويحوطها، ويرعاها، وترزق بسببه الأولاد الذين إذا أحسنت تربيتهم وصلحوا كانوا قرة عين لها؟ أو أن تعيش وحيدة طريدة ترتمي هنا وهناك؟ !.

٣- أن نظرة الإسلام عادلة متوازنة: فالإسلام ينظر إلى النساء جميعهن بعدل، والنظرة العادلة تقول بأنه لابد من النظر إلى جميع النساء بعين العدل .

إذا كان الأمر كذلك؛ فما ذنب العوانس اللاتي لا أزواج لهن؟ ولماذا لا يُنظر بعين العطف والشفقة إلى من مات زوجها وهي في مقتبل عمرها؟ ولماذا لا ينظر إلى النساء الكثيرات اللواتي قعدن بدون زواج؟.

أيهما أفضل للمرأة: أن تنعم في ظل زوج معه زوجة أخرى، فتطمئن نفسها، ويهدأ بالها، وتجد من يرعاها، وترزق بسببه الأولاد، أو أن تقعد بلا زواج البتة؟.

وأيهما أفضل للمجتمعات: أن يعدد بعض الرجال فيسلم المجتمع من تبعات العنوسة؟ أو ألا يعدد أحد، فتصطلي المجتمعات بنيران الفساد؟.
وأيهما أفضل: أن يكون للرجل زوجتان أو ثلاث أو أربع؟ أو أن يكون له زوجة واحدة وعشر عشيقات، أو أكثر أو أقل؟.

٤- أن التعدد ليس واجباً: فكثير من الأزواج المسلمين لا يعددون؛ فطالما أن المرأة تكفيه، أو أنه غير قادر على العدل فلا حاجة له في التعدد .

٥- أن طبيعة المرأة تختلف عن طبيعة الرجل: وذلك من حيث استعدادها للمعاشرة؛ فهي غير مستعدة للمعاشرة في كل وقت، ففي الدورة الشهرية مانع قد يصل إلى عشرة أيام، أو أسبوعين كل شهر .

وفي النفاس مانع-أيضاً- والغالب فيه أنه أربعون يوماً، والمعاشرة في هاتين الفترتين محظورة شرعاً، لما فيها من الأضرار التي لا تخفى .

وفي حال الحمل قد يضعف استعداد المرأة في معاشرة الزوج، وهكذا .

أما الرجل فاستعداده واحد طيلة الشهر، والعام؛ فبعض الرجال إذا منع من التعدد قد يؤول به الأمر إلى سلوك غير مشروع.

٦- قد تكون الزوجة عقيماً لا تلد: فيَحْرَمُ الزوج من نعمة الولد، فبدلاً من تطليقها يبقي عليها، ويتزوج بأخرى ولود.

وقد يقال: وإذا كان الزوج عقيماً والزوجة ولوداً؛ فهل للمرأة الحق في الفراق؟.
والجواب: نعم فلها ذلك إن أرادت .

٧- قد تمرض الزوجة مرضاً مزمناً: كالشلل وغيره، فلا تستطيع القيام على خدمة الزوج؛ فبدلاً من تطليقها يبقي عليها، ويتزوج بأخرى .
٨- قد يكون سلوك الزوجة سيئاً: فقد تكون شرسة، سيئة الخلق لا ترعى حق زوجها؛ فبدلاً من تطليقها يبقي الزوج عليها، ويتزوج بأخرى؛ وفاء للزوجة، وحفظاً لحق أهلها، وحرصاً على مصلحة الأولاد من الضياع إن

كان له أولاد منها .

٩- أن قدرة الرجل على الإنجاب أوسع بكثير من قدرة المرأة: فالرجل يستطيع الإنجاب إلى ما بعد الستين، بل ربما تعدى المائة وهو في نشاطه وقدرته على الإنجاب .

أما المرأة فالغالب أنها تقف عن الإنجاب في حدود الأربعين، أو تزيد عليها قليلاً؛ فمنع التعدد حرمان للأمة من النسل .

١٠- أن في الزواج من ثانية راحة للأولى: فالزوجة الأولى ترتاح قليلاً أو كثيراً من أعباء الزوجية؛ إذ يوجد من يعينها ويأخذ عنها نصيباً من أعباء الزوج .

ولهذا، فإن بعض العاقلات إذا كبرت في السن وعجزت عن القيام بحق الزوج أشارت عليه بالتعدد .

١١- التماس الأجر: فقد يتزوج الإنسان بامرأة مسكينة لا عائل لها، ولا راع، فيتزوجها بنية إعفافها، ورعايتها، فينال الأجر من الله بذلك.

١٢- أن الذي أباح التعدد هو الله-عز وجل-: فهو أعلم بمصالح عباده، وأرحم بهم من أنفسهم .

وهكذا يتبين لنا حكمة الإسلام، وشمول نظرته في إباحة التعدد، ويتبين لنا جهل من يطعنون في تشريعاته .

ومن إكرام الإسلام للمرأة أن جعل لها نصيباً من الميراث؛ فللأم نصيب معين، وللزوجة نصيب معين، وللبنت وللأخت ونحوها نصيب على نحو ما هو مُفَصّل في مواضعه .

ومن تمام العدل أن جعل الإسلام للمرأة من الميراث نصف ما للرجل، وقد يظن بعض الجهلة أن هذا من الظلم؛ فيقولون: كيف يكون للرجل مثل حظ الأنثيين من الميراث؟ ولماذا يكون نصيب المرأة نصف نصيب الرجل؟. والجواب أن يقال: إن الذي شرع هذا هو الله الحكيم العلم بمصالح

عباده.
ثم أي ظلم في هذا؟ إن نظام الإسلام متكامل مترابط؛ فليس من العدل أن يؤخذ نظام، أو تشريع، ثم ينظر إليه من زاوية واحدة دون ربطه بغيره، بل ينظر إليه من جميع جوانبه؛ فتتضح الصورة، ويستقيم الحكم .
ومما يتبين به عدل الإسلام في هذه المسألة: أن الإسلام جعل نفقة الزوجة واجبة على الزوج، وجعل مهر الزوجة واجباً على الزوج-أيضاً- .

ولنفرض أن رجلاً مات، وخلَّف ابناً، وبنتاً، وكان للابن ضعف نصيب أخته، ثم أخذ كل منهما نصيبه، ثم تزوج كل منهما؛ فالابن إذا تزوج مطالب بالمهر، والسكن، والنفقة على زوجته وأولاده طيلة حياته .

أما أخته فسوف تأخذ المهر من زوجها، وليست مطالبة بشيء من نصيبها لتصرفه على زوجها، أو على نفقة بيتها أو على أولادها؛ فيجتمع لها ما ورثته من أبيها، مع مهرها من زوجها، مع أنها لا تُطَالب بالنفقة على نفسها وأولادها .

أليس إعطاء الرجل ضعف ما للمرأة هو العدل بعينه إذاً؟

هذه هي منزلة المرأة في الإسلام؛ فأين النظم الأرضية من نظم الإسلام العادلة السماوية، فالنظم الأرضية لا ترعى للمرأة كرامتها، حيث يتبرأ الأب من ابنته حين تبلغ سن الثامنة عشرة أو أقل؛ لتخرج هائمة على وجهها تبحث عن مأوى يسترها، ولقمة تسد جوعتها، وربما كان ذلك على حساب الشرف، ونبيل الأخلاق.

وأين إكرامُ الإسلام للمرأة، وجَعْلُها إنساناً مكرماً من الأنظمة التي تعدها مصدر الخطيئة، وتسلبها حقها في الملكية والمسؤولية، وتجعلها تعيش في إذلال واحتقار، وتعدها مخلوقاً نجساً؟.

وأين إكرام الإسلام للمرأة ممن يجعلون المرأة سلعة يتاجرون بجسدها في الدعايات والإعلانات؟.

وأين إكرام الإسلام لها من الأنظمة التي تعد الزواج صفقة مبايعة تنتقل فيه الزوجة؛ لتكون إحدى ممتلكات الزوج؟ حتى إن بعض مجامعهم انعقدت؛ لتنظر في حقيقة المرأة وروحها أهي من البشر أو لا؟ !.

وهكذا نرى أن المرأة المسلمة تسعد في دنياها مع أسرتها وفي كنف والديها، ورعاية زوجها، وبر أبنائها سواء في حال طفولتها، أو شبابها، أو هرمها، وفي حال فقرها أو غناها، أو صحتها أو مرضها .

وإن كان هناك من تقصير في حق المرأة في بعض بلاد المسلمين أو من بعض المنتسبين إلى الإسلام- فإنما هو بسبب القصور والجهل، والبعد عن تطبيق شرائع الدين، والوزر في ذلك على من أخطأ والدين براء من تبعة تلك النقائص.

وعلاج ذلك الخطأ إنما يكون بالرجوع إلى هداية الإسلام وتعاليمه؛ لعلاج الخطأ .

هذه هي منزلة المرأة في الإسلام على سبيل الإجمال: عفة، وصيانة، ومودة، ورحمة، ورعاية، وتذمم إلى غير ذلك من المعاني الجميلة السامية .
أما الحضارة المعاصرة فلا تكاد تعرف شيئاً من تلك المعاني، وإنما تنظر للمرأة نظرة مادية بحتة، فترى أن حجابها وعفتها تخلف ورجعية، وأنها لابد أن تكون دمية يعبث بها كل ساقط؛ فذلك سر السعادة عندهم .

وما علموا أن تبرج المرأة وتهتكها هو سبب شقائها وعذابها .

وإلا فما علاقة التطور والتعليم بالتبرج والاختلاط وإظهار المفاتن، وإبداء الزينة، وكشف الصدور، والأفخاذ، وما هو أشد؟ !.

وهل من وسائل التعليم والثقافة ارتداء الملابس الضيقة والشفافة والقصيرة؟!.
ثم أي كرامة حين توضع صور الحسناوات في الإعلانات والدعايات؟! ولماذا لا تروج عندهم إلا الحسناء الجميلة، فإذا استنفذت السنوات

جمالها وزينتها أهملت ورميت كأي آلة انتهت مدة صلاحيتها؟ !. وما نصيب قليلة الجمال من هذه الحضارة؟ وما نصيب الأم المسنة، والجدة، والعجوز؟.

إن نصيبها في أحسن الأحوال يكون في الملاجىء، ودور العجزة والمسنين؛ حيث لا تُزار ولا يُسأل عنها. وقد يكون لها نصيب من راتب تقاعد، أو نحوه، فتأكل منه حتى تموت؛ فلا رحم هناك، ولا صلة، ولا ولي حميم .

أما المرأة في الإسلام فكلما تقدم السن بها زاد احترامها، وعظم حقها، وتنافس أولادها وأقاربها على برها-كما سبق- لأنها أدَّت ما عليها، وبقي الذي لها عند أبنائها، وأحفادها، وأهلها، ومجتمعها.

أما الزعم بأن العفاف والستر تخلف ورجعية-فزعم باطل، بل إن التبرج والسفور هو الشقاء والعذاب، والتخلف بعينه، وإذا أردت الدليل على أن التبرج هو التخلف فانظر إلى انحطاط خصائص الجنس البشري في الهمج العراة الذين يعيشون في المتاهات والأدغال على حال تقرب من البهيمية؛ فإنهم لا يأخذون طريقهم في مدارج الحضارة إلا بعد أن يكتسوا. ويستطيع المراقب لحالهم في تطورهم أن يلاحظ أنهم كلما تقدموا في الحضارة زادت نسبة المساحة الكاسية من أجسادهم، كما يلاحظ أن الحضارة الغربية في انتكاسها تعود في هذا الطريق القهقرى درجة درجة حتى تنتهي إلى العري الكامل في مدن العراة التي أخذت في الانتشار بعد الحرب العالمية الأولى، ثم استفحل داؤها في السنوات الأخيرة. وهكذا تبين لنا عظم منزلة المرأة في الإسلام، ومدى ضياعها وتشردها إذا هي ابتعدت عن الإسلام .

هذه نبذة يسيرة، وصور موجزة من تكريم الإسلام للمرأة.

(*) الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد (المشرف العام على موقع دعوة الإسلام)

الفتوحات الإسلامية

فى بداية الحديث عن الفتوحات الإسلامية فهى لم تكن بالغزو العسكرى بقدر ما كانت لنشر دعوة التوحيد وإنما قامت الحروب بين منهج الإسلام الذى أراد الخير للبشرية وبين مناهج الضلال التى استعبدت الإنسان ودمرت البشرية بأطماعها وفجورها ولذلك فنحن أصحاب الفتوحات وهم أصحاب الغزو وسفك الدماء بدون وجه حق. وإن وصية النبي صلى الله عليه وسلم لجيوش المسلمين خير دليل على صحة مصطلح الفتوحات الإسلامية وأن الإسلام لم ينتشر بحد السيف إنما كان السيف حفاظا على منهج الحق ضد أهل الباطل.

إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث أميرا له على سرية أمره بتقوى الله عزوجل في خاصة نفسه ثم في أصحابه عامة، ثم يقول: اغز بسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله ولا تغدروا ولا تغلوا وتمثلوا ولا تقتلوا وليدا ولا متبتلا في شاهق(٢) ولا تحرقوا النخل ولا تغرقوه بالماء ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تحرقو زرعا لانكم لاتدرون لعلكم تحتاجون إليه ولا تعقروا من البهائم مما يؤكل لحمه إلا ما لابد لكم من أكله(٣) وإذاالقيتم عدوا للمسلمين فادعوهم إلى إحدى ثلاث فإن هم أجابوكم إليها فاقبلوا منهم وكفوا عنهم: ادعوهو إلى الاسلام فإن دخلوا فيه فاقبلوه منهم وكفوا عنهم، وادعوهم إلى الهجرة بعد الاسلام فإن فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم وإن أبوا أن يهاجروا واختاروا ديارهم و أبوا أن يدخلوا في دار الهجرة كانوا بمنزلة أعراب المؤمنين يجري عليهم مايجري على أعراب المؤمنين ولايجري لهم في الفيئ ولا في القسمة شيء إلا أن يهاجروا في سبيل الله فإن أبوا هاتين فادعوهم إلى إعطاء الجزية عن يدوهم صاغرون فإن أعطوا الجزية فاقبل منهم وكف عنهم وإن أبوا فاستعن الله عزوجل عليهم وجاهدهم الله حق جهاده وإذا حاصرت أهل حصنفأرادوك على أن ينزلوا على حكم الله

عزوجل فلا تنزل لهم ولكن أنزلهم على حكمكم ثم اقض فيهم بعدما شئتم فإنكم إن تركتموهم على حكم الله لم تدروا تصيبوا حكم الله فيهم أم لا وإذا حاصرتم أهل حصن فإن آذنوك على أن تنزلهم على ذمة الله وذمة رسوله فلا تنزلهم ولكن أنزلهم على ذممكم وذمم آبائكم وإخوانكم فإنكم إن تخفروا ذممكم(١) وذمم آبائكم وإخوانكم كان أيسر عليكم يوم القيامة من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه واله عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن الوشاء، عن محمد بن حمران، وجميل ابن دراج كلاهما، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه واله إذا بعث سرية عا بأميرها فأجلسه إلى جنبه وأجلس أصحابه بين يديه ثم قال: سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه واله لاتغدروا ولاتغلوا ولا تمثلوا ولا تقطعوا شجرة إلا أن تضطروا إليها ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا صبيا ولا امرأة وأيما رجل من أدنى المسلمين و أفضلهم نظر إلى أحد من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله فإذا سمع كلام الله عز وجل فإن تبعكم فأخوكم في دينكم وإن أبي فاستعينوا بالله عليه وأبلغوه مأمنه. ..

الفتوحات الإسلامية هي عدة حروب تقدمت بها جيوش الدولة الإسلامية

إلى أراضٍ لنشر الإسلام وتوسيع الدولة الإسلامية. وكان من نتيجة هذه الفتوحات هو الإزدهار الإقتصادي للدولة الإسلامية، وتشكيلها لإحدى كيانات العالم والمراكز الثقافية التي أشتهرت بعلمائها وأدبائها. كما إن نتيجة أخرى لهذه الحروب هو نشر الإسلام على نطاق واسع ونشر اللغة العربية معه، حيث تم تعريب العديد من الدول التي لم تتكلم العربية سابقاً وإستعراب مواطنيها، وفي بعض الدول الأخرى (مثل بلاد فارس وهندوستان) التي لم تغير لغتها، قامت بالكتابة بحروف عربية.

بعد عشر سنوات من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فتح المسلمون بلاد الروم البيزنطيين والفرس الساسانيين. ففتحوا الشام ومصر والعراق وفارس.

بعدها إزدهرت الحضارةالإسلامية في الدول التي دانت بالإسلام ودالت له طواعية تحت ظلال الخلائف الراشدة والأموية والعباسية. و لقد ظلت الخلافة الراشدة ثلاثين عاما (٦٣٢ – ٦٦١ م). وكان الخليفة عمر أول من أقيمت المدن الإسلامية في عهده كالكوفة والبصرة بالعراق والفسطاط بمصر. وظلت المدينة المنورة عاصمة الخلافة حتي نقلها الخليفة الرابع علي بن أبي طالب للكوفة، بسبب القلاقل التي نشبت في عهد عثمان بن عفان وأدت لإستشهاده.

وبعد مقتل علي بن ابي طالب تأسست الدولة الأموية (٦٦١ - ٧٥٠ م) بدمشق وحكمت حوالي قرن. وكانت تمتد من غربي الصين إلى جنوب فرنسا حيث كانت الفتوحات الإسلامية وقتها تمتد من شمال أفريقيا إلى إسبانيا وجنوب فرنسا بغرب أوروبا، وبالسند في وسط آسيا وفيما وراء نهري جيحون وسيحون. واقيمت المؤسسات الإسلامية والمساجد والمكتبات هناك. و كان الأمويون بدمشق قد حاولوا فتح القسطنطينية عام ٧١٧ م. وإبان حكمهم فتحوا شمال أفريقيا. وكان أول نزول لقوات الفتح الإسلامي بأرض الأندلس بشبه جزيرة إيبريا (أسبانيا والبرتغال). فكان أول إنتصار للمسلمين هناك عام ٢٩ هجرية (٧١١ م) في معركة وادي البرباط، لتبدأ مسيرة الفتوحات الإسلامية بجنوب ايطاليا وصقلية. فلقد بلغ الفتح الإسلامي برنديزي والبندقية بإيطاليا علي بحرالأدرياتيك. وخضعت كل جزر البحر الأبيض المتوسط من كريت شرقا حتى كورسيكا غربا للحكم الإسلامي[].

وكانت الخلافة الأموية الثانية بالأندلس ٧٥٦ – ١٠٣١ م عاصمتها قرطبة التي شيدها الأمويون. وكانت أكبر مدينة في أوروبا. وحكمواالأندلس زهاء قرنين. وكانت هذه الخلافة منارة للحضارة في الغرب حتى قسمها الطوائف والبربر والموحدون لدويلات أدت لسقوط الحكم الإسلامي تماما. ولاسيما بعد سقوط مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين عام ١٤٩٢ م علي يد الملك فريناندو والملكة إيزابيلا. و عندما كانت الحضارة الأندلسية في عنفوانها،

كانت موقعة بواتييه قرب تولوز بوسط فرنسا قدأوقفت المد الإسلامي الكاسح لشمالها. حيث إنتصر الفرنجة على عبد الرحمن الغافقي عام ١١٤ هجرية (٧٣٢ م) عندما قتل بها في معركة بلاط الشهداء. لكنهم رغم هذه الهزيمة، واصلوا فتوحاتهم حتي أصبحت تولوز وليون ونهر اللوار تحت السيادة الإسلامية ولكن كان إحتلالهم لتولوز لفترة قصيرة تبلغ ثلاثة أشهر نجح بعدها الدوق أودو (الذي يعرف بيودس) الذي ترك المدينة للبحث عن المساعدة من العودة مع جيش لينتصر على الجيوش العربية في معركة تولوز في ٩ يونيو، ٧٢١. وكان الفاتحون قد بلغوا نهر السين وبوردو وجنوب إيطاليا (أطلقوا عليه البر الطويل).

وللتاريخ كانت الخلافة العباسية(٧٥٠ - ١٢٥٨ م) ببغداد تتآمر ضد الأمويين بالأندلس بتحالفها مع شارلمان ملك الفرنجة. وهذا سبب ثان لتوقف الفتوحات الإسلامية بغرب أوروبا. وما بين سنتي ٩١٠ و١١٧١ م كان ظهور السلاجقة في المشرق والفاطميون بالقاهرة والأيوبيين والمماليك في مصر والشام. وكانت الحملات الصليبية علي الشام وفلسطين ومصر والسيطرة على القدس. وفي عام١١٨٧ م سيطر صلاح الدين على بيت المقدس من الصليبيين.

وكان إحراق المغول التتار لبغداد عام ١٢٥٨ م بعدما كانت عاصمة الخلافة العباسية خمسة قرون. بعدها رجعوا لديارهم وكانوا وثنيين. لكنهم أسلموا عند عودتهم. فكانوا للإسلام داعين ومبشرين له بين قبائلهم. وأقاموا تحت ظلاله الإمبراطوريات والممالك الإسلامية بأفغانستان وباكستان وشبه القارة الهندية وبالملتان والبنغال وآسيا الوسطي وأذربيجان والقوقاز والشيشان وفارس وغيرها من بلدان المشرق الإسلامي. حيث أقاموا الحضارة الإسلامية

المغولية والتركية التي مازال أوابدها ماثلة حتي اليوم. وكان تيمورلنك قد أقام الإمبراطورية التيمورية عام(١٣٧٩ - ١٤٠١ م) وكانت العاصمة سمرقند بوسط آسيا. وقد حكم إيران والعراق والشام وحتى الهند. وكانت وقتها

طرق القوافل التجارية العالمية تحت سيطرة المسلمين. سواء طريق الحرير الشهير أو تجارة المحيط الهندي بين الشرق الأقصى وشرق أفريقيا. و كان السقوط الأخير للقسطنطينية(عام ١٤٥٣ م)، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية(الروم). وكان هذا السقوط علي يد محمد الفاتح العثماني. وأطلق عليها إسلام بول (إستانبول) بعدما جعلها عاصمة للخلافة العثمانية (الإمبراطورية العثمانية) (١٣٥٠ - ١٩٢٤ م). وكان لسقوط القسطنطينية صداه في العالم الإسلامي كله حيث أقيمت الزينات بالقاهرة والشام وشمال أفريقيا لأن هذا النصر كان نهاية للكنيسة الشرقية ولاسيما بعد تحويل مقرها إلي أيا صوفيا. ثم أستطاع العثمانيون فتح رومانيا والصرب والبوسنة والهرسك والمجر]. وأستطاعوا إحتلال فيينا أيضاً. وحشد البابا في الفاتيكان قوات أوروبا لوقف هذا الزحف الإسلامي وأستطاع أن يدحر الغزاة بعد بقائهم لمدة شهرين فقط في معركة فيينا في ١٦٨٣. ومن بعدها كان خبز الكرواسون ومعناه الهلال (بالفرنسية) يصنع على هيئة الهلال ليأكله الأوربيون في أعيادهم للإحتفال بالإنتصار على العثمانيين الذي كان علمهم يحتوي على هلال.

في ظلال الحكم الإسلامي ظهرت مدن تاريخية كالكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع والقيروان وفاس ومراكش والمهدية والجزائر وقرطلة وغيرها. كما خلفت الحضارة الإسلامية مدنا متحفية تعبر عن العمارة الإسلامية كإستانبول بمساجدها والقاهرة بعمائرها الإسلامية

وبخاري وسمرقند وحيدر أباد وقندهار وبلخ وترمذ وغزنة وبوزجان وطليطلة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وأصفهان وتبريز ونيقيا وغيرها من المدن الإسلامية. وفي القارة الأفريقية نجد أن ٨٥% من سكانها مسلمون. وفي العالم نجد المسلمين يشكلون حاليا خمس سكان أهل الأرض..

نشر رسالة التوحيد خارج شبه الجزيرة العربية

الرسالة الخاتمة كانت رسالة عالمية قال تعالى "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا" فكان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث بالرسل إلى مصر والشام لدعوة الملوك إلى الإسلام ومن أهم هذه الرسائل:

رسالة إلى هرقل إمبراطور الروم و تقبلها بقبول حسن

رسالة إلى كسرى إمبراطور الفرس و لكنه ثار و أرسل إلى حاكم اليمن الموالى لفارس لقتل محمد ثم أخبرهم الرسول بمقتل كسرى على يد ابنه شروية و لما عاد الرجلان بخبر كسرى و صدق الرسول ، أسلما هم و من كان معهما من الفرس ببلاد اليمن.

رسالة إلى النجاشى ملك الحبشة و عاد مبعوث الرسول و المسلمين الذين كانوا بالحبشة و جهزهم بسفينتين و على رأسهم جعفر بن أبى طالب.

رسالة إلى المقوقس عظيم القبط بمصر و عاد مبعوث الرسول بجاريتين فتزوج الرسول ﷺ من مارية القبطية بعد أن أسلمت. وفيما يلى نص رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس وبعدها دعوة ربعى ابن عامر لرستم قائد الفرس.

نص رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس القبطي:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم القبط، **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(آل عمران: من الآية ٦٤)**

وبعث بها مع حاطب بن أبي بلتعة، فلما دخل عليه، قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به، ثم

انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك، فقال: إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه، فقال حاطب: ندعوك إلى دين الله، وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به، فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا الدين، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء، والإخبارِ بالنجوى، وسأنظر، وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم فجعله في حُق من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة وهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك، ولم يزد على هذا، ولم يسلم فلما بلغت الرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه.

والجاريتان مارية وسيرين، والبغلة دلدل، بقيت إلى زمن معاوية، وقد ذكر هذه الرسالة ابن سعد في الطبقات، وابن القيم في زاد المعاد، والحافظ ابن حجر في الإصابة.

دعوة الصحابي / ربعى بن عامر لرستم قائد الفرس يوم القادسية

فبعث سعد ربعى بن عامر وكان ربعى(يرتدى ثياب بالية وسيف وترس وخوذة ويركب فرس قصير) فدخل ربعى على رستم في مجلسه المزين

بالنمارق المذهبة والزاربى الحرير وجالس على سرير من ذهب وتاجه المرصع باللألى والزينة الثمينة وترك فرسه على طرف البساط وربط الفرس ببعض الوسائد في مجلس رستم فطلب منه حرس رستم وضع سلاحه قبل أن يتكلم مع قائدهم رستم فقال ربعى: جئتكم حين دعوتمونى فإن تركتمونى هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: فأقبل ربعي يتوكأعلى رمحه فوق النمارق فخرق عامتها فقال رستم :ما جاء بكم ؟

فقال ربعى: إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعة الأخرة ومن جور الاديان إلى عدالة الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إلى الله فمن قبل ذلك الدين قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبى هذا الدين قاتلناه حتى نفضى إلى موعود الله، قال رستم: وما موعود الله؟

قال ربعى: الجنةلمن مات على قتال من رفض دين الله والظفر لمن لم يمت ، فقال رستم: قد سمعت ما قلت فهل لكم أن تؤخروا القتال حتى ننظر في أمر هذا الدين؟ فقال ربعى: نعم، كم أحب إليكم يوم أو يومين؟

قال رستم :لا بل حتى نكاتب أهل رأينا وكسرى ورؤساء قومنا، فقال ربعى: ما سن لنا رسول الله أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث ليال ،فقال رستم: أسيدهم أنت ؟

فقال ربعى: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم. فإجتمع رستم برؤساء قومه فقال لهم: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا المبعوث (ربعى)؟

فقال رؤساء رستم: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع إلى هذا الكلب!! أما ترى إلى ثيابه البالية؟

فقال رستم: لا تنظرون إلى الثياب وإنظروا إلى الرأى والكلام والسيرة إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل ويصنون الأحساب.

الحضارة الإسلامية وأصحاب الأديان الأخرى

وبعد انتشار الإسلام كانت معاملة أصحاب الأديان الأخرى واضحة فتفرض عليهم الجزية كما تفرض على المسلمين الزكاة وهذا من أوجه العدل في الإسلام .فعاشوا جميعا في مجتمع واحد بدون تعصب أحمق أوظلم وهذا أعطى المجتمع الإسلامي تماسكا قويا. وكان تسامح وعدل المنهج الإسلامي سببا في دخول الأخريين في دين الله أفواجا.

حرمة دماء الذمين والمعاهدين

في المدينة حيث تأسس المجتمع الإسلامي الأول وعاش في كنفه اليهود بعهد مع المسلمين، وكان صلى الله عليه وسلم غاية في الحلم معهم والسماحة في معاملتهم حتى نقضوا العهد وخانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما من يعيشون بين المسلمين يحترمون قيمهم ومجتمعهم فلهم الضمان النبوي، فقد ضمن صلى الله عليه وسلم لمن عاش بين ظهراني المسلمين بعهد وبقى على عهده أن يحظى بمحاجة النبي صلى الله عليه وسلم لمن ظلمه فقال صلى الله عليه وسلم: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»، وشدد الوعيد على من هتك حرمة دمائهم فقال صلى الله عليه وسلم: « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»، تلك صور من سماحة النبي صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين.

أما التطبيق الحضارى لسماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين فصوره المشرفة كثيرة، ومنها: عدم إكراههم على ترك دينهم فيتركون وما يدينون ولا يكرهون على الدخول في الإسلام بعد دعوتهم إليه بالحكمة والرحمة،

ومنها: عدم إيذائهم فلا يجوز لأحد من الناس أن يؤذيهم أو يضيق عليهم، والإحسان إليهم والبر بهم، حيث ينعم غير المسلمين من أهل هذه البلاد بحسن الجوار وشتى صور الإحسان والتسامح في المعاملة.

أمر الإسلام بالوفاء بالعهود التى أخذها المؤمنون على أنفسهم أو على غيرهم وعدم الإخلال بها، قال تعالى: {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} سورة النحل:٩١ ، وقال سبحانه: {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً} سورة الإسراء:٣٤.

فالوفاء بالعهود من سمات المؤمنين الصادقين، قال تعالى: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} البقرة:١٧٧.

حرمة دماء أهل الذمّة والمعاهدين

من هنا فيحرم قتل الذمى بغير حق ولقد كان صلى الله عليه وسلم يوصى كثيراً بأهل الذمة والمستأمنين وسائر المعاهدين، ويدعو إلى مراعاة حقوقهم وإنصافهم والإحسان إليهم وينهى عن إيذائهم..

وروى أبوداود في السنن عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن آبائهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسٍ فأنا حجيجه (أى أنا الذى أخاصمه وأحاجه) يوم القيامة.

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عنالنبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قتـ ل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً).

وإذا أجار أحد من المسلمين مشركا في دار الإسلام فيجب معاونته على ذلك ويحرم خفر ذمته، ففى الصحيحين عن أبى مرة مولى أم هانئ بنت أبى طالب أنه سمع أم هانئ بنت أبي طالب تقول: ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره، قالت: فسلمت عليه، فقال: (من هذه). فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: (مرحبا بأم هانئ)، فلما فرغ من غسله، قام فصلى ثمانى ركعات، ملتحفاً في ثوب واحد، فلما انصرف، قلت: يا رسول الله، زعم ابن أمى، أنه قاتل رجلاً قد أجرته، فلان بن هبيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ)، قالت أم هانئ: وذاك ضحى.

وروى أبوداود في السنن عن عَمْرِو بن شُعَيْبٍ عن أبِيه عن جَدّه قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "المُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دمَاؤُهُمْ يسْعَي بِذِمّتِهِمْ أدْنَاهُمْ وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سواهُمْ يَرِدّ مُشَدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ، ومُتَسَرّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ لاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ وَلاَ ذُو عَهْدٍ في عَهْدِهِ".

وعن عمرو بن الحمق رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أيما رجل أمن رجلاً على دمه ثم قتله فأنا من القاتل برىء وإن كان المقتول كافراً، رواه ابن ماجة وابن حبان في صحيحه واللفظ له، وقال ابن ماجة فإنه يحمل لواء غدر يوم القيامة.

وقال ابن حزم في (مراتب الإجماع): (واتّفقوا أن دمَ الذمى الذى لم ينقض شيئاً من ذمّته حرام) .

وصيةالنبي صلى الله عليه وسلم بالذميين خصوصًا أهل مصر

الوصيّة بأهل الذمّة، وصيانة أعراضهم وأموالهم، وحفظ كرامتهم عن أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنكم ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحما.

وصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالذميين

وأخرج البخارى من طريق عمرو بن ميمون أن عمر رضى الله عنه قال - في وصيته للخليفة الذى بعده - وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم".

قمة العدل معهم ولا يجوز غيبتهم

عن العرباض بن سارية قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « أيحسب أحدكم متكئا على أريكته يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما في هذا القرآن ألا وإنى والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذى عليهم»، رواه أبوداود وفى إسناده: أشعث بن شعبة قد تكلم فيه والحديث قابل للتحسين.

ويقول القرافى : (إن عَقْد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم؛ لأنهم في جوارنا وفى خفارتنا، وذمّةِ الله تعالى، وذمّةِ رسوله)، ودِينِ الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سَوء، أو غيبة في عِرْض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذيّة، أو أعان على ذلك، فقد ضيعَ ذمّةَ الله تعالى وذمّة رسوله (وذمة دين الإسلام)

الوصية النبوية بالأقارب غير المسلمين

ومن جمال الإسلام أن اختلاف الدين لا يُلْغى حقَّ ذوى القربى.

وعن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنه قالت: قدمت على أمى وهى مشركة فقلت يا رسول الله إن أمى قدمت على وهى راغبة أفأصلها؟ قال: «نعم صليها». متفق عليه إن البرّ والإحسان والعَدْلَ حقّ لكل مَنْ لم يقاتل المسلمينِ أو يُظاهر على قتالهم، بل حتى المقاتل يجوز بِرّهُ والإحسان إليه إذا لم يقوه ذلك على قتال المسلمين وأذاهم.

القرآن يتكلم عن الذميين

قال الله تعالى: »لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» الممتحنة:٨.

قال ابن جرير: (عُنى بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان، أن تبرّوهم وتصلوهم وتُقسطوا إليهم؛ لأن برّ المؤمنِ من أهلِ الحرِب ممن بينه قرابةُ نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غيرُ مُحَرَم ولا منهى عنه، إذا لم يكن في ذلك دلالةٌ له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقويةٌ لهم بكُراع أو سلاح، وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) يقول: إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس، ويعَطونهم الحَقّ والعدل من أنفسهم، فيبرّون من برهم، ويحسنون إلى من أحسن إليهم)

احذر ظلم الذميين

فقد حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من دُعاء المظلوم ولو كان كافراً، عن أبي عبد الله الأسدى قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوة المظلوم وإن كان كافرا ليس دونها حجاب، في المسند.

وبذلك يؤكد الإسلام فرض العدل مع غير المسلمين، بأقوى تأكيد، والعَدْلُ رأس كُلّ فضيلة.

وإ ن ديننا يأمرنا بالعدل مع أعدائنا، وينهانا عن الاعتداء عليهم أكثر ممّا اعتدوا به علينا لدينٌ حقيقٌ أن يَحْتَكِمَ إليه البشرُ جميعُهم، وأن يُتَقاضَى إليه في أرض الله وبين عباد الله.

فبهذه الأخلاق والآداب يُعامل المسلمون غيرَ المسلمين، وهذه الأخلاقُ والآداب من دين الإسلام، يأمرهم بها كتابُ ربهم وسُنَّةُ نبيهم ومادامت من دين الله تعالى، ويجوز التعامل معهم فيما يلى:

١- البيع والشراء:

وقد روى البخارى في كتاب البيوع باب الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب، عن عبدالرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم جاء رجل مشرك مشعان طويل بغنم يسوقها فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بيعاً أم عطية» أو قال: أم هبة؟ فقال: لا.. بيع، فاشترى منه شاة.. فما بالنا بأهل الذمة.

٢- الرهن عندهم

وكان صلى الله عليه وسلم يعامل مخالفيه من غير المسلمين في البيع والشراء والأخذ والعطاء، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: «توفى النبي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين، يعنى: صاعا من شعير.

٣- والمتاجرة في بلادهم:

وكان أبوبكر رضى الله عنه يتاجر في أرض الشام وهى حينذاك دار حرب في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٤- الوقف عليهم أو وقفهم على المسلمين:

قال ابن القيم: أما وقف المسلم عليه - على أهل الذمة - فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم، أو على أقاربه، وبنى فلان ونحوه.

٥- عيادتهم:

روى البخارى في كتاب الجنائز، عن أنس رضى الله عنه قال: كان غلام يهودى يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم فأسلم، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول :«الحمد لله الذى أنقذه من النار»، وروى أيضاً: قصة أبي طالب حين حضرته الوفاة فزاره النبي صلى الله عليه وسلم وعرض عليه الإسلام.

يجوز الانتفاع بما عندهم:

إن الإسلام يتسامح في أن يتلقى المسلم من غير المسلم ما ينفعه في علم الكيمياء والفيزياء والفلك والطب والصناعة والزراعة والأعمال الإدارية وأمثال ذلك، وأدلة الانتفاع بهم نجدها في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ورد في الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره في كتاب الإجارة باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام.

عن عائشة رضى الله عنها واستأجر النبي صلى الله عليه وسلم وأبوبكر رجلاً من بنى الديل ثم من بنى عبد بن عدى هادياً خريتاً- الخريت: الماهر بالهداية - قد غمس يمين حلف في آل العاصى بن وائل وهو على دين كفار قريش فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث فارتحلا.. الحديث.. فما بالنا مع الذمى.

القرآن يتكلم عن حل ذبائحـهم وجواز النـكاح من نسـائهم

قال الله تعالى:

" الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" سورة المائدة:٥.

قبول هدايا غير المسلمين

وكان صلى الله عليه وسلم يقبل هدايا مخالفيه من غير المسلمين فقبل هدية زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم في خيبر، حيث

أهدت له شاة مشوية قد وضعت فيها السم.

وقد قرر الفقهاء قبول الهدايا من الكفار بجميع أصنافهم حتى أهل الحرب، قال في المغنى: "ويجوز قبول هدية الكفار من أهل الحرب لأنالنبي صلى الله عليه وسلم قبل هدية المقوقس صاحب مصر".

وكان من سماحة النبي صلى الله عليه وسلم أن يخاطب مخالفيه باللين من القول تأليفا لهم، كما تظهر سماحة النبي صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين في كتبه إليهم حيث تضمنت هذه الكتب دعوتهم إلى الإسلام بألطف أسلوب وأبلغ عبارة.

وكان صلى الله عليه وسلم يغشى مخالفيه في دورهم، فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: «بينما نحن في المسجد إذ خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: انطلقوا إلى يهود، فخرجنا معه حتى جئناهم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فناداهم فقال: (يا معشر يهود اسلموا تسلموا) فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم.. الحديث.. وعاد صلى الله عليه وسلم يهودياً، كما في البخارى عن أنس رضى الله عنه» أن غلاما ليهود كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده فقال: (أسلم) فأسلم..

الفرق الواضح بين الحضارة الإسلامية وهمجية الأخريين "محاكم التفتيش"

لم توفر وحشية محاكم التفتيش طفلاً أو شيخاً أو امرأة، والهدف هو إبادة المسلمين، والمطلوب من المسلمين العمل على إعادة كتابة تاريخ صحيح لمحاكم التفتيش يكشف بقية فصولها الوحشية للعالم، تمثل محاكم التفتيش أحد أسوأ فصول التاريخ الغربي دموية تجاه المسلمين، وحيث امتدت وحشيتها المفرطة لتطال المسيحيين أيضاً فيما بعد..

ولذلك كان من الطبيعي ألا يتوقف المؤرخون والمستشرقون الغربيون عندها إلا نادراً في محاولة منهم لتجاوز وقائعها السوداء، بل نجدهم في حالات أخرى كثيرة يحاولون وضع التبريرات لها بادعاء أنها كانت أخطاء غير مقصودة ارتكبها القساوسة في محاولتهم للحفاظ على المسيحية بعد خروج المسلمين من الأندلس، فنجد مثلاً المستشرق البريطاني وول سميث يعلن أن الكنيسة ليست مسئولة مباشرة عن الجرائم التي ارتكبت عبر محاكم التفتيش، ولكن كان على رجال الدين المسيحي في إسبانيا أن يخوضوا معركة ضد الوجود الإسلامي بعد خروج العرب من إسبانيا، فاضطروا إلى محاكم التفتيش التي تمادى القائمون عليها في تصرفاتهم فيما بعد[1].

وهكذا عند سميث وغيره من المؤرخين والمستشرقين النصارى تتحول محاكم التفتيش إلى خطأ غير مقصود، له تبريراته، بل يصير الإسلام عندهم هو المسئول عن تلك المحاكم لأنه دفع بالمسيحيين إلى استنباط محاكم التفتيش ليصدوا تمدده في الغرب!!

على أي حال، فإن السواد الذي غطى تاريخ محاكم التفتيش لم تستطع السنوات أن تزيله من ذاكرة التاريخ العالمي، وحتى الكنيسة عينها لم تعد قادرة على تجاهل مسئوليتها المباشرة عن الفظائع التي ارتكبت بحق المسلمين من خلال تلك المحاكم، ولهذا نجد أنه مثلاً في أواسط العام ٢٠٠٢م قدمت مجموعة مكونة من ٣٠ مؤرخًا من مختلف أنحاء العالم مشروع قرار إلى البابا بولس الثاني حول إمكان اعتذار الكنيسة الكاثوليكية عن محاكم التفتيش وجرائمها بحق المسلمين..

وجاء مشروع المؤرخين الغربيين آنذاك من بين التحضيرات النصرانية لاستقبال الألفية الثالثة للميلاد، وكان الفاتيكان قد نظم مجموعات عمل من أجل دراسة إمكان اعتذار البابا للمسلمين عن الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش في إسبانيا، وفي صلاة الأحد ٢٠٠٠/٣/١٢م اعترف البابا

يوحنا بولس الثالث بأن الكنيسة قد ارتكبت عبر محاكم التفتيش ذنوباً وأخطاء بحق الآخرين خلال الألفي سنة الماضية، وبأن أتباعها ارتكبوا أخطاء أخرى باسم الدفاع عن الإيمان، وطلب أمام الملأ الصفح والغفران من الله.

الرئيس البرتغالي جورج سمبابو بدوره اعتذر عن جرائم أجداده بحق العرب في أثناء محاكم التفتيش، إلا أن اعتذاره جاء في خطبة ألقاها في حفل افتتاح ندوة التراث العربي مايو ١٩٩٧م، ومن ثم فإنه بدا وكأنه اعتذار سري لم يسمع به أحد، باستثناء صحيفة الشرق الأوسط التي تصادف أن كان أحد كتابها مشاركًا في تلك الندوة[2].

على أي حال لا بد من التوقف عند محاكم التفتيش مستعرضين بعض فصولها، وسنجد أنها بدأت عندما حانت نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس وسقوط آخر مدينة إسلامية بيد الإسبان، وهي غرناطة.

لقد استمر حكم المسلمين ٨٠٠ عام للأندلس من دون انقطاع، إلا أن الافتتان بالدنيا ونعيمها الزائل، والتحالف مع الأعداء وموالاتهم ضد الإخوة، والثقة في الواشين، وتقريب الأعداء، والاستعانة بهم على القضاء على الإخوة كل هذه الأسباب عجّلت بانهيار الدولة الإسلامية في الأندلس، وأضاعت أرضًا إسلامية فتحت من قبل على جثث وجماجم المقاتلين الشهداء من المسلمين العظام، الذين أرادوا إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، دون ملل أو كلل، حتى سطع نور الإسلام ثمانية قرون على هذه الأرض، ولم يبق من هذه الدولة إلا غرناطة التي حاصرها الإسبان.

كانت غرناطة مدينة جميلة في جنوب إسبانيا عاصمة بني زيري من ملوك الطوائف، وعاصمة بني الأحمر، وقد استطاع الإسبان أن يوقعوا الفتنة بين خلفاء علي بن الحسن، ولما تم لهم ذلك حاصروا غرناطة، وأرسل فرديناند ملك إسبانيا رسله إلى قادة غرناطة المسلمة بالاستسلام فرفضوا، فنزل جيش

إسباني مكوّن من ٢٥ ألف جندي واتجهوا صوب المزارع والحدائق وخرّبوها عن آخرها حتى لا يجد المسلمون ما يأكلونه أو يقتاتون عليه، ثم جهزت ملكة إسبانيا جيشًا آخر من ٥٠٠ ألف مقاتل لقتال المسلمين في القلاع والحصون الباقية، وبعد قتال طويل اجتمع العلماء والفقهاء في قصر الحمراء واتفقوا على الاستسلام واختاروا الوزير أبا القاسم عبد الملك لمفاوضة ملك إسبانيا فرديناند[3].

اتفاقية التسليم:

تم إبرام معاهدة تنص على أن يسلم حكام غرناطة المدينة للإسبان لقاء ضمان خروج الحكام بأموالهم إلى إفريقيا، كما تضمنت المعاهدة ثمانية وستين بنداً منها تأمين الصغير والكبير على النفس والمال والأهل، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وعقارهم، وأن تبقى لهم شريعتهم يتقاضون فيها، وأن تبقى لهم مساجدهم وأوقافهم، وألا يدخل الكاثوليك دار مسلم، وألا يغصبوا أحداً، وألا يولى على المسلمين إلا مسلم، وأن يُطلق سراح جميع الأسرى المسلمين، وألا يؤخذ أحد بذنب غيره، وألا يُرغم من أسلم من الكاثوليك على العودة إلى دينه، وألا يعاقب أحد على الجرائم التي وقعت ضد الكاثوليكية في زمن الحرب، وألا يدخل الجنود الإسبان إلى المساجد، ولا يلزم المسلم بوضع علامة مميزة، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم من أمور دينه..

وقد وقع على المعاهدة الملك الإسباني والبابا في روما، وكان التوقيعان كافيان لكي تكون المعاهدة ضمانة للمسلمين في إسبانيا، وبناء على هذه المعاهدة خرج أبو عبد الله بن أبي الحسن ملك غرناطة صباح يوم ١٤٩٢/١/٢م، من قصر الحمراء وهو يبكي كالنساء حاملاً مفاتيح مدينته وملكه الزائل، فأعطاها الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند.

فصول الاضطهاد:

الذي حدث أنه فور دخول الإسبان إلى غرناطة نقضوا المعاهدة التي أبرموها مع حكامها المسلمين، إذ كان أول عمل قام به الكاردينال مندوسيه عند دخول الحمراء هو نصب الصليب فوق أعلى أبراجها وترتيل صلاة الحمد الكاثوليكية، وبعد أيام عدة أرسل أسقف غرناطة رسالة عاجلة للملك الإسباني يعلمه فيها أنه قد أخذ على عاتقه حمل المسلمين في غرناطة وغيرها من مدن إسبانيا على أن يصبحوا كاثوليكًا، وذلك تنفيذًا لرغبة السيد المسيح الذي ظهر له وأمره بذلك كما ادَّعى..

فأقره الملك على أن يفعل ما يشاء لتنفيذ رغبة السيد المسيح، عندها بادر الأسقف إلى احتلال المساجد ومصادرة أوقافها، وأمر بتحويل المسجد الجامع في غرناطة إلى كنيسة، فثار المسلمون هناك دفاعًا عن مساجدهم، لكن ثورتهم قمعت بوحشية مطلقة، وتم إعدام مائتين من رجال الدين المسلمين حرقًا في الساحة الرئيسة بتهمة مقاومة المسيحية[4].

وظهرت محاكم التفتيش تبحث عن كل مسلم لتحاكمه على عدم تنصره، فهام المسلمون على وجوههم في الجبال، وأصدرت محاكم التفتيش الإسبانية تعليماتها للكاردينال سيسزوس لتنصير بقية المسلمين في إسبانيا، والعمل السريع على إجبارهم على أن يكونوا نصارى، وأحرقت المصاحف وكتب التفسير والحديث والفقه والعقيدة وكانت محاكم التفتيش تصدر أحكامًا بحرق المسلمين على أعواد الحطب وهم أحياء في ساحة من ساحات مدينة غرناطة أمام الناس، وقد استمرت هذه الحملة الظالمة على المسلمين حتى العام ١٥٧٧م، وراح ضحيتها حسب بعض المؤرخين الغربيين أكثر من نصف مليون مسلم، حتى تم تعميد جميع الأهالي بالقوة..

ثم صدر مرسوم بتحويل جميع المساجد إلى كنائس، وفي يوم ١٥٠١/١٠/٢م صدر مرسوم آخر بإحراق جميع الكتب الإسلامية والعربية، فأحرقت آلاف

الكتب في ساحة الرملة بغرناطة، ثم تتابع حرق الكتب في جميع المدن والقرى، ثم جاءت الخطوة التالية، عندما بدأ الأسقف يقدم الإغراءات الكثيرة للأسر المسلمة الغنية حتى يعتنقوا الكاثوليكية، ومن تلك الإغراءات تسليم أفرادها مناصب عالية في السلطة، وقد استجاب له عدد محدود جدًّا من الأسر الغنية المسلمة، وهو ما أثار غضب العامة من المسلمين فهاجموا أسر الذين اعتنقوا الكاثوليكية وأحرقوا بعضها..

عندها أعلن الكاردينال خيمينيث أن المعاهدة التي تم توقيعها مع حكام غرناطة لم تعد صالحة أو موجودة، وأعطى أوامره بتعميد جميع المسلمين في غرناطة دون الأخذ برأيهم، أو حتى تتاح لهم فرصة التعرف إلى الدين الجديد الذي يساقون إليه، ومن يرفض منهم عليه أن يختار بين أحد أمرين: إما أن يغادر غرناطة إلى إفريقيا من دون أن يحمل معه أي شيء من أمواله، ومن دون راحلة يركبها هو أو أحد أفراد أسرته من النساء والأطفال، وبعد أن يشهد مصادرة أمواله، وإما أن يُعدم علناً في ساحات غرناطة باعتباره رافضًا للمسيحية.

كان من الطبيعي أن يختار عدد كبير من أهالي غرناطة الهجرة بدينهم وعقائدهم، فخرج قسم منهم تاركين أموالهم سيراً على الأقدام غير عابئين بمشاق الطرقات ومجاهل وأخطار السفر إلى إفريقيا من دون مال أو راحلة، وللأسف بعد خروجهم من غرناطة كانت تنتظرهم عصابات الرعاع الإسبانية والجنود الإسبان، فهاجموهم وقتلوا معظمهم، وعندما سمع الآخرون في غرناطة بذلك آثروا البقاء بعد أن أدركوا أن خروجهم من إسبانيا يعني قتلهم، وبالتالي سيقوا في قوافل للتعميد، ومن كان يكتشفه الإسبان أنه قد تهرب من التعميد كانت تتم مصادرة أمواله وإعدامه علناً..

وقد فرّ عدد كبير من المسلمين الذين رفضوا التعميد إلى الجبال المحيطة في غرناطة محتمين في مغاورها وشعابها الوعرة، وأقاموا فيها لفترات وأنشأوا قرى عربية مسلمة، لكن الملك الإسباني بنفسه كان يشرف على الحملات

العسكرية الكبيرة التي كان يوجهها إلى الجبال، حيث كانت تلك القرى تُهدم ويُساق أهلها إلى الحرق أو التمثيل بهم وهم أحياء في الساحات العامة في غرناطة[5].

وعلى المنوال نفسه، سارت حملات كاثوليكية في بقية المدن الإسبانية، وقد عُرف المسلمون المتنصرون باسم المسيحيون الجدد تمييزاً لهم عن المسيحيين القُدامى، وعرفوا أيضاً باسم الموريسكوس، أي المسلمين الصغار، وعوملوا باحتقار من قبل المسيحيين القدامى، وتوالت قرارات وقوانين جديدة بحق الموريسكيين، فعلى سبيل المثال صدر في العام ١٥٠٧م أمر بمنع استعمال اللغة العربية ومصادرة أسلحة الأندلسيين، ويعاقب المخالف للمرة الأولى بالحبس والمصادرة، وفي المرة الثانية بالإعدام، وفي العام ١٥٠٨م جددت لائحة ملكية بمنع اللباس الإسلامي، وفي سنة ١٥١٠م طُبقت على الموريسكيين ضرائب اسمها الفارضة، وفي سنة ١٥١١م جددت الحكومة قرارات بمنع اللباس وحرق المتبقي من الكتب الإسلامية ومنع ذبح الحيوانات على الطريقة الإسلامية.

محاكم التفتيش:

في حمأة تلك الحملة الظالمة على المسلمين كما رأينا، تم تشكيل محاكم التفتيش التي مهمتها التأكد من كثلكة المسلمين، وقد تبين للمحاكم أن كل أعمال الكثلكة لم تؤت نفعًا، فقد تكثلك المسلمون ظاهراً، ولكنهم فعلياً يمارسون الشعائر الإسلامية فيما بينهم سرا، ويتزوجون على الطريقة الإسلامية، ويرفضون شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، ويتلون القرآن في مجالسهم الخاصة ويقومون بنسخه وتداوله فيما بينهم، بل إنهم في منطقة بلنسية أدخلوا عدداً من الكاثوليك الإسبان في الإسلام وعلموهم اللغة العربية والشعائر الإسلامية.

لقد جاءت تقارير محاكم التفتيش صاعقة على رأس الكاردينال والملك

الإسباني والبابا، في أحد التقارير التي رفعها أسقف غرناطة الموكل بتنصير مسلمي غرناطة للكاردينال، ورد أن الموريسكوس لم يتراجعوا خطوة واحدة عن الإسلام، وأنه لم يتم إيجاد طرق فاعلة لوقفهم، وإن لم يتم إيجاد تلك الوسائل فإنهم سيدخلون مسيحيي غرناطة وبلنسية ومدن أخرى في الإسلام بشكل جماعي.

وبناء على هذه التقارير تقرر إخضاع جميع الموريسكوس في إسبانيا إلى محاكم التفتيش من دون استثناء، وكذلك جميع المسيحيين الذين يُشك بأنهم قد دخلوا الإسلام أو تأثروا به بشكل يخالف معتقدات الكنيسة الكاثوليكية، ولتبدأ أكثر الفصول وحشية ودموية في التاريخ الكنسي الغربي، إذ بدأت هذه المحاكم تبحث بشكل مهووس عن كل مسلم لتحاكمه.

ومحاكم التفتيش في الواقع نمط عجيب غريب من المحاكم، فقد مُنحت سلطات غير محدودة، ومارست أساليب في التعذيب لم يعرفها أو يمارسها أكثر الطغاة وحشية عبر التاريخ، وقد بدأت تلك المحاكم أعمالها بهدم الحمامات العربية، ومنع الاغتسال على الطريقة العربية، ومنع ارتداء الملابس العربية أو التحدث باللغة العربية أو الاستماع إلى الغناء العربي، ومنع الزواج على الطريقة العربية أو الشريعة الإسلامية، ووضعت عقوبات صارمة جدًّا بحق كل من يثبت أنه يرفض شرب الخمر أو تناول لحم الخنزير، وكل مخالفة لهذه الممنوعات والأوامر تعد خروجاً على الكاثوليكية ويحال صاحبها إلى محاكم التفتيش.

كان المتهم الذي يمثل أمام المحكمة يخضع لاختبار أولي، وهو أن يشرب كؤوساً من الخمر يحددها المحاكمون له، ثم يُعرض عليه لحم الخنزير ويطلب منه أن يأكله، وبذلك يتم التأكد من المتهم أنه غير متمسك بالدين الإسلامي وأوامره، ولكن هذا الامتحان لا يكون عادة إلا خطوة أولى يسيرة جدًّا إزاء ما ينتظر المتهم من رحلة طويلة جدًّا من التعذيب، إذ يعاد بعد تناوله الخمر وأكل لحم الخنزير إلى الزنزانة في سجن سري ودون أن يعرف

التهمة الموجهة إليه..

وهو مكان من أسوأ الأمكنة، مظلم، ترتع فيه الأفاعي والجرذانِ والحشرات، وتنتشر فيه الأوبئة، وفي هذا المكان على المتهم أن يبقى أشهراَ طويلة دون أن يرى ضوء الشمس أو أي ضوء آخر، فإن مات، فهذا ما تعتبره محاكم التفتيش رحمة من الله وعقوبة مناسبة له، وإن عاش، فهو مازال معرضًا للمحاكمة، وما عليه إلا أن يقاوم الموت لمدة لا يعرف أحد متى تنتهي وقد يُستدعى خلالها للمحكمة لسؤاله وللتعذيب.

وعادة كان يسأل المحقق في المرة الأولى إن كان يعرف لماذا ألقي القبض عليه وألقي في السجن، وما التهم التي يمكن أن توجه إليه، ثم يطلب منه أن يعود إلى نفسه وأن يتأمل واقعه، وأن يعترف بجميع الخطايا التي يمليها عليه ضميره، ويسأله عن أسرته وأصدقائه ومعارفه وجميع الأماكن التي عاش فيها أو كان يتردد عليها، وخلال إجابة المتهم لا يُقاطع، يُترك ليتحدث كما يشاء ويسجل عليه الكاتب كل ما يقول، ويُطلب منه أن يؤدي بعض الصلوات المسيحية ليعرف المحققون إن كان بالفعل أصبح مسيحيا أو ما زال مسلمًا، ودرجة إيمانه بالمسيحية.

وبعد هذه المقابلات البـ طيئة الروتينية، يقرأ أخيراَ المدَّعي العام على المتهم قائمة الاتهامات الموجهة إليه، وهي اتهامات تم وضعها بناء على ما استنتجته هيئة المحكمة من استنطاق المتهم، ولا تستند إلى أدلة من نوع ما، ولا يهم دفاع المتهم عن نفسه، إذ إن قانون المحكمة الأساسي أن الاعتراف سيد الأدلة، وما على المتهم إلا أن يعترف بالتهم الموجهة إليه، ولا تهم الأساليب التي يؤخذ بها الاعتراف، فإن اعترف المتهم تهرباً من التعذيب الذي سينتظره، أضاف المدعي العام إليه تهمًا أخرى، وفي النهاية يرى المحقق أن المتهم يجب أن يخضع للتعذيب لأنه إنما يعترف تهرباً من قول الحقيقة، أي أن التعذيب لا بد منه، سواء اعترف المتهم أم لم يعترف[6].

ويشتمل التعذيب على كل ما يخطر على البال من أساليب وما لا يخطر منها، وتبدأ بمنع الطعام والشراب عن المتهم حتى يصبح نحيلاً غير قادر على الحركة، ثم تأتي عمليات الجلد ونزع الأظفار، والكي بالحديد المحمي ونزع الشعر، ومواجهة الحيوانات الضارية، والإخصاء، ووضع الملح على الجروح، والتعليق من الأصابع..

وخلال كل عمليات التعذيب يسجل الكاتب كل ما يقوله المتهم من صراخ وكلمات وبكاء، ولا يستثنى من هذا التعذيب شيخ أو امرأة أو طفل، وبعد كل حفلة تعذيب، يترك المتهم يوماً واحدًا ثم يُعرض عليه ما قاله في أثناء التعذيب من تفسيرات القضاة، فإذا كان قد بكى وصرخ: يا الله، يفسر القاضي أن الله التي لفظها يقصد بها رب المسلمين، وعلى المتهم أن ينفي هذا الاتهام أو يؤكده، وفي كلا الحالتين يجب أن يتعرض لتعذيب من جديد، وهكذا يستمر في سلسلة لا تنتهي من التعذيب.

أخيراً، وقبل أربع وعشرين ساعة من تنفيذ الحكم يتم إخطار المتهم بالحكم الصادر بحقه، وكانت الأحكام تتمثل في ثلاثة أنواع:

البراءة: وهو حكم نادرًا ما حكمت به محاكم التفتيش، وعندها يخرج المتهم بريئًا، لكنه يعيش بقية حياته معاقاً مهدوداً بسبب التعذيب الذي تعرض له، وعندما يخرج يجد أن أمواله قد صودرت، ويعيش منبوذاً لأن الآخرين يخافون التعامل أو التحدث إليه خوفاً من أن يكون مراقباً من محاكم التفتيش، فتلصق بهم نفس التهم التي ألصقت به عينها.

الجلد: وقد كان المتهم يساق إلى مكان عام عارياً تماماً وينفذ به الجلد، وغالباً ما كان يموت تحت وطأة الجلد، فإن نفذ وكُتبت له الحياة يعيش كوضع المحكوم بالبراءة من حيث الإعاقة ونبذ المجتمع له.

الإعدام: وهو الحكم الأكثر صدوراً عن محاكم التفتيش، ويتم الإعدام حرقًا وسط ساحة المدينة.

وفي بعض المراحل صارت المحاكم تصدر أحكامًا بالسجن، وبسبب ازدحام السجون صارت تطلق سراح بعضهم وتعدم آخرين من دون أي محاكمات، وفي بعض الحالات تصدر أحكاماً بارتداء المتهم لباسًا معينًا طوال حياته، مع إلزام الناس بسبه كلما سار في الشارع أو خرج من بيته، وفي هذه الأحكام كما قلنا لا يُستثنى أحد بسبب العمر، فهناك وثائق تشير إلى جلد طفلة عمرها أحد عشر عاماً مائتي جلدة، وجلد شيخ في التسعين من عمره ثلاثمائة جلدة، وحتى الموتى كانوا يخضعون للمحاكمة فيتم نبش قبورهم[7].

واستمرار الاضطهاد:

كل هذه المحاكم والأساليب لم تنجح في إجبار المسلمين على ترك دينهم كما تريد الكنيسة التي أدركت مدى عمق الإيمان بالعقيدة الإسلامية في نفوس الموريسكيين، فقررت إخراجهم من إسبانيا، فأصدر مجلس الدولة بالإجماع في ١٦٠٨/١/٣٠ م قراراً بطرد جميع الموريسكيين من إسبانيا، ولم يحل شهر أكتوبر العام ١٦٠٩ م حتى عمّت موانئ المملكة وبلنسية من لقنت جنوباً إلى بني عروس شمالاً حركة كبيرة، فرحل بين ١٦٠٦/٩م إلى ١٦١٠/١م نحو ١٢٠. ٠٠٠ مسلم من موانئ لقنت، ودانية، والجابية، ورصافة، وبلنسية، وبني عروس، وغيرها.

وفي ١٦١١/٥م صدر قرار إجرامي للقضاء على المتخلفين من المسلمين في بلنسية، يقضي بإعطاء جائزة ستين ليرة لكل من يأتي بمسلم حي، وله الحق في استعباده، وثلاثين ليرة لمن يأتي برأس مسلم قتل، وقد بلغ عدد من طُرِد من إسبانيا في الحقبة بين سنتي ١٦٠٩م - ١٦١٤م نحو ٣٢٧.٠٠٠ شخص، مات منهم ٦٥.٠٠٠ غرقوا بالبحر، أو قتلوا في الطرقات، أو ضحية المرض، والجوع، والفاقة..

وقد استطاع ٣٢.٠٠٠ شخص من المطرودين العودة إلى ديارهم في الأندلس، بينما بقي بعضهم متستراً في بلاده بعد الطرد العام لهم، وقد استمر الوجود الإسلامي بشكل سري ومحدود في الأندلس في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وهكذا حكمت محاكم التفتيش في غرناطة سنة ١٧٢٦م على ما لا يقل عن ١٨٠٠ شخص (٣٦٠) عائلة بتهمة اتباع الدين الإسلامي، ونقل كاتب إسباني أخبار محاكمة وقعت في غرناطة سنة ١٧٢٧م، وفي ١٧٢٨/٥/٩م، احتفلت غرناطة بـ (أوتودافي) ضخم، حيث حكمت محاكم التفتيش على ٦٤ غرناطيا بتهمة الانتماء للإسلام، وفي ١٧٢٨/١٠/١٠م، حكمت محكمة غرناطة مرة أخرى على ثمانية وعشرين شخصاً بتهمة الانتماء إلى الإسلام، وتابعت محاكم غرناطة القبض على المتهمين بالإسلام إلى أن طلبت بلدية المدينة من الملك سنة ١٧٢٩م طرد كل الموريسكيين حتى تبقى المملكة نقية من الدم الفاسد.

وفي سنة ١٧٦٩م تلقى ديوان التفتيش معلومات عن وجود مسجد سري في مدينة قرطاجنة مقاطعة مرسية، فتم إلقاء القبض على أكثر من مائة مورسكي حوكموا وأعدم معظمهم علناً[8].

المسيحيون أيضًا:

إننا مهما أسهبنا في استعراض محاكم التفتيش فإننا لن نلم إلا بجزء يسير جدًّا من صفحاتها السوداء الوحشية، ولن نستطيع استعراض إلا جزء يسير جدًّا من جرائمها التي طالت مسلمي إسبانيا، وقد بلغ الرعب الذي سببته تلك المحاكم حدًّا لا يوصف بين سكان إسبانيا..

فقد كان جر أي إنسان إلى محاكم التفتيش عملية سهلة، وقد يقوم الاتهام لمجرد إشاعة، أو يذهب الإنسان بنفسه ليعترف رعباً، أو دليلاً على حسن نيته، بلفظ تفوه به عرضاً و دون أن يعني له شيئاً ويخشى أن يكون قد

سمعه أحد، وفتح الباب على مصراعيه أمام الضغائن الشخصية، الذي يطمع بزوجة جاره، والمالك الذي يريد أن يهرب من أجر عامله، والتاجر الذي يخشى من منافسة زميل له، حتى الأطفال في أثناء لعبهم مع بعضهم بعضاً كانوا معرضين للاتهام، كأن يذهب طفل ويشي بطفل آخر متهماً إيّاه أنه قال كذا وكذا في أثناء اللعب، فيلقى القبض على الطفل المتهم ويحاكم، وغالباً يموت لأنه لا يتحمل أهوال التحقيق والتعذيب والسجن..

وهكذا صار الطريق واسعاً وعريضاً لكل من يريد أن يتخلص من أي إنسان، وأي تهمة صالحة لأن تدفع بمسلم سابق إلى أعماق السجون سواء كان هذا المسلم السابق رجلاً أو طفلاً أو شيخاً مسنّاً.

ومن الإنصاف أن نذكر أن ضحايا التفتيش لم يكونوا فقط من المسلمين السابقين، بل كانوا من المسيحيين أيضاً، فقد انتهجت الكنيسة السلوك الإرهابي عينه تجاه المسيحيين عن طريق محاكم التفتيش التي أوكلت إليها مهمة فرض آرائها على الناس باسم الدين والبطش بجميع من يتجرأ على المعارضة والانتقاد..

فنصبت المزيد من المشانق وأعدمت الكثيرين من المسيحيين عن طريق حرقهم بالنار، حيث يقدر عدد الضحايا المسيحيين ممن جرت عملية إعدامهم من قبل محاكم التفتيش (٣٠٠ .٠٠٠)، أحرق منهم (٣٢. ٠٠٠) أحياء، وقد كان من بينهم العالم الطبيعي المعروف برونو الذي نقمت عليه الكنيسة نتيجة آرائه المتشددة التي منها قوله بتعدد العوالم وكذلك الأمر فيما يتعلق بالعالم الطبيعي الشهير جاليليو الذي نفذ به القتل، لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس[9].

والمطلوب:

بعد الذي عرضناه عن محاكم التفتيش السؤال التالي: لماذا نعود إلى محاكم التفتيش ونستعرضها هكذا؟ هل لنتباكى على مآس مضت أم لنستذكر أحزاناً انقضت.

الإجابة نستشفها مما فعله ويفعله الصهاينة بسبب ما زعموه من محارق الهولوكوست وما ادَّعوه من حرق النازية لآلاف اليهود في المحارق، فما زالت الصهيونية تضع الغرب بشكل خاص والعالم بشكل عام أمام تلك المحارق التي كانت أحد تبريراتها لاحتلال فلسطين، بينما ما زال العالم يجهل الكثير عن محاكم التفتيش التي ذهب ضحيتها آلاف وآلاف المسلمين..

وإذا كانت محارق النازية قد استمرت أعواماً، فقتل وإحراق وتعذيب المسلمين عبر محاكم التفتيش استمر مئات من الأعوام، وفي الوقت الذي تفتح فيه دول الغرب النصراني أرشيفها، ووثائقها للصهيونية لتؤلف منه ما تدَّعي أنه وثائق عن محارق اليهود في عهد النازية، مازال الفاتيكان والكنائس ترفض فتح أرشيفها وكشفه أمام المسلمين وغير المسلمين كي لا تظهر وثائق جديدة عن فظائع محاكم التفتيش!!

إن المسلمين بحاجة الآن لدراسة متمعنة لتاريخ محاكم التفتيش وفظائعها وضحاياها من المسلمين، وأن تُعتمد وثائق أرشيف الفاتيكان والكنائس الكاثوليكية في إسبانيا وغيرها من الدول النصرانية لوضع تاريخ حقيقي لتلك المحاكم وإبراز هذا التاريخ للعالم مع مقارنة موضوعية بين التعسف الكنسي والجرائم التي ارتكبت ضد المسلمين باسم المسيحية، وبين التسامح الإسلامي وكيف عاش المسيحيون بأمان وسلام في الدولة الإسلامية بحماية الإسلام الحنيف، مع ملاحظة أن معظمِ ما كُتب عن محاكم التفتيش حتى الآن يعتمد على رؤية نصرانية من قِبلِ مستشرقين ومؤرخين غير مسلمين، وبما تسمح به السلطات النصرانية..

شهادة الكولونيل ليموتسكي

كتب الكولونيل ليموتسكي أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا قال: «كنت سنة ١٨٠٩م ملحقًا بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في إسبانيا، وكانت فرقتي بين فرق الجيش الذي احتل (مدريد) العاصمة، وكان الإمبراطور نابليون أصدر مرسومًا سنة ١٨٠٨م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية، غير أن هذا الأمر أهمل العمل به للحالة والاضطرابات السياسية التي سادت وقتئذ.

وصمم الرهبان الجزويت أصحاب الديوان الملغى على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم انتقامًا من القرار الصادر، وإلقاء للرعب في قلوب الفرنسيين؛ حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد فيخلوا لهم الجو.

وبينما أسير في إحدى الليالي أجتاز شارعًا يقل المرور فيه من شوارع مدريد؛ إذ باثنين مسلحين قد هجما علي؛ يبغيان قتلي فدافعت عن حياتي دفاعًا شديدًا، ولم ينجني من القتل إلا قدوم سرية من جيشنا مكلفة بالتطواف في المدينة، وهي كوكبة من الفرسان تحمل المصابيح، وتبيت الليل ساهرة على حفظ النظام، فما أن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب، وتبين من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش، فأسرعتُ إلى (المارشال سولت) الحاكم العسكري لمدريد، وقصصت عليه النبأ وقال: لا شك بأن مَنْ يُقتل من جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار، لا بد من معاقبتهم وتنفيذ قرار الإمبراطور بحل ديوانهم، والآن خذ معك ألف جندي وأربع مدافع، وهاجم دير الديوان، واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة.. «.

حدث إطلاق نار من اليسوعيين حتى دخلوا عَنْوة، ثم يتابع قائلاً: «أصدرتُ الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعًا وعلى جنودهم الحراس توطئة لتقديمهم إلى مجلس عسكري، ثم أخذنا نبحث بين قاعات وكراسٍ هزازة، وسجاجيد فارسية، وصور ومكاتب كبيرة، وقد صنعت أرض هذه

الغرفة من الخشب المصقول المدهون بالشمع، وكان شذى العطر يعبق أرجاء الغرف، فتبدو الساحة كلها أشبه بأبهاء القصور الفخمة، التي لا يسكنها إلا ملوك قصروا حياتهم على الترف واللهو ، وعلمنا بعد أنَّ تلك الروائح المعطرة تنبعث من شمع، يوقد أمام صور الرهبان، ويظهر أن هذا الشمع قد خلط به ماء الورد.

وكادت جهودنا تذهب سدى، ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب، إننا فحصنا الدير وممراته وأقبيته كلها، فلم نجد شيئاً يدل على وجود ديوان للتفتيش، فعزمنا على الخروج من الدير يائسين، كان الرهبان أثناء التفتيش يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عن ديرهم ليس إلا تهماً باطلة، وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه بصوت خافت، وهو خاشع الرأس، توشك عيناه أن تطفر بالدموع، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير، لكن اللفتنانت «دي ليل» استمهلني قائلاً: أيسمح لي الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنته حتى الآن؟! قلت له: فتشنا الدير كله، ولم نكتشف شيئاً مريباً؛ فماذا تريد يا لفتنانت؟! قال: إنني أرغب أن أفحص أرضية هذه الغرف؛ فإن قلبي يحدثني بأن السر تحتها.

عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة، فأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة عن الأرض، ثم أمرهم أن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة -وكنا نرقب الماء- فإذا بالأرض قد ابتلعته في إحدى الغرف. فصفق الضابط «دي ليل» من شدة فرحه، وقال: ها هو الباب، انظروا. فنظرنا فإذا بالباب قد انكشف، كان قطعة من أرض الغرفة، يُفتح بطريقة ماكرة، بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير.

أخذ الجنود يكسرون الباب بقحوف البنادق، فاصفرت وجوه الرهبان، وعلتها الغبرة.

محاكم التفتيش.. أهوال تشيب لها الولدان



وفُتح الباب، فظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض، فأسرعتُ إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر، كانت تضيء أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين، ولما هممت بالنزول، وضع راهب يسوعي يده على كتفي متلطفًا، وقال لي: يابني؛ لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال، إنها شمعة مقدسة.

قلت له: يا هذا؛ إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم الأبرياء، وسنرى من النجس فينا، ومن القاتل السفاك؟!

وهبطت على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود، شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج، فإذا نحن في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها.

وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء، ثم توجهنا إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية، التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض.

رأيتُ فيها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والتـقزز طوال حياتي.

رأينا غرفًا صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الغرف العمودية واقفًا على رجليه مدة سجنه حتى يموت، ويبقى سجين ا لغرف الأفقية ممدًّا بها حتى الموت، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة إلى الفضاء الخارجي.

وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت في أغلالها.

كان السجناء رجالاً ونساءً، تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والسبعين، وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم، وهم في الرمق الأخير من الحياة.

كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ما صبّوا عليه من عذاب، وكان السجناء جميعًا عرايا، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء.

أخرجنا السجناء إلى النور تدريجيا حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا يبكون فرحًا، وهم يُقَبِلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهدًا يُبكي الصخور.

ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، كانوا يبدءون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيا، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين، ثم عثرنا على صندوقٍ في حجم جسم رأس الإنسان تمامًا، يُوضع فيه رأس الذي يُريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال؛ حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق

ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام في كل دقيقة نقطة، وقد جُنَّ الكثيرون من هذا اللون من العذاب، ويبقى المعذَّب على حاله تلك حتى يموت.

وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تُثَبت فيه سكاكين حادة.

كانوا يلقون الشاب المعذب في هذا التابوت، ثم يطبقون بابه بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مُزِّق جسم المعذب المسكين، وقطعه إربًا إربًا.



كما عثرنا على آلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشدُّ ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس في أثداء النساء وتسحب بعنف؛ حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين.

وعثرنا على سياط من الحديد الشائك، يُضرب بها المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم.

وصل الخبر إلى مدريد فهب الألوف ليروا وسائل التعذيب، فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه في آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقًّا، وسحقها سحقًا، وأمسكوا كاتم سره وزفوه إلى السيدة الجميلة[1] وأطبقوا عليه الأبو اب فمزقته السكاكين شر ممزق، ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك، ولم تمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشر راهبًا ثم أخذ ينهب ما بالدير. [2].

مجازر الحملات الصليبية في بلاد المسلمين

روى ابن الأثير في تاريخه ١٨٩/٨-١٩٠ عن دخول الصليبين للقدس في الحروب الصليبـية فقال:(مَلَك الفرنج القدس نهار يوم الجمعة، لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، و قتـل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعـين ألفا، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان و جاور بذلك الموضع الشريف)

كما وصف ستيفن رنسيمان في كتابه " تاريخ الحروب الصليبية " ما حدث في القدس يوم دخلهـا الصليبيون فقال (و في الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين اليه، وحينما توجه قائد القوة ريموند أجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه، وتركت مذبحة بيت المقدس أثرا عميقا في جميع العالم، وليس معروفا بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود ؛ بل إن كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث) (٤٠٦/٤٠٤/١).

وقد وصف كثير من المؤرخين أحداث المذبحـة التي حدثت في القدس يوم دخول الصليبيين إليهـا، و كيف أنهم كانوا يزهون بأنفسهم ؛ لأن ركب خيولهم كانت تخوض في دمـاء المسلمين التي سالت في الشوارع، و قد كان من وسائل الترفيه لدى الصليبيين أن يشووا أطفال المسلمين كما تشوى النعاج.

ويذكر الكثيرون ماذا فعل ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة - عند احتلاله لعـكا - بأسرى المسلمـين، فقد ذبح ٢٧٠٠ أسير من أسرى المسلمين الذين كانوا في حامية عكا، و قد لقيت زوجات وأطفال الأسرى مصرعهم إلى جوارهم.

فأي سلام يحمله هؤلاء ؟؟؟

قال المؤرخ الصليبي فوشيه الشارتري: "وهرب بعض هؤلاء العرب إلى برج داود، وأغلق آخرون على أنفسهم معبد الربّ ومعبد سليمان، وتَمّ شنّ هجوم وحشي على المسلمين في فناء هَذينِ المعبدَيْنِ، ولم يكن هناك مكانٌ يمكن أن ينجيهم من سيوف رجالنا، ولو أنك كنت موجودًا هناك لغاصَتْ قدماك حتى العقبينِ في دماء المذبوحينَ، ترى ماذا أقول؟ لم نترك منهم أحدًا على قيد الحياة، ولم ينج حتى النساءَ والأطفال، كم سيكون مُدْهشًا لو أنَّك رأيتَ فرساننا ومشاتنا بعد أن اكتشفوا خداعَ المسلمينَ فشقّوا بطونَ الذين ذبحوهم؛ لكي يَستخرجوا من المعدة والأمعاء العُمْلاتِ الذهبية التي كان المسلمون قد ابتلعوها وهم أحياء!! ولنفس السبب قام رجالُنا بعد أيام قلائل بجمع كومة من الجثث وأحرقوها حتى صارت رمادًا، حتى يمكنهم أن يجدوا بسهولة الذهب الذي ذكرنا خبره. عندما جرى رجالنا وسيوفهم مشرعة عبر أرجاء المدينة، ولم يُبقوا على أحد، حتى أولئك الذين يرجون الرحمة، سقط الجميع كما تسقط التفاحات العَفِنَة جميعًا من الأغصان المهزوزة، وبعد هذه المذبحة الكبيرة دخلوا بيوت السَكان، واستولَوا على كلّ ما وجدوه فيها، وتمّ هذا بطريقة جعلت كل من كان يدخل أولاً سواء كان فقيراً أم غنياً لا يجد من يُنازعه من الفرنج الآخرين، وكان له أن يحتل المنزل أو القصر، ويمتلكُه بكل ما فيه؛ كما لو كان ملكية خالصة له، وهكذا اتَّفقوا جميعًا على هذا النمط من الملكية، وبهذه الطريقة صار كثيرون من الفقراء أثرياء[2]".

وقال المؤرخ الصليبي ريمون الأجوي لري يصف ما شاهد: "بدأ رجالنا يدخلون إلى القدس بجسارة وإقدام، وقد أراقوا من الدماء في ذلك اليوم كمية لا يمكن تخيلها"، وقال: "ما إنِ استولى رجالُنا على السور والأبراج. .. أطاحوا برؤوس أعدائهم، بينما رشقهم البعض الآخر بالسهام، بحيثُ سقطوا من الأبراج، على حين عذبهم البعض فترة طويلة بأن قذفوهم في النار أحياء، وكانت أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل تسترعي النظر في شوارع

المدينة، وكان المرءَ يَشُقّ طريقه بصعوبة بين جثث الرجال والخيول، ولكن هذه كانت أموراً صغيرة إذا قورنت بما جرى في معبد سليمان. .. ترى ما الذي حدث هناك؟! إذا ذكرت الحقيقة فإنَّها ستتعدَّى قدرتكم على التصديق؛ ولذا يكفي أن أقول: إنه في معبد سليمان كان الرجالُ يخوضون في الدماء حتى ركبهم وحزام ركابهم، والواقع أنه كان حكمًا عادلاً ومحترمًا منَ الربّ أن يمتلئَ هذا المكان بدماء الكفار؛ لأن هذا المكان طالما عانى من دَنَسِهم، وامتلأت المدينة بالجُثث والدِّماء، والآن تم الاستيلاء على المدينة وهيَ جديرة بكل أعمالنا السابقة، والمصاعب التي واجهناها؛ لترى إخلاص الحجّاج في الضريح المقدس[3].

وقال المؤرخ الصليبي المسمّى بالفارس المجهول: "وطاردهم رجالنا يقتلونهم ويمزقونهم حتى معبد سليمان، حيث جَرَتْ هناك مذبحةٌ بلغ من عُنْفهَا أن رجالنا كانوا يخوضون في دماء أعدائهم حتى أعقابهم. .. لدرجة أن المعبدَ كلَّه كان يفيض بدمائهم. .. وفي اليوم التالي توجهوا بحذر إلى سطح المعبد، وهاجموا المسلمينَ نساءً ورجالاً، وقطعوا رؤوسهم بسيوفهم، وقذف بعض المسلمين بأنفسهم من أعلى المعبد، ثم تشاور رجالنا، وأمروا بأن يتصدق الجميع، وأن يصلوا للرب؛ لكي يختارَ بنفسه من يريده أن يحكم المدينة، كما أمروا بأن تُرمى جميعُ جثث المسلمين خارج المدينة بسبب الرائحة المرعبة؛ لأن المدينة كلها تقريباً كانت ملأى بالجثث".

ثم ذكر أن ا لجثث كُوِّمَتْ في أكوام كبيرة بحجم البيوت، وقال: "لم ير أحد من قبل أو يسمع عن قتلٍ بمثل هذا العدد من الوثنيينَ؛ لأنهم أحرقوا في أكوام مثل الأهرامات، ولا يعرف أحد غير الرب كم كان عددهم[4]".

وذ كر المؤرخ الصليبي ميشو أن المسلمين كانوا يُذْبَحُون ذبح النعام في الشوارع والمنازل، وأنهم لم يجدوا مكانًا آمنًا يَلُوذون به[5].

وذكر المؤرخ النصراني وِلْيَم الصوري أن بيتَ المقدس أصبح مخاضة واسعة

من دماء المسلمين، أثارت خوف الغُزاة واشْمئزازهم، وأنه لم يكن من الممكن النظر إلى تلك الأعداد الضخمة من القتلَى دون الإحساس بالرعب، ففي كل مكان ترى بقايا جثث القتلى مقطوعي الرؤوس والأيدي، وكانت الأرضُ مغطاةً بدماء القتلى[6].

ونقل المؤرخ الغربي النصراني ديورانت عمن حضروا تلك المذابح وشاركوا فيها قولهم: "إنَّ النساء كن يُقتلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم، ويُقذف بهم من فوق الأسوار، أو تُهَشَّم رؤوسهم بدقها بالعمد[7]".

وذكر صاحب كتاب "أعمال الفرنجة": "أن جثث قتلى المسلمين وُضعت في أكوامٍ حتى حاذتِ البُيوتَ ارتفاعًا. [8]"

وقد اختصر الصليبيون وصف هذه المذابح العظيمة في الرسالة التي أرسلوها إلى البابا يخبرونه بما فعلوا قائلين: "إذا ما أردت أن تعلمَ ما جرى لأعدائنا الذين وجدناهم بالمدينة، فثقْ أنَّه في إيوان سليمان أو معبده كانت خيولنا تخوض في بحر من دماء الَشرقيين المتدفّقة إلى ركبتيها[9]".

وإزاء هذه المذابح الرهيبة لم يكن كثيرًا ما حلَّ بالمسلمين من الحزن والبكاء في كافَّة البلدان آنذاك، وخاصّة في دار الخلافة على مصير إخوانهم في الشام، ولا سيما في القدس وما جاورها، حتى إنَّ بعضهم عجز عن الصيام من شدة البَكاء والنحيب فأفطروا[10].

مجازر الصليبيين عند دخول القدس

ذكر " غوستاف لوبون " في كتابه " الحضارة العربية " - نقلا عن روايات رهبان ومؤرخين رافقوا الحملة الصليبية الحاقدة على القدس - ما حدث حين دخول الصليبيين للمدينة المقدسة من مجازر دموية لا تدل إلا على حقد أسود متأصل في نفوس ووجدان الصليبيين. قال الراهب " روبرت "

أحد الصليبيين - المتعصبين وهو شاهد عيان لما حدث في بيت المقدس - واصفا سلوك قومه ص٣٢٥ :(كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها ! كانوا يذبحون الأولاد والشباب، ويقطعونهم إربا إربا، وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، وكان قومنا يقبضون كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية !!! فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث).

وقال كاهن أبوس(ريموند داجميل) شامتاً ص٣٢٦-٣٢٧: (حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقد قطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم، وبقرت بطون بعضهم ؛ فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم في النار ؛ فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا).

لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها. ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء(!) بذلك فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود و خوارج النصارى - الذين كان عددهم ستين ألفا - فأفنوهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام، و لم يستبقوا منهم امرأة و لا ولدا و لا شيخا) وفي ص٣٩٦ يقول :(و عمل الصليبيون مثل ذلك في مدن المسلمين التي اجتاحوها: ففي المعرة قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين في الجوامع و المختبئين في السراديب، فأهلكوا صبراً ما يزيد على مائة ألف إنسان - في أكثر الروايات - و كانت المعرة من أعظم مدن الشام بعدد

السكان بعد أن فر إليها الناس بعد سقوط أنطاكية و غيرها بيد الصليبيين).

فأي إنسانية يتغنى بمثلها هؤلاء ؟ هل فعلا يديرون الخد الأيسر لمن يصفعهم على خدهم الأيمن ؟

تاريخهم يجيب عن ذلك !

تعامل صلاح الدين مع الصليبيين

ومع ما فعله الصليبيون في القدس فاننا نرى رحمة الإسلام ومسا محته حتى مع هؤلاء الكلاب، فقد وصف المؤرخون ما حدث في اليوم الذي دخل فيه صلاح الدين الأيوبي رضي الله عنه إلى القدس فاتحـا: لم ينتقم أو يقتل أو يذبح بل اشتهر المسلمون الظافرون في الواقع بالاستقـامة والإنسانية. فبينـما كان الصليبيون منذ ثمان وثمانين سنة يخوضـون في دماء ضحاياهم المسـلمين،لم تتعرض أي دار من دور بيت المقدس للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه ؛ اذ صار رجال الشرطة يطوفون بالشوارع والأبواب - تنفيذا لأمر صلاح الدين - لمنع كل اعتداء يحتمل وقوعه على المسيحيين: وقد تأثر الملك العادل لمنظر بؤس الأسرى فطلب من أخيه صلاح الدين إطلاق سراح ألف أسير، فوهبهم له، فأطلق العادل سراحهم على الفور، وأعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز.

وأقبل نساء الصليبيين وقد امتلأت عيونهن بالدموع فسألن صلاح الدين أين يكون مصـيرهن بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم، أو وقعوا في الأسر، فأجاب صلاح الدين بأن وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا - كل بحسب حالته - فكانت رحمته وعطفه نقيض أفعال الصليبيين الغزاة.

أما بالنسبة لرجال الكنيسة أنفسهم - وعلى رأسهم بطـريرك بيت المقدس - فإنهـم لم يهتـموا إلا بأنفسهم، وقد ذهل المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل وهو يؤدي عشرة دنانير(مقدار الفدية المطلوبة منه) ويغادر المدينة، وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب، وقد تبعته عربات تحمل ما بحـوزته من الأموال والجواهر والأواني النفيسة.

مجازر التتار في بلاد المسلمين

أرسل الصليبيين وفدا رفيع المستوى من أوروبا إلي منغوليا ؛ مسافة تزيد علي (١٢ ألف كم) ذهابا فقط ؛ ليحفزو االتتار على غزو البلاد الإسلامية وإسقاط الخلافة العباسية وعلى اقتحام بغداد درة العالم الإسلامي في ذلك الوقت ؛ وأنهم سيساعدونهم على حرب المسلمين وسيكونوا بمثابة أعينهم في هذه المناطق ؛ وبذلك تم إغراء التتار إغراء كاملا وحدث ما توقعة الصليبيين ؛ فقد سال لعاب التتار على أملاكا لخلافة العباسية وقرروا فعلا غزو هذه البلاد الواسعة الغنية بالثروات والمليئة بالخيرات وبدأ التتار يفكرون جديا في غزو العالم الإسلامي وبدأوا يخططون بحماسة شديدة لإسقاط الخلافة العباسية ودخول بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية.

.. ..

خطة جنكيز خان لغزو العالم الإسلامي

عندما قرر جنكيز خان غزو العالم الإسلامي فكر في أن يتمركز في منطقة أفغانستان وأوزبكستان لعدة أسباب مهمة وهي:

١- كبر المسافة بين الصين والعراق ولابد من جود قواعد إمداد ثابتة للجيوش التترية في منطقة متوسطة بين العراق والصين.

٢- ولأن هذه المنطقة والتي تعرف بمنطقة " القوقاز " غنية بالثروات الزراعية والاقتصادية في هذه الأثناء

٣- تكتيكيا لا يستطيع جنكيز خان لأن يحارب العراق وفي ظهره شعوب مسلمة قد تحاربة أو تقطع عليه خطوط الإمداد.

ولهذه الأسباب قرر جنكيز خان خوض حروب متتالية مع هذه المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية والتي تعرف بالدولة " الخوارزمية " واتي تضم في طياتها عدة أقاليم إسلامية غاية في الأهمية وكان هناك بين الدولة الخوارزمية ودولة التتار معاهدات واتفاقيات على عدم الاعتداء من أي من الدولتين على الأخرى ؛ ولكي تكون الحرب مقنعة بين الطرفين فلابد من وجود سبب يدعو إلي هذه الحرب.

بداية النزاع

بحث جنكيز خان عن سبب مناسب لدخول هذه الحرب ولكنه لم يجد السبب المقنع للحرب وسبحان الله - حدث أمر مفاجئ بغير إعداد مسبق من جنكيز خان يصلح لأن يكون سببا لهذه الحرب وبالفعل اتخذه جنكيز خان كذريعة لدخول هذه الحرب التي ستقضي تماما علي الدولة الخوارزمية وهذا السبب هو " أن مجموعة من التجار المغول ذهبوا إلي مدينة إسلامية تسمى (أوترار) وهي تقع في شرق المملكة الخوارزمية على حدود دولة التتار فلما رآهم حاكم المدينة المسلم أمر بقتلهم جميعا" .

اختلاف المؤرخون في سبب قتلهم:

١- منهم من قال أن هؤلاء ما كانوا إلا جواسيس أرسلهم جنكيز خان للتجسس على الدولة الخوارزمية أولاستفزازها ولذلك قتلهم حاكم المدينة.

٢- ومنهم من قال: أن هذا كان عمدا من حاكم " أوترار " كنوع من الرد

على عمليات السلب والنهب التي قام بها التتار في بلاد ما وراء النهر وهي بلاد تابعة للخوارزميين.
٣- ومنهم من قال: أن هذا كان فعلا متعمدا من حاكم " أوترار " يقصد بذلك أن يستثير التتار للحرب ليدخل بعد ذلك " خوارزم شاة " هذه المنطقة وهي منطقة " تركمنستان " وكانت ضمن أملاك التتار.
٤- ومنهم من قال: أن جنكيزخان أرسل بعضا من رجاله إلي أرض المسلمين ليقتلوا تجار التتار هناك حتي يكون ذلك سببا في غزو بلاد العالم الإسلامي.
٥- ومنهم من قال: أن حاكم " أوترار " طمع في أموال التجار فقتلهم لأجل هذا.

تطور الأوضاع بعد هذه الحادثة

عندما وصل نبأ مقتل التجار إلى جنكيزخان أرسل إلي " محمد بن خوارزم شاه " زعيم الدولة الخوارزمية الكبرى يطلب منه تسليم القتلة إليه حتى يحاكمهم بنفسه ولكن محمد بن خوارزم اعتبر ذلك تعديا على سيادة البلاد المسلمة فهو لا يسلم مجرما مسلما ليحاكم في بلدة أخرى بشريعة أخرى إنما قال " أنه سيحاكمهم في بلاده فأن ثبت بعد التحقيق أنهم مخطئون عاقبهم في بلاده بالقانون السائد فيها وهو الشريعة الإسلامية" ؛ ولكن جنكيز خان لم يقتنع بذلك الكلام أو بمعنى آخر لم يرغب في الاقتناع بذلك الكلام وعندها وجد جنكيز خان العلة المناسبة للهجوم على العالم الإسلامي وبعدها بدأ الإعصار التتري الرهيب على العالم الإسلامي فبدأت الهجمة التتريه الأولى على دولة خوارزم شاه.

بداية الإعصار

جاء جنكيز خان بجيشه الكبير لغزو بلاد الخوارزميين فخرج له محمد بن خوارزم وذلك في سنة ٦١٦_ وذلك بعد ثلاثة عشر عاما فقط من قيام دولة التتار ؛ والتقى الجيشان في موقعه رهيبة في شرق الدولة الخوارزمية شرق

نهر " سيحوون " وهو ما يعرف الآن باسم نهر "سريداريا " في دولة كزخستان المسلمة واستمرت المعركة لمدة أربعة أيام متصلة وقتل من الفريقين خلقا كثيرا ؛ فأستشهد من المسلمين في هذه الموقعة عشرون ألفا وقتل من التتار أضعاف ذلك ؛ ثم تحاجز الفريقان بعدها وأنسحب محمد بن خوارزم بجيشه من أرض المعركة لأنه وجد أن أعداد التتار هائلة ولا قبل له بها فأنسحب ليحصن المدن الكبرى في مملكته وعلى رأسها العاصمة " أورجاندا " وأنشغل في تحضير وتجهيز الجيوش من أطراف مملكته وقام محمد بن خوارزم بتحصين المدن الكبرى إلا أنه ترك الجزء الشرقي من مملكته بدون حماية كافيه ؛ ولكن هذا الخطأ لم يكن بمثابة خطأ تكتيكي من محمد بن خوارزم ولكن كان خطأ قلبي فقد اهتم بتأمين نفسه وأملاكه وأمواله وأسرته وتهاون في تأمين شعبه ؛ حافظ على كنوزه وكنوز آباءه ولكنه أهمل تماما الحفاظ على مقدرات وأملاك شعبه ؛ وعادة لا يصمد أمثال هؤلاء القواد أمام الأزمات التي تعصف بأمتهم وعادة ما تسقط الشعوب التي تقبل بهذه الأوضاع المقلوبة دون إصلاح

اجتياح بخاري

جهز جنكيز خان جيشه من جديد وأسرع في اختراق كل إقليم كازاخستان الكبير فمساحته تبلغ حوالي (٣مليون كم)تقريبا ؛ فقطع كل إقليم كازاخستان دون مقاومه تذكر حتى وصل إلى مدينة بخاري المسلمة وهي بلدة الأمام الجليل والمحدث العظيم الأمام البخاري رحمه الله – وهي تقع الآن في دولة أوزبكستان ؛ فحاصر جنكيز خان بخاري في سنة٦١٦ – ثم طلب من أهلها التسليم على أن يعطيهم الأمان ؛ وكان محمد بن خوارزم في هذه الأثناء بعيدا جدا عن بخارى فاحتار أهل بخارى ماذا يفعلون ؟فظهر في المدينة رأيان:

*الرأي الأول: قال أصحابة نقاتل التتار وندافع عن مدينتنا. * " " الثاني: قال أصحابة نأخذ بالأمان ونفتح الأبواب للتتار لتجنب القتل.

وهكذا انقسم أهل البلاد إلي فريقين ؛ فريق من المجاهدين قرر القتال وهؤلاء اعتصموا بالقلعة الكبيرة بالمدينة وأنضم إليهم فقهاء المدينة وعلماؤها ؛ وفريق آخر من المستسلمين وهذا هو الفريق الأعظم والأغلب في هذه المدينة وقرروا فعلا فتح أبواب المدينة والاعتماد على أمان التتار ففتحوا أبواب المدينة للتتار ودخل جنكيز خان المدينة الكبيرة وأعطى أهلها الأمان فعلا في أول الأمر خديعة لهم وذلك حتى يتمكن من السيطرة على المجاهدين بالقلعة الكبيرة في داخل المدينة ؛ وبدأ في حصار القلعة بل وأمر أهل المدينة من المسلمين أن يساعدوه في ردم الخنادق حول القلعة ليسهل فتحها والغريب في ذلك الأمر أنهم أطاعوه في ذلك ؛ وهكذا حوصرت القلعة عشرة أيام ثم فتحت عنوه ولما دخلها جنكيز خان لعنه الله – قتل كل من في القلعة من المجاهدين ولم يبق بالمدينة مجاهدين وهنا بدأ جنكيز خان في خيانة عهده فسأل أهل المدينة عن كنوزها وأموالها وأصطفى كل ذلك لنفسه ؛ ثم أحل المدينة لجنوده ففعلوا فيها مالا يتخيله عقل ؛ وأنظر ما قاله بن كثير في كتابه البداية والنهاية عن هذا المشهد " فقتلوا من أهلها خلقا لا يعلمه إلا الله عز وجل – وأسرو الذرية والنساء وفعلوا مع النساء الفواحش بحضرة أهلهن فارتكبوا الزنا مع البنت في حضرة أبيها ومع الزوجة في حضرة زوجها فمن المسلمين من قاتل دون حريمه حتى قتل ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب وكثر البكاء والضجيج في البلد من النساء والأطفال والرجال ثم أشعل النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها فاحترقت المدينة تماما حتى صارت خاوية على عروشها " وهكذا هلكت بخارى في عام ٦١٦ – وكان هلاكها البداية وليس النهاية.

.. ..

بداية الطوفان التتري الذي اجتاح العالم الإسلامي بأسره

دخول عام ٦١٧

ويبدأ عام ٦١٧- بأحداث أكثر وكان هذا العام من أبشع السنوات التي مرت على المسلمين منذ بعثة النبي (ص) والى يومنا هذا ؛ ففي هذه السنة علا نجم التتار واجتاحوا البلاد الإسلامية الواحدة تلو الأخرى وفعلوا بها الأفاعيل.

ابن الأثير وما قاله عن التتار-:

ونقدم على هذه الأحداث ما قاله المحدث الجليل ابن الأثير في كتابه" الكامل في التاريخ " فقد قال " لقد بقيت عدة سنوات معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم إليه رجلا وأواخر أخرى فمن ذا الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني متقبل هذا وكنت نسيا منسيا إلا أنه حثني جماعة من الأصدقاء على تسطير هذا ثم رأيت أن ترك هذا لم يجدي نفعا" .

.. ..

فبدأ يكتب الذكريات المريرة والأحداث المؤلمة فيقول في مقدمة القصة "هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عمت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين ولو قال قائل (إن العالم منذ خلق الله – سبحانه وتعالى – آدم إلى الآن لم تبتلى بمثلها) لكان صادقا فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله " بختنصر " ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس وما البيت المقدس إلى ماخرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كانت المدينة منها أضعاف البيت المقدس وما بنوا إسرائيل إلى

من قتلوا فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل ؛ ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ؛ وأما الدجال فإنه يبقي على من اتبعه ويهلك من خالفه أما هؤلاء لم يبقوا على أحد إلا وقتلوه و النساء والأطفال والرجال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة في بطون أمهاتهن - فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" .

.. ..

كانت هذه هي المقدمة التي كتبها ابن الأثير في بداية كتابة " الكامل في التاريخ " والذي كان يتحدث عن التتار وكان هو شاهد عيان على ذلك فقد كان معاصرا للأحداث في ذلك الوقت.

.. ..

ماذا حدث في سنة ٦١٧ ؟

اجتياح سمر قند

بعد أن دمر التتار مدينة " بخاري "وأهلكوا أهلها وحرقوا ديارها ومدارسها ومساجدها انتقلوا إلى المدينة المجاورة وهي " سمر قند " وهي مدينة توجد في دولة " أوزبكستان " حاليا ؛واصطحبوا في طريقهم مجموعة كبيرة من أسرى المسلمين من بخاري ؛ وكما يقول ابن الأثير " فساروا بهم على أقبح صورة فكل من أعيا وعجز عن المشي قتل" .

والحكمة من اصطحاب التتار الأسرى المسلمين معهم إلى " سمر قند " كان له أكثر من هدف من جراء ذلك مع الأخذ في الاعتبار أن هذه كانت سنة من سنن التتار في كل تنقل لهم من مدينة إلى مدينة.

أهدافهم من اصطحاب الأسرى المسلمين معهم -:

١- كانوا يعطون كل عشرة أسرى علما من أعلام التتار ليرفعوه فإذا رآهم أحد من بعيد ظن أن المجموع كله من التتار فتكثر الأعداد في أعين أعدائهم بشكل لا يتخيل فلا يعتقدون مطلقا أنهم يقدرون على قتالهم فيستسلمون.

٢- كانوا يجبرون الأسرى على أن يقاتلوا معهم ضد أعدائهم ومن رفض القتال أو لم يظهر فيه قوة قتلوه.

٣- كانوا يتترسون بهم عند لقاء المسلمين فيضعون الأسرى في أول الصفوف كالدروع ويختبئون خلفهم فإذا أطلق العدو السهام على جيش التتار دخلت السهام في صدور الأسرى المسلمين والتتار يطلقون سهامهم من خلف صفوف الأسرى المسلمين.

٤- كانوا يقتلونهم على أبواب المدن لبث الرعب في قلوب أعدائهم وإعلامهم أن هذا هو المصير الذي ينتظرهم إذا قاوموا.

٥- كانوا يبادلون بهم الأسرى في حال أسر رجال منهم في القتال.

الوضع في " سمر قند " قبل الاجتياح

"سمر قند " مدينة من حواضر الإسلام ومن أغنى مدن المسلمين في ذلك الوقت ولها قلاع حصينة وأسوار عالية ولهذه القيمة الإستراتيجية والاقتصادية الكبيرة ترك فيها " محمد بن خوارزم" خمسين ألف جندي خوارزمي لحمايتها ؛ هذا بالإضافة إلى أهلها الذين يقدرون بمئات الآلاف.

الاجتياح

وصل جنكيز خان إلى المدينة وحاصرها من كل الجهات وكان من المفترض أن يخرج إليه الجيش الخوارزمي النظامي ؛ ولكن دب الرعب في قلوب الجيش المسلم وتعلقوا بالحياة فأبوا أن يخرجوا للدفاع عن المدينة المسلمة ؛ فاجتمع أهل المدينة وتباحثوا في الأمر ففشلوا تماما في إقناع الجيش الخوارزمي في الخروج للدفاع عنهم ؛ فقرر البعض من العامة أن يخرجوا فخرج سبعون ألف من أهل المدينة وخرج معهم أهل العلم والفقهاء خرجوا جميعا على أرجلهم دون خيول ولا دواب ولم يكن لديهم خبرة عسكرية تمكنهم من القتال ؛ فرأى التتار أهل " سمر قند " يخرجون إليهم فقرروا القيام بخدعة وهي الإنسحاب المتدرج من حول الأسوار في محاولة لسحب المجاهدين بعيدا عن مدينتهم فبدأوا في التراجع تدريجيا عن " سمر قند " وقد نصبوا الكمائن خلفهم وبالفعل نجحت خطة التتار ؛

وبدأ المسلمون يطمعون فيهم حتى ابتعدوا تماما عن أسوار المدينة ؛ عنها أحاط بهم جيش التتار تماما وبدأت عملية تصفية لأفضل رجال " سمر قند " فقتل السبعون ألف مقاتل عن آخرهم ؛وبعد إفناء الجيش المسلم عاد التتار إلى حصار المدينة مرة أخرى ؛ فأخذ الجيش الخوارزمي قرارا مخزيا وهو طلب الأمان من التتار على أن يفتحوا لهم أبواب المدينة دون مجهود؛ فوافق التتار على إعطاء الأمان لهم ؛ ففتح الجيش الخوارزمي الأبواب وخرجوا إلى التتار مستسلمين فقال لهم التتار "سلموا إلينا أموالكم وسلاحكم ودوابكم ونحن نسيركم إلى مأمنكم" ففعلوا ما أمرهم به التتار فلما أخذ التتار أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف في الجنود الخوارزميين حتى أفنوهم عن آخرهم ؛ ودخل التتار المدينة وفعلوا بها مثلما فعلوا في بخاري فقتلوا أعدادا لاتحصى من الرجال والنساء والأطفال ونهبوا كل ثروات البلد وانتهكوا حرمات النساء ؛ وعذبوا الناس بأنواع العذاب المختلفة بحثا عن أموالهم وسبوا أعداد هائلة من النساء والأطفال ومن لم يصلح للسبي لكبر سنه أو لضعف جسده قتلوه ؛ وأحرقوا الجامع الكبير

بالمدينة وتركوها خرابا ؛وأستقر بعد ذلك جنكيز خان في " سمر قند " لأنه أعجبته المدينة العملاقة التي لم يرى مثلها في حياته قبل ذلك.

نهاية محمد بن خوارزم

أرسل جنكيز خان عشرون ألفا من فرسانه يطلبون محمد بن خوارزم فقال لهم جنكيز خان" أطلبوا خوارزم شاه أينما كان ولو تعلق بالسماء " ؛ وكون جنكيز خان أرسل عشرين ألف جندي فقط لقتل محمد بن خوارزم فيه إشارة إلى استهزاء جنكيز خان بمحمد بن خوارزم وبأمته ؛ فهذا العدد لايقارن بالملايين المسلمة التي ستتحرك فيها هذه الفرقة التترية الصغيرة وتدخل في أعماق الملايين المسلمة

. .. .

افعال الفرقة التترية

انطلقت الفرقة التترية مباشرة باتجاه مدينة " أورجاندا " عاصمة الخوارزميين حيث يستقر محمد بن خوارزم ؛وهي مدينة تقع على الشاطئ الغربي من نهر " جيحون " والذي يطلق عليه الآن نهر " أموداريا " فجاءت الفرقة التترية من الجانب الشرقي للنهر ففصل النهر بين الفريقين ؛ فأخذ التتار يعدون أحواضا خشبية كبيرة ثم ألبسوها جلود البقر حتى لايدخل فيها الماء ثم وضعوا فيها سلاحهم وعتادهم ومتعلقاتهم ثم أنزلوا الخيول الماء لأن الخيول تجيد السباحة ثم أمسكوا بأذناب الخيول ؛وأخذت الخيول تسبح وهم يسبحون خلفها ويسحبون خلفهم الأحواض الخشبية بما فيها من سلاح وعتاد ؛ وبهذه ا لطريقة عبرت الفرقة التترية نهر " جيحون " وفوجئ المسلمون في " أورجاندا" بالتتار إلى جوارهم ومع أن أعداد المسلمين بالنسبة للتتار كانت كبيرة إلا أنهم قد ملئوا رعبا وخوفا من التتار وماكانوا متماسكين إلا لاعتقادهم أن النهر يفصل بينهم وبين التتار ؛

أما بعد أن أصبح التتار إلى جوارهم فلميجدوا أمامهم إلا طريق واحد وهو الفرار ؛ وكما يقول ابن الأثير " ورحل خوارزم لايلوي على شيء في نفر من خاصته" .

وأتجه محمد بن خوارزم فيفراره من الفرقة التترية إلى مدينة "نيسابور " وهي إحدى مدن إيران حالياً؛ فانتقل بذلك من دولة إلى دولة أخرى من أفغانستان إلى إيران ؛ أما الجنود النظاميون فقد تفرق كل منهم في جهة ؛ وأما التتار فما كانت لهم إلا مهمة واحدة وهي البحث عن محمد بن خوارزم وقتله ولذلك تركوا " أورجاندا " ولم يدخلوها وانطلقوا مباشرة في اتجاه " نيسابور " مخترقين الأراضي الإسلامية الواسعة في عمقها وهم لايزيدون على عشرين ألف مقاتل وجنكيز خان مازال مستقراً في " سمر قند " ؛

فكان بينهم وبين أقرب تجمع تتري مسافة كبيرة فكان من الممكن بسهولة أن تحاصر هذه الفرقة التترية في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي ؛ لكن الخوف من التتار جعل الناس يفرون منهم في كل اتجاه رعباً وحرصا على الحياة ؛ ولم يكن التتار في هذه المطاردة يتعرضون لسكان البلاد بالسلب أو النهب أو القتل لأن لهم هدف محدد لايريدون أن يضيعوا الوقت في القتل وجمع الغنائم إنما يريدون فقط اللحاق بالزعيم المسلم ومن ناحية أخرى فإن الناس لم يتعرضوا لهم لئلا يستثيروا حفيظتهم فيتعرضون لأذاهم ؛

وهكذا وصل التتار إلى منطقة قريبة من مدينة " نيسابور " في فترة وجيزة فلم يتمكن محمد بن خوارزم منجمع الأنصار والجنود ؛ فلما علم بقربهم منه فترك " نيسابور " واتجه إلى "مازن دران " وهي مدينة تقع في إيران حاليا فلما علم التتار بذلك لم يدخلوا" نيسابور " بل جاوزوها واتجهوا خلفه مباشرة فترك " مازن دران " إلى مدينة" الري " ثم إلى مدينة " همدان " والتتار في أثره ثم عاد إلى مدينة " مازندران " مرة أخرى في فرار فاضح ثم اتجه بعد ذلك إلى مدينة " طبرستان " وهي مدينة على ساحل بحر "

الخذف " وهو ما يعرف ببحر " قزوين " حاليا فوجد سفينة ركب فيها وهربت به في عمق البحر وجاء التتار ووقفوا على ساحل البحر ولم يجدوا ما يركبوه خلفه ؛ فنجحت خطة محمد بن خوارزم في فراره المخذي إلى جزيرة في وسط بحر قزوين وهناك رضي بالبقاء في قلعة قديمة كانت في هذه الجزيرة وعاش في فقر شديد وحياة صعبة وهو الملك الذي ملك بلاداً كبيرة وأموالاً لاتحصى ؛ولكن رضي بذلك لكي يفر من الموت وسبحان الله – ماهى إلاأيام ومات محمد بن خوارزم شاه في هذه الجزيرة النائية بداخل القلعة وحيداً طريداً شريداً فقيراً حتى أنهم لم يجدوا مايكفنوه فيه فكفنوه في فراشه الذي ينام عليه ؛ قال تعالى " أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة" .

سيرة " محمد بن خوارزم "

-عندما تقرأ سيرة " محمد بن خوارزم " تجد أنك أمام رجل من عظماء المسلمين ؛ فإذا راجعت حياته الأخيرة وخاتمته تبين لك غير ذلك ؛ فيقول ابن الأثير في ذكر سيرته " وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهوراً تقريباً ؛ وأتسع ملكه وعظم محله وأطاعه العالم بأسره وملك من حد العراق إلى تركمنست ان (في الصين حالياً) وملك بلاد غزنة (في أفغانستان حالياً) وبعض الهند وسجستان وكرمان (في باكستان حالياً) وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخرسان وبعض فارس (فيإيران حالياً).

من هذه الفقرة يتبين لنا أنهكان عظيماً في ملكه فأستقر له الوضع في بلاد كبيرة مدة طويلة ؛ ومن هنا يظهر حسن إدارته لبلاده ؛ حتى أن ابن الأثير يقول " وكان صبوراً على التعب غير متنعم ولا مقبل على اللذات إنما همه في الملك وتدبيره وحفظه وحفظ رعاياه " ؛ وعندما تحدث عن حياته العلمية الشخصية قال " وكان فاضلاً عالماً بالفقة والحديث وغيرهما وكان مكرماً للعلماء محباً لهم محسناً إليهم وكان معظماً لأهل الدين مقبلاً

عليهم متبركاً بهم" .

ويقول ابن الأثير في نص آخر يفسر بوضوح سبب هذه الهزائم المتتالية والفرار الذي وقع على ذلك الإمام الفاضل فيقول " وكان محمد بن خوارزم وقد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها فلما انهزم من التتار لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميه " فكان هذا هو السر في حياه هذا الرجل العالم الذي اتسع سلطانه وذاع سيطه ثم مات في جزيرة في عمق البحر هرباً من التتار.

ماذا فعلت الفرقة التترية بعد هروب محمد بن خوارزم ؟

كانت المسافة بين الفرقة التترية وبين القوى الرئيسية لجنكيز خان تزيد على٦٥٠كم ؛ ودبت الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين فقبلوا أن يبقوا في قراهم ينتظرون الموت على يد الفرقة التترية ؛ فألقى الله الرعب في قلوبهم حتى كان المئة من المسلمين لا يقدرون على تترى واحد.

سقوط " مازن دران "

عادت الفرقة التترية من شاطئ بحر قزوين إلى بلاد " مازن دران " فملكوها في أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها وهي من أشد بلاد المسلمين قوة ؛حتى أن المسلمين عندما ملكوا بلاد الأكاسرة ما استطاعوا أن يدخلوا " مازن دران " وذلك في زمان " عمر بن الخطاب " ولم تُدخل إلا في زمان " سليمان بن عبد الملك " ؛لكن التتار دخلوها بسرعة عجيبة لا لقوتهم وإنما لضعف نفوس أهلها ؛ وعندما دخلوها فعلوا بأهلها الأفاعيل من قتل وتعذيب وسبي ونهب وأحرقوا البلاد والعباد.

سقوط " الري "

اتجهت الفرقة التترية من " مازن دران "بعد أن ملكوها إلى مدينة " الري " ؛ وهم في طريقهم إلى " الري " وجدوا والده " محمد بن خوارزم " وزوجاته ومعهم الأموال الكثيرة والذخائر النفيسة التي لم يسمع بمثلها من قبل فأخذوا كل ذلك سبياً وغنية وأرسلوهم إلى جنكيزخان في " سمر قند " ثم وصلوا إلى " الري " فملكوها ونهبوها وسبوا الحريم واسترقوا الأطفال وفعلوا بها الويلات ؛ثم فعلوا مثل ذلك في القرى والمدن المحيطة بالمدينة ؛ فدخلوا على سبيل المثال مدينة " قزوين " فقتلوا من المسلمين فيها أربعون ألفاً والفرقة التترية لا تتجاوز العشرين ألف.

**سقوط " تبريز "

اتجهت الفرقة التترية الصغيرة من مدينة" الري " إلى غرب بحر قزوين عند إقليم " أذربيجان" المسلم فمر التتار في طريقهم على مدينة " تبريز " وهي مدينة من مدن الإقليم ؛ فقرر حاكم المدينة المسلم ويدعى " أوزبك بن البهلوان " أن يصاح التتار على الأموال والثياب والدواب ولم يفكر مطلقاً في حربهم لأنه كان لا يفيق من شرب الخمر ليلاً أونهاراً ؛ ورضي التتار بذلك لأن الشتاء القارس قد دخل على تلك المنطقة وهذه المدينة في منطقة باردة جداً.

**سقوط " أرمينيا وجورجيا " النصرانيتين

ترك التتار " تبريز " ولكن إلى أجل واتجهوا إلى الساحل الغربي لبحر قزوين ؛ وبدأو في اجتياح الناحية الشرقية لأذربيجان متجهين ناحية الشمال ؛ وفي طريقهم اجتاحوا كلاً من " أرمينيا "و" جورجيا " فمملكة " أرمينيا " يسكنها

الكثير من النصارى ؛ومملكة "جورجيا " يتجمع بها قبائل الكرج وهي قبائل نصرانية ووثنية ؛ فحدث قتال بين التتار وبين مملكتي أرمينيا وجورجيا وانتهى القتال بهزيمة المملكتينواجتياح التتار لهذه البلاد وضمها إلى أملاكهم.

. . ..

ماذا كان يفعل " جنكيز خان " في " سمر قند "

بعد أن اطمئن جنكيز خان إلى هروب "محمد بن خوارزم " زعيم البلاد بدأ يبسط سيطرته على المناطق المحيطة ب "سمر قند " ؛ فوجد أن أعظم الأقاليم وأقواها في هذه المناطق هم إقليمي "خوارزم و خرسان " ؛ فإقليم " خرسان " هو إقليم شاسع به مدن كبيرة من أشهرها مدن " بلخ – مرو – نيسابور – هراه – غزنه " وهو يقع الآن في شرق إيران وشمال أفغانستان ؛ أما إقليم " خوارزم " فهو الإقليم الذي كان نواة الدولة الخوارزمية اشتهر بالقلاع الحصينة والثروة العددية والمواهب القتالية وهو يقع إلى الشمال الغربي من " سمر قند " ويمر به نهر " جيحون "وهو يقع الآن في دولتي " أوزبكستان وتركمانستان " ؛فأراد جنكيز خان القيام بحربمعنوية تؤثر على نفسيات المسلمين قبل اجتياح هذه الأقاليم العملاقة ؛ فقررالبدأ بعمليات إباده وتدمير تبث الرعب في قلوب المسلمين في هاذينالإقليمين الكبيرين فأخرج من جيشه ثلاث فرق:

الفرقة الأولى : لتدمير إقليم " فرغانه " وهو يقع في أوزبكستان حالياً على بعُد حوالي ٥٠٠كم – شرق " سمر قند" .

الفرقة الثانية: لتدمير مدينة " ترمز " وهي مدينة الإمام الترمزى – رحمه الله – وتبعُد حوالي ١٠٠كم – جنوب " سمر قند" .

الفرقة الثالثة :لتدمير قلعة " قلادة " وهي من أحصن قلاع المسلمين على

نهر " جيحون" .

فقامت الفرق الثلاث بدورها التدميري كما أراد جنكيز خان ؛ فاستولت على كلهذه المناطق وقامت فيها بالقتل والأسر والسبي وانهب والتخريب ؛ فوصلت الرسالة التترية إلى كل الشعوب المحيطة فعمت الرهبة في أرجاء المنطقة ؛وعندما عادت الفرق الثلاث من مهمتها بدأ جنكيز خان يعد للمهمة التالية وهي اجتياح إقليمي " خرسان وخوارزم "

....

اجتياح إقليم " خرسان "

سقوط " بلخ "

مدينة " بلخ " تقع في شمال أفغانستان حالياً ؛ وحدث فيها أمر هام فهذه المدينة تقع جنوب مدينة " ترمز " التي دمرتها الفرقة التترية ؛ فوصلت أخبار مدينة " ترمز " إلى أهل مدينة " بلخ" فأصيب الناس بالرعب الشديد من التتار ووصلت الجيوش التترية على أبواب مدينة " بلخ " فطلب أهلها منهم الأمان وعلى غير العادة قبل التتار أن يعطوهم الأمان الحقيقي ولم يتعرضوا لهم بالسب أو النهب أو القتل ؛

ولكن السبب في ذلك هو أن جنكيز خان أمر أهل " بلخ " أن يأتوا معه ليعاونوه في فتح مدينة مسلمة أخرى وهي مدينة " مرو " والغريب هو أن أهل " بلخ "أطاعوه وجاءوا معه لمحاربة أهل " مرو " والجميع من المسلمين ولكن الهزيمة النفسية جعلتهم ينصاعون لأوامر جنكيز خان وبذلك يكون جنكيز خان قد وفرقواته لمعارك أخرى وضرب المسلمين بعضهم ببعض.

سقوط " مرو"

خرج الجيش المسلم من " بلخ "مع الجيش التتري لفتح " مرو " وهي من أكبر المدن في ذلك الوقت وهي تقعحالياً في دولة " تركمانستان " المسلمة على بعد حوالي ٢٥٠كم – شرق مدينة "بلخ " الأفغانية ؛ فسار إليها جيش كبير من التتار على رأسه بعض أبناء جنكيز خان ومعهم الجيش المسلم الذي خرج معهم من " بلخ " وعلى أبواب " مرو" وجد التتار أن المسلمين قد جمعوا لهم خارج المدينة جيشاً يزيد على مائتي ألف مسلم فدارت موقعة لرهيبة بين الطرفين على أبواب " مرو " ودارت الدائرة على المسلمين وأنطلق التتار يذبحون في الجيش المسلم حتى قتلوا معظمهم وأسروا الباقي ولم يسلم إلا القليل ونهبوا الأموال والأسلحة والدواب من الجيش ؛ ويعلق ابن الأثير على هذه الواقعة فيقول " فلما وصلت التتار إليهم التقوا واقتتلوا فصبر المسلمون ولكن التتار لا يعرفون الهزيمة " ؛ فهزم المسلمون وفتح الطريق إلى المدينة ذات الأسوار العظيمة ؛ وكان بها من السكان ما يزيد على سبعمائة ألف مسلم من الرجال والنساء والأطفال ؛ فحاصر التتار المدينة ودب الرعب في قلوب أهلها بعد أن فني جيشهم أمام أعينهم ؛

ولم يفتح أهل " مرو "الأبواب للتتار لمدة أربعة أيام ولكن في اليوم الخامس أرسل قائد التتار رسالة إلى قائد مدينة " مرو" يقول فيها " لا تهلك نفسك وأهل البلد وأخرج إلينا نجعلك أمير هذه البلد ونرحل عنها " ؛ فصدق أمير المدينة ما قالها لقائد التتري وخرج إليه فاستقبله القائد التتري استقبالا حافلاً واحترم هوقربه ؛ ثم قال له أخرج لنا أصحابك والمقربين ورؤساء القوم حتى ننظر من يصلح لخدمتنا فنعطيه العطايا ونقطع له الإقطاعيات ويكون معنا ؛فأرسل الأمير المخدوع إلى معاونيه وكبار وزرائه وجنده لحضور الاجتماع الهام مع ابن جنكيز خان ؛ فلما تمكن منهم التتار قبضوا عليهم جميعاً وقيدوهم بالحبال ثم طلبوا منهم أن يكتبوا قائمتين طويلتين:

القائمة الأولى :تضم أسماء كبار التجار وأصحاب الأموال في المدينة.

القائمة الثانية :أسماء أصحاب الحرف والصناع المهرة.

ثم أمر بن جنكيز خان أن يأتي التتار بأهل المدينة أجمعين ؛ فخرج كل أهل المدينة حتى لم يعد بالمدينة أحد قط ؛ ثم جاءوا بكرسي من ذهب وجلس عليه ابن جنكيز خان وبدأ يصدر الأوامر:

أولاً: إخراج أصحاب الحرف والصناع المهرة وإرسالهم إلى منغوليا للاستفادة من خبراتهم الصناعية هناك.

ثانياً :إخراج أصحاب الأموال وتعذيبهم حتى يخبروا عن كل أموالهم ؛ فعلوا ذلك ومنهم من كان يموت من شدة الضرب ولا يجد ما يكفي لفداء نفسه.

ثالثاً :يأتوا بأمير البلاد وكبار القادة ورؤساء القوم فيقتلون جميعاً أمام عامة أهل المدينة.

رابعاً :دخول المدينة وتـ فتيش البيوت بحثاً عن المتاع والذهب والفضة ؛ حتى إنهم نبشوا قبر السلطان "سنجر " أحد سلاطين خوارزم القدامى وأستمر هذا البحث لمدة ثلاثة أيام.

خامساً:أمر ابن جنكيز خان أن يقتل أهل البلد أجمعين فبدأوا يقتلون طل أهل " مرو" فقالوا أن المدينة عصت علينا وقاومت ومن قاوم فهذا مصيره ؛ ويقول ابنالأثير في ذكر ذلك " وأمر ابن جنكيز خان بعد أن قتلوا جميعاً أن يقوم التتار بإحصاء القتلى فكانوا نحواً من سبعمائة ألف قتيل" ففنيت مدينة "مرو " عن آخرها واختفى ذكرها من التاريخ.

**سقوط " نيسابور "

ثم جاوزوا مدينة " مرو " إلى مدينة " نيسابور " وهي مدينة كبيرة من مدن إقليم خرسان وتقع حالياً في الشمال الغربي لدولة " إيران " ؛ فاتجه

إليها التتار بعد أن تركوا خلفهم مدينة " مرو " وقد خربت تماماً ؛ فحاصروها خمسة أيام ومع أنه كان يوجد بالمدينة جمع كبير من الجنود المسلمين إلا أن أخبار " مرو " وصلت إليهم فدب الرعب والهلع في أوساط المسلمين فما استطاعوا أن يقاوموا التتار ؛فدخل التتار المدينة وأخرجوا كل أهلها إلى الصحراء ؛ وجاء من أخبر ابن جنكيز خان أن بعضاً من سكان " مرو " قد سلم من القتل لأنهم ضربوا بالسيوف ضربات غير قاتلة فظن التتار أنهم قد ماتوا فتركوهم فهربوا ؛ لذلك في "نيسابور " أمر ابن جنكيز خان بقتل كل رجال المدينة بلا استثناء وأن تقطع رؤوسهم لكي يتأكدوا من قتلهم ؛ ثم قاموا بسبي كل نساء المدينة وأقاموا بالمدينة خمسة عشر يوما يبحثون في الديار بحثاً عن الأموال والنفائس ؛ ثم تركوها كما يقول ابن الأثير " أثراً بعد عين" .

سقوط " هراه"

ثم اتجهوا إلى " هراه " في شمال أفغانستان فتوجه إليها ابن جنكيز خان بقواته المهولة ولم تسلم " هراه " من المصير الذي واجهته " مرو " و "نيسابور " فقتل كل من فيها من الرجال وسبى كل النساء وخربت المدينة كلها وأحرقت عن آخرها لكن أمير هذه المدينة وكان يدعى " ملك خان " أستطاع الهروب بفرقه من جيشه في اتجاه " غزنه " في أفغانستان بعيداً عن أرض القتال.

بسقوط " هراه " يكون إقليم خرسان بكاملة قد سقط في أيدي التتار ولم يبقوا فيه على مدينة واحدة ؛ كل هذه الأحداث تمت في عام ٦١٧- وهذا من أعجب الأمور التي مرت في تاريخ الأرض مطلقاً.

ثانياً: إقليم خوارزم

من أشهر مدنه مدينة " خوارزم "مركز الخوارزميين وبها تجمع كبير من المسلمين وحصونها من أشد حصون المسلمين بأساً وقوة وهي تقع حالياً على الحدود بين " أوزبكستان " و"تركمانستان " تقع مباشرة على نهر " جيحون " وكانت تمثل للمسلمين أهمية إستراتيجية واقتصادية كبيرة.

**سقوط " خوارزم "

لأهميتها الكبيرة وجه إليها جنكيز خان أعظم جيوشه وأكبرها ؛ فقام هذا الجيش بحصار المدينة خمسة أشهر كاملة ولم يتم له الفتح فطلبوا المدد من جنكيز خان فأمدهم بجند كثير وزحفوا على المدينة زحفاً متتابعاً وضغطوا عليها من جميع الجهات حتى استطاعوا أن يحدثوا ثغرة في الأسوار ؛ فدخلوا المدينة ودار قتال رهيب بين التتار والمسلمين داخل المدينة وفني من الفرقين خلق كثير إلا أ، السيطرة الميدانية كانت للتتار ثم تدفقت على المدينة جموع كثيرة من التتار فحلت الهزيمة الساحقة بالمسلمين ؛ ودار على أشدة فيهم وبدأ المسلمون في الهروب والاختفاء في السراديب والخنادق والديار ؛ فقام التتار بهد سد ضخم كان مبنياً على نهر " جيحون " ليمنع المياه من دخول المدينة ؛ فأطلق التتار طوفان من المياه الغزيرة على " خوارزم " فأغرقت المدينة بكاملها ودخل الماء في السراديب والخنادق والديار وتهدمت ديار المدينة بفعل الطوفان الهائل ؛ولم يسلم من خوارزم أحد البتة وأصبحت المدينة العظيمة خراباً وتركها التتار وقد اختفت تماماً من على وجه الأرض وأصبح مكانها ماء نهر " جيحون "؛ وهذا كما قال ابن الأثير " مالم يسمع به في قديم الزمان وحديثه اللهم إلا ما حدث مع قوم نوح – عليه السلام" .

وكانت هذه الأحداث الدامية أيضاً في سنة ٦١٧-.
بتدمير إقليمي خراسان وخوارزم يكون التتار قد سيطروا علي المناطق الشمالية والوسطي من دولة خوارزم الكبرى ووصلوا في تقدمهم إلي الغرب علي مقربة كبيرة من نهاية هذه الدولة على حدود العراق.

جلال الدين ابن خوارزم

ولكنهم لم يقتربوا بعد من جنوب دولة خوارزم الكبرى الذى كان تحت سيطرة رجل يدعي " جلال الدين بن خوارزم شاه "ابن الزعيم محمد بن خوارزم شاه زعيم الدولة الخوارزمية، وكان جنوب الدولة الخوارزمية يشمل وسط وجنوب أفغانستان وباكستان وكان يفصل بينه وبين الهند نهر السند وكان جلال الدين يتخذ من مدينة غزنة مقرا له وهي تقع الآن في أفغانستان علي بعد ١٥٠ كم من مدينة كابل وهى مدينة حصينة تقع وسط جبال "باروجا ميزوس " الأفغانية.

**موقعة " غزنة "

عندما انتهى جنكيز خان من أمرالزعيم الرئيسي للبلاد "محمد بن خوارزم شاه " وأسقط دولته بهذا الشكل المريع بدأ يفكر في غزو وسط أفغانستان وجنوبها، فهو يريد أن من أمر الابن" جلال الدين " الذى ورث الحكم بعد أبيه محمد بن خوارزم شاه، فوجه جنكيزخان إلى غزنة وهي عاصمة ملك " جلال الدين " جيشاً كثيفا من التتار، وبدأ جلال الدين بعد أن أصبح الوريث الشرعى للبلاد وبعد أن وصلته أخبار ما حدثفى شمال ووسط مملكة أبيه وما حدث لأبيه وكيف مات في جزيرة نائية ،فجمع جيشاً كبيرا من بلاده وأنضم إليه أحد ملوك الأتراك المسلمين كان يدعى "سيف الدين بغراق " وكان شجاعاً مقداماً صاحب رأى ومكيدة وحرب وكان معه ثلاثون ألف جندي ثم أنضم إليه أيضا ستون ألفا من الجنود الخوارزمية الذين فروا من التتار أثناء غزوهم المدن الخوارزمية ، ثم أنضم إليه أيضا ملك خان وأمير هراة الذى فر منها بفرقة من جيشه، فبلغ جيش جلال الدين

عددا كبيرا ،فخرج بهذا الجيش إلى منطقة بجوار غزنة تدعى " بلق" وهى منطقة ذات طبيعة جبلية وعرة وتقع وسط الجبال العظيمة، وانتظر جيش التتار هناك في ذلك المكان الحصين، وبعد قليل جاء جيش التتار فدار بين الجيشين معركة من أشرس المعارك في هذه المنطقة وقاتل المسلمون قتال المستميت فهذه أطراف المملكة الخوارزمية فلو هزموا في هذه الموقعة فليس بعدها أملاك، فكان لحمية المسلمين ولصعوبة الأرض والطبيعة الجبلية وكثرة أعداد المسلمين وشجاعة الفرقة التركية بقيادة سيف الدين بغراق والقيادة الميدانية لجلال الدينأثراً واضحا في ثبات المسلمين أمام جحافل التتار فاستمرت المعركة ثلاثةأيام، ثم أنزل الله – عز وجل – نصره علي المسلمين وانهزم التتار للمرةالأولى في بلاد المسلمين وكثر فيهم القتل ، وفر الباقون منهم إلى ملكهم جنكيز خان وكان في ذلك الوقت قد ترك سمرقند وتمركز في منطقة الطالقان في شمال شرق أفغانستان، وارتفعت معنويات المسلمين بعد هذه المعركة فقد كان قد وقر في قلوب الكثيرين قبل المعركة أن التتار لا يهزمون، ولكن ها هوإتحاد الجيوش الإسلامية في غزنة يؤتى ثماره فاتحدت في هذه الموقعة جيوش جلال الدين مع بقايا جيوش أبيه مع الفرقة التركية بقيادة " سيف الدين بغراق " مع ملك خان أمير هراة واختاروا مكاناً مناسباً وأخذوا بالأسباب المتاحة فكان النصر.

موقعة " كابل "

وعندما اطمئن جلال الدين إلى جيشه أرسل رسالة إلى جنكيز خان في " الطالقان " يدعوه فيها إلى قتال جديد وهذه هي أول مره يشعر فيها جنكيز خان بالقلق فجهز جيشاً أكبر وأرسله مع أحد أبناءه لقتال جلال الدين وتجهز الجيش المسلم للموقعة الثانية مع التتار ؛ والتقى الجيشان في مدينة " كابُل " الأفغانية وهي مدينة حصينة تحاط من كل جهاتها تقريباً بالجبال ؛ فشمالها جبال " هندوكوش" الشاهقة وغربها جبال " باروبا ميزوس " وجنوبها وشرقها جبال " سليمان " ؛فدارت موقعة كابل الكبيرة

وكان القتال عنيفاً أشد ضراوة من موقعة غزنة وثبت المسلمون وحققوا نصراً غالياً ثانياً على التتار بل وأنقذوا عشرات الآلاف من المسلمين الأسرى من أيدي التتار ؛ وارتفعت معنويات المسلمين أكثر وفرح المسلمون بهذا النصر.

الغنائم

ثم تمكن المسلمون من شيء يعتبرة الكثيرون من الناس نعمة ولكن كثيراً ما يكون نقمة ألا وهو "الغنائم " الدنيا وكم أهلكت الدنيا من المسلمين ؛ روى البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف (رضي الله عنه) قال ؛ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)" فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم " ؛ وكانت قلوب المسلمين في هذه الحقبة من الزمان مريضة بمرض حب الدنيا إلا من رحم الله ؛ وكانت حروبهم حروب مادية ؛ حروب مصالح ؛ حروب أهواء ؛ ولم تكن حروباً في سبيل الله – عز وجل – لذلك كان لهم الانتصار مرة أو مرتين لحب البقاء والرغبة في الملك والخوف من الأسر ومن القتل فكانت لهم جولة أو جولتين ولكن ظهرت خبايا النفوس عند كثرة الأموال والغنائم ووقع المسلم ونفي الفتنة فاختلفوا على تقسيم الغنيمة ؛ فقام " سيف الدين بغراق"

وقام " ملك خان " أمير هراه قام كل منهما نصيبه في الغنيمة وحدث الأختلاف وارتفعت الأصوات ثم ارتفعت السيوف ليقاتل المسلمون على تقسيم الغنيمة ؛ وجيوش التتار مازالت تملأ معظم مدن المسلمين ؛ وكان ممن قُتل أخ لسيف الدين بغراق فغضب غضباً شديداً وقرر الانسحاب من جيش جلال الدين ومعه ثلاثون ألف مقاتل ؛ فحدث ارتباك كبير في جيش المسلمين وحاول جلال الدين أن يُصلح الأمور فأسرع إلى سيف الدين بغراق ليرجوه أن يعود إلى صف المسلمين والمسلمون في حاجة إلى كل

جندي وفي حاجة إلى كل طاقة ؛ وفوق هذا فإن الفرقة التركية التي انسحبت هي أقوى فرقة في جيش جلال الدين ؛ لكن سيف الدين بغراق أصر على الأنسحاب وأنسحب بالفعل وأنكسر جيش المسلمين انكسارا كبيراً فأنكسر انكساراً مادياً ومعنوياً ولم يفلح المسلمين في استثمار النصر الغالي الذي حققوه في " غزنه" و " كابل " ؛ روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال؛ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستحلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء.

فرار " جلال الدين "

وبينما هم كذلك إذ جاء جنكيزخان بنفسه على رأس جيوشه ليرى ذلك المسلم الذي انتصر عليه مرتين في غزنةوكابل فدب الرعب والهلع في جيش المسلمين فقد قلت أعداد المسلمين وتحطمت معنوياتهم ؛ ورأى جلال الدين أن جيشه أصبح ضعيفاً فأخذ جيشه وبدأ يتجه جنوباً للهروب من جيش جنكيز خان أو على الأقل تجنب الحرب لكن جنكيز خان كان مصراً على الحرب ؛ وفعل جلال الدين مثل ما فعل أبوه من قبل فبدأ يتنقل من مدينة إلى مدينة ومن بلد إلى وبلد حتى وصل إلى حدود باكستان فاخترقها حتى وصل إلى نهر " السند " الذي يفصل بين باكستان والهند وهناك قرر العبورفي نهر " السند " والدخول إلى أرض الهند مع أن علاقته بأهل الهند علاقة سيئة لكن كان أرحم عنده من لقاء جنكيز خان ولكن عند نهر السند لم يجد السفينة التي يعبر بها مثلما وجدها أبوه من قبل ؛ فأنتظر وفوجئ بعد قليل بجيش جنكيز خان من خلفه فلم يكن هناك بُد من القتال فنهر السند من خلفهم والسفن على مسافة بعيدة ؛ فدارت موقعة رهيبة بكل معاني الكلمة فكل المشاهدين لهذه الموقعة قال أن كل ماضي من الحروب كان لعباً بالنسبة إلى هذا القتال واستمرت الموقعة الرهيبة ثلاثة أيام متصلة واستحر القتل في الفريقين وكان ممن قتل في صفوف

المسلمين الأمير " ملك خان " أمير هراه ؛وفي اليوم الرابع انفصلت الجيوش لكثرة القتل وبدأ كل طرف يعيد حساباته ؛وبينما هم في هذه الهدنة المؤقتة جاءت السفن إلى نهر السند فلم يضيع جلال الدين أي وقت في التفكير فأخذ القرار السريع في الهروب وقفز الزعيم المسلم إلى السفينة ومعه خاصته ومقربيه وعبروا نهر السند إلى بلاد الهند وتركوا التتار على الناحية الغربية للنهر.

*سقوط " غزنة "

بعد ذلك انقلب جنكيز خان على بلاد المسلمين يصب عليها عظيم غضبة نتيجة الهزيمتين اللتان لحقتا بجيوشه من قبل ويفعل بها ما اعتاد التتار أن يفعلوه وأكثر ؛ وكانت أشد المدن معاناة مدينة " غزنة " عاصمة جلال الدين بن خوارزم وهي المدينة التي هُزم عندها قبل ذلك جيش جنكيز خان ؛ فقتل كل رجالها بلا استثناء وسبى كل الحريم وأحرق كل الديار وتركها كما يقول ابن الأثير " خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس " وكان ممن أمسك به جنكيزخان من أهل المدينة أطفال جلال الدين بن خوارزم فأمر جنكيز خان بذبحهم جميعاً وهكذا ذاق جلال الدين من نفس المرارة التي ذاقها الملايين من شعبه؛ روى البيهقي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " كن كما شئت فكما تدين تدان " ؛ وبذلك حقق جنكيز خان حلماً غالياً ما كان يتوقع أن يكونبهذه السهولة وهو احتلال أفغانستان.

سقوط مراغة

في بداية عام ٦١٨ هـ دخل التتار مدينة مراغة المسلمة وهي تقع في إقليم أذربيجان ومن عجيب الأمور أن امرأة مسلمة كانت تحكم هذه المدينة، حاصر التتار مراغة ونصبوا حولها المنجنيق وبدأ القتال من التتار للمسلمين

بواسطة الأسري المسلمين الذين بدأو بفتح مراغة، وبدأ الأسري المسلمين يقتلون إخوانهم المسلمين في مراغة طمعاً في قليل من الحياة ودخل التتار المدينة المسلمة في ٤ صفر سنة ٦١٨ هـ ووضعوا السيف في أهلها فقتل منهم كما يقول ابن الأثير (ما يخرج عن الحد والإحصاء)ونهبوا كل ما صلح نهبه وكل ما استطاعوا أن يحملوه والذي لم يستطيعوا حمله كانوا يجمعونه ويحرقونه فكانوا يأتون بالحرير الثمين كأمثال التلال فيحرقونه بالنار ،

ويقول ابن الأثير (إن المرأة من التتار كانت تدخل الدار فتقتل جماعة من أهل الدار رجالا ونساء وأطفالا مايتحرك لها أحد) وذكر أيضاً أنه قد سمع بنفسه من بعض أهل مراغة أن رجلا من التتر دخل درباً به مائة رجل مسلم فما زال يقتلهم واحداً تلوا الآخر حتى أفناهم جميعاً ولم يرفع إليه رجل واحد يده بسوء فوضعت الذلة علي الناس لا يدفعون عن أنفسهم قليل ولا كثير.

الخليفة والتتار

ثم بدأ التتار يفكرون جدياً في غزو مدينة " أربيل " التي تقع في شمال العراق فدب الرعب في المدينة وكذلك في مدينة " الموصل " التي تقع غرب أربيل ؛وفكر بعض أهل أربيل والموصل في الهروب من طريق التتار ؛ فخشي الخليفة العباسي " الناصر لدين الله " أن يعدل التتار عن أربيل ويتجهوا إلى بغداد فبدأ يفيق من ثباته العميق فبدأ يستنفر الناس لملاقاة التتار في أربيل إذا وصلوا إليها ؛ فأعلن حالة الأستنفار العام في كل مدن العراق التي تقع تحت سيطرته فبدأ جيش الخلافة العباسية في التجهز وكان كل ما جمعه الخليفة من الإستنفار العام للمعركة ثمانمائة رجل فقط ولم يستطع قائد الجيش العباسي وكان يدعى " مظفر الدين " أن يلتقي بالتتار بهذا العدد

الهزيل ؛ فعندما رأى أمامه جيش التتار وهم مئات الآلافوهو لا يتعدى الثمانمائة رجل فانسحب من أمامهم ؛ ولكن –سبحان الله – فقد حدث أمر غريب وهو أن التتار شعروا أن هذا الأنسحاب خدعة وأن هذه الفرقة ما هي إلا مقدمة للجيش الإسلامي الكبير ؛

فلا يُعقل أن جيش الخلافة العباسية المرهوبة لا يزيد عن ثمانمائة جندي لذلك قرر التتار تجنب المعركة و انسحبوا بجيوشهم وآثروا أن يدخلوا مع الخلافة في صدام مباشر واستبدلوا ذلك بما يعرف بحرف الاستنزاف فسيقومون بضربات خاطفه موجعة للعراق ؛سيحاصرون العراق حصاراً طويلاً مستمراً لإضعاف العراق ثم القيام بأحلاف واتفاقيات مع الدول والأمارات المجاورة للعراق لتسهيل الحرب ضد العراق في الوقت المناسب ؛ لذلك انسحب التتار ليطول عُمر العراق عدة سنوات أُخرى

تبريز

انسحب التتار من أربيل إلى مدينة " تبريز " وهي مدينة إيرانية وكان قائدها كما ذكر سابقاً يدعى " أوزبك بن البهلوان " الذي كان لا يفيق من شرب الخمر؛ فعاد التتار إلى تبريز ليحاولوا مخالفة العهد الذي عقدوه مع أوزبك لكن فوجئ التتار بتغيير الحكم في المدينة وتولى قيادة البلاد رجلاً يدعى " شمس الدين الطغرائي " وكان رجلاً مجاهداً يفقه دينه ودنياه فقام – رحمه الله-يحمس الناس على الجهاد وعلى إعداد القوة ؛ وقوى قلوبهم على الأمتناع حذرهم م ن عاقبة التخاذل والتواني فعلمهم ما عرفوه نظرياً قبل ذلك ولم يطبقوه أبداً بصورة عملية في حياتهم فعلمهم أن الإنسان لا يموت قبل ميعاده أبداً وأن رزقه وأجله قد كتب له قبل أن يولد وأنهم مهما فعلوا للتتار فلن يتركوهم إلا إذا احتمى المسلمون وراء سيوفهم ودروعهم أما بغير قوة فلن يحمى حق على وجه الأرض ؛ فتركت الحمية في قلوب أهل تبريز فقاموا مع قائدهم البار يحصنون بلدهم ويصلحون

الأسوار ويوسعون في الخندق ويجهزون السلاح ويضعون المتاريس ويرتبون الصفوف ؛

فتجهز القوم وللمرة الأولى منذ زمن للجهاد في سبيل الله فسمع التتار بأمر المدينة وسمعوا بحالة العصيان المدني فيها وحالة الأستنفار العام وسمعوا بدعوة التجهز للقتال في سبيل الله فسمعوا بكل ذلك فماذا فعل التتار ؟
فأخذ التتار قراراً عجيباً قرروا عدم دخول " تبريز " وعدم الدخول في قتال مع قوم قد رفعوا راية الجهاد في سبيل الله والقى الله – عز وجل – الرعب في قلوب التتار على كثرتهم من أهل تبريز على قلتهم ؛ الجهاد في سبيل الله فعل فعلته المتوقعة بل إن القوم لم يجاهدوا ولم يصلوا إلى مرحلة الجهاد لكن عقدوا النية الصادقة وأعدوا الإعداد المستطاع فتحقق الوعد الرباني الوعد الذي لا خلف له وهو وقوع الرهبة في قلوب الأعداء عند إعداد المسلمين قال تعالى "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل " ؛

فما حجم تبريز بالنسبة لجيوش التتار وما حجمها بالنسبة للمدن والدول الإسلامية التي سقطت ؛ قال تعالى "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل " فما النتيجة " ترهبون به عدوا الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا منشئ في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون" .

كانت هذه صورة مشرقة في وسط هذا الركام المظلم ورحم الله " شمس الدين الطغرائي " الذي جدد الدين في هذه المدينة المسلمة وسبحان الله – نفس هذا الحدث تكرر مع مدينة " كنجه "فقد أعلنت أيضاً الجهاد في سبيل الله وأعدت العدة فلم يدخل إليها تتري واحد.

سقوط " داغستان والشيشان "

ترك التتار تبريز وكنجه واتجهواإلى داغستان والشيشان وهما تقعان في شمال أذربيجان على ساحل بح قزوين فقام التتار كعادتهم بتدمير كل شيء في هذه البلاد وقتل معظم من وجدوه في طريقهم وكانت أشد المدن معاناة هي مدينة " شماخي " وهي تقع في دولة داغستان حالياً.

الهجوم على " روسيا "

ترك التتار هذه المنطقة وجاوزوها إلى ما بعدها وهي " روسيا " ؛ ودخل التتار أرض روسيا وكانت في ذلك يعيش فيها النصارى واستمر التتار في تقدمهم حتى وصلوا إلى حوض نهر " الفولجه " فيروسيا وقاتلوا أهل هذه البلاد من النصارى وأثخنوا فيهم القتل وارتكبوا معهم من البشائع ما كانوا يرتكبونه مع المسلمين وبقوا تقريباً سنة ٦١٨ –في داخل أرض روسيا وهي أراض واسعة فسيطروا على الجنوب الغربي من أرض روسيا في هذه السنة.

وفي سنة ٦١٩- حافظ التتار على ملكهم في هذه المناطق.

ونراجع سريعاً أسماء الدول التي سقطت في أيدي التتار إلى هذه اللحظة من سنة ٦١٩ – وهي:

كازاخستان – قرغيغستان – طاجكستان –أوزباكستان – تركمانستان – باكستان باستثناء المناطق الجنوبية منها والمعروفة بإقليم " كرمان " لم يصل إليه التتار بعد – أفغانستان – معظم إيران ماعدا الجزء الغربي منها الذي كان تحت سيطرة طائفة الإسماعيلية –أذربيجان – أرمينيا وجورجيا النصرانيتين – الجنوب الغربي من روسيا.

دخول سنة ٦٢٠ -:

بينما كان جنكيز خان يبسط سطوته على الدولة الخوارزمية وما حولها استمرت الحملات التترية على روسياو انشغل التتار بحرب روسيا في سنة ٦٢٠؛ لكن في هذه السنة نعلق فيها على أربعة أحداث فقط:

١- توغل التتار في بلاد روسيا وحققوا انتصارات عديدة لكن في نهاية المطاف توقفوا أمام طائفة تدعى طائفة" البلغار " وحدثت بينهم موقعة عظيمة هُزم فيها التتار هزيمة منكرة وقتل منهم خلقاً كثيراً إلى حد أن التتار فقدوا السيطرة على معظم المناطق الغربية التي كانوا يحتلونها ففقدوا السيطرة على روسيا وجورجيا وأرمينيا والشيشان وداغستان وأذربيجان وشمال إيران هذا كله نتيجة هزيمة واحدة فيروسيا وكانت هذه فرصة من السماء للمسلمين لكي يعيدوا ترتيب الأوراق وترتيبا لصفوف وتجهيز العدة ليقابلوا التتار وهم في حالة إرتباك بعد هذه الهزيمة الكبيرة ؛ كان هذا هو المتوقع لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل وما حدث هو أن أحد أمراء المسلمين في هذه المنطقة جمع عُدته وعتاده وهجم على قبائل الكرج في جورجيا ؛

وهذا الحدث يحتاج إلى وقفة فهذا حدث عجيب في هذا الوقت نعم بين الكرج والمسلمين حروب مستمرة إلا أنهم الآن في شبه هدنة غي رسمية فليس من الحكمة أبداً فتح جبهات جديدة على المسلمين في وجود العدو الأكبر لهم وهو التتار وبالأخص أن الكرج أيضا يعانون مما يعاني منه المسلمون فالكرج يكرهون التتار وأصيبوا كما أصيب المسلمون من التتار ؛ فكان المتوقع في ذلك الوقت من المسلمين إن كانوا يتحلون بالحكمة السياسية أن يتحالفوا بحذر مع الكرج ضد التتار أو على الأقل يحيدوا صفهم لكن يدخلوا في حرب مع الكرج يستنزفوا فيها قوة المسلمين وقوة الكرج في وجود القوة التترية الضخمة إلى جوارهم فهذا يعتبر من سوء

الحكمة في تقدير الأمور ؛

ودارت الحرب بين الطرفين وفقد كل منهما عدداً كبيراً من القتلى والأهم من ذلك أنهم فقدوا الثقة وإمكانية التحالف ضد التتار ولم يستغل المسلمون موازين القوى في ذلك الوقت لصالحهم فكان هذا من أهم أسباب ضعفهم ؛ ثم سكنت الحرب وأقيم الصلح من جديد بين الكرج والمسلمين لكن بعد فقد طاقة مهولة من الطرفين.

٣- نتيجة هزيمة التتار في هذه المنطقة ظهر أحد أبناء " محمد بن خوارزم " غير جلال الدين يُدعى "غياث الدين بن محمد بن خوارزم " ؛ فقام غياث الدين هذا بجمع الرجال وأشغل الفراغ النسبي الذي خلفه التتار وتملك المنطقة وسيطر على معظم إيران منمدن الري واصبهان وغيرها ووصل في سيطرته إلى إقليم كرمان في باكستان وهذه المنطقة كما ذكرنا لم يصل إليها التتار وأصبحت سيطرة غياث الدين بن خوارزم على مناطق شمال وغرب وجنوب غيران أما المنطقة الشرقية فما زالت تحت الأحتلال التتري وهي إقليم خُرسان فالتتار ملاصقون تماماً لغياث الدين ؛فكان المتوقع من الخليفة العباسي " الناصر لدين الله " في ذلك الوقت أن يساعد غياث الدين بن خوارزم لأنه يقف بينه وبين التتار فكان المتوقع أن يساعده إن لم يكن بدوافع الدين والأخوة والنصرة للمسلمين فليكن بسبب الأبعاد الإستراتيجية الهامة فهو يقف كحائط صد أمام الخلافة العباسية لكن الخليفة العباسي لم يدرك هذه الأبعاد وكان الناصر لدين الله كما يقول المؤرخون " رجلاً ظالماً مستبداً فرض المكوس والضرائب على كل شعبه فكل أزمة إقتصادية تحدث يفرض ضريبة جديدة فيحل الأزمة من قوت الشعب وكان مهتماً بالحفلات والملذات والصيد واللعب وعم الفساد في زمانه فارتفعت الأسعار وقلت المؤن والموارد ؛

فلم ينس الناصر لدين الله الخلافات القديمة مع الدولة الخوارزمية فهو يريد أن يفكك الدولة التي بدأت تنموا بجواره بقيادة غياث الدين فراسل خال غياث الدين وكلن يُدعى " إغان طائسي " وكان رجلاً كبير صاحب رأي في الحرب وكان أميراً في جيش غياث الدين فراسله الخليفة العباسي ووعده أن يساعده في حالة ما إذا انقلب على غياث الدين وأمده بالجند والسلاح والأفكار ولم يهمه مطلقاً الفتنة التي ستحدث في إيران إلى جواره تماماً وأعجبت الفكرة " إغان طائسي " وجمع الجند وبدا ينادي بالعصيان ضد غياث الدين وهو ابن أخته فحدث ما لم يُتوقع ؛ التقى إغان طائسي مع ابن أخته غياث الدين في موقعة فاصلة للسيطرة على إيران ودارت موقعة كبيرة وسقطت الأعداد الكثيرة من المسلمين قتلى بسيوف المسلمين وفي النهاية إنهزم إغان طائسي وهرب هو ومن معه بعد أن قُتل عدد كبير من جنده.

٣- هذه الحادثة التي سنتحدث عنها ذكرها بن الأثير في كتابه وقدم لها عبارة فقال " حادثة غريبة لم يوجد مثلها "وهي أن مملكة الكرج النصرانية بعد أن أتمت صلحها مع المسلمين وصل إلي قمة الحكم فيها امرأة وكانت غير متزوجة فطلب منها الأمراء أن تتزوج رجلاً يديرعنها البلاد فوافقت وأرادت أن تتزوج من بيت يكون بيت ملك وشرف فلم تجد أيبيت في مملكتها فسمع بذلك أحد ملوك المسلمين يدعى " مغيث الدين بن طغررشاه بن قلج أرسلان " من ملوك السلاجقة وكان يحكم منطقة الأناضول وكان له ابن كبير فأرسل إلى ملكة الكرج وطلب منها أن يزوجها لابنه فرفضت الملكةوقالت أنها لا تتزوج من رجل مسلم فلا يمكن أن يملك مملكة الكرج رجل مسلم فقال لهم :" إن ابني يتنصر ويتزوجها " ؛ فوافقوا على ذلك وتنصر الولد المسلم وتزوج ملكة الكرج وانتقل إلى مملكتهم ليكون حاكماً عليهم وبقي على نصرانيته ؛ وللعبرة أن هذا الولد مات على نصرانيته محبوساً في مملكة الكرج بعد أن عزلوه عن الحكم – فإنا لله وإنا إليه راجعون-.

٤- هجم الجراد بكميات هائلة على أكثر أقاليم المسلمين فأهلك الكثير من الغلات والخُضر بالعراق والجزيرة والشام وفارس وغيرها.

دخول سنة ٦٢١

نعلق فيها على ثلاثة أحداث فقط:

١- حدث بين " غياث الدين " الذي كان يحكم إيران في ذلك الوقت حدثت حدث بينه وبين أحد الأمراء في هذه المنطقة فتنة وهذا الأمير هو " سعد الدين دكنه " ودار بينهما قتال طويل حتى رضي الطرفان بتقسيم البلاد إلى نصفين شمالي وجنوبي فالجنوب به " سعد الدين دكنه " والشمال به " غياث الدين" .

٢- دخل ثلاثة آلاف جندي تتري إلى إيران فوضعوا السيف في مدن (الري – ساوا – قُم – قاشان – همدان) ولم يرفع في وجههم سيف.

٣- قلت الأمطار في البلاد في هذه السنة فكانت الأمطار تجئ قليلة جداً وفي أوقات متفرقة وخرج عليهم الجراد للمرة الثانية ليأكل الزرع القليل الذي خرج في وجود المطر القليل وغلت الأسعار في العراق – الموصل – وسائر ديار الجزيرة وهي المنطقة الشمالية منالعراق وسوريا.

دخول سنة ٦٢٢ و ٦٢٣

١- خفت في هاتين السنتين القبضة التترية على غرب الدولة الخوارزمية وغرب وشمال إيران ؛ واكتفوا ببعض الحملات المتباعدة واهتموا بتوطيد الملك في أركان الدولة الخوارزمية الشاسعة التي وقعت في أيديهم ؛ لكن حدث أمر جديد في هاتين السنتين فقد ظهرعلى مسرح الأحداث فجأة

"جلال الدين بن محمد بن خوارزم شاه " الذي لم يستطع العيش في بلاد الهند بسبب علاقته السيئة مع الغوريين حكام الهند في هذه الفترة فعندما رأى أن الأوضاع قد استقرت نسبياً في إيران والتتار قد اكتفوا بتوطيد الملك في أركان الدولة الخوارزمية الشرقية رأى أن الوقت قدأصبح مناسباً فدخل أرض إيران يبحث عن ملكه الضائع وكان الذي يحكم إيران فيذلك الوقت هو أخوه "غياث الدين " في الشمال وسعد الدين دكنه في الجنوب ؛

فتحالف " جلال الدين بن محمد بن خوارزم " مع " سعد الدين دكنه " ضد أخيه " غياث الدين بن محمد بن خوارزم "وبدأ جلال الدين في غزو إقليم فارس (إيران حالياً) من الجنوب إلى الشمال ووصل إلى غرب إيران وسيطر على كل المنطقة الغربية من إيران ووجد جلال الدين نفسه قريباً من الخلافة العباسية في العراق فتذكر الخلافات القديمة بينه وبين الخلافة العباسية فقرر غزو الخلافة العباسية فدخل بجيشه البصره وحاصرها وأهلها من المسلمين فحاصرها شهرين فلم يستطع دخولها فتركها وأتجه إلى الشمال واقترب من بغداد فحاصرها فخشي الناصر لدين الله الخليفة العباسي على نفسه وعلى مدينة فحصن المدينة وجيش الجيوش لكن فعل فعلاً شنيعاً بشعاً لا يتخيل يقول ابن الأثير تعليقاً على هذا الفعل " فعل الذنب الذي يتصاغر إلى جواره كل الذنوب " أرسل إلى التتار يستعين بهم على حرب جلال الدين لكن التتار في ذلك الوقت كانوا منشغلين عن حرب جلال الدين ولم يأتوا لمساعدة الخليفة ولم يستطع جلال الدين دخول بغداد فتركها وانتقل إلى غيرها من البلاد ؛ وكانت حروبه هو ومن معه من الجنود الخوارزمية حروب شرسة مفسدة مع أن كل البلاد المغنومه بلاد إسلامية كان يفعل بهم الأفاعيل من قتل وسبي ونهب وتخريب ؛

فبلغ السلطان جلال الدين من جنوب فارسإلى الشمال الغربي لبحر قزوين وهي وإن كانت منطقة كبيرة إلا أن كلها قلاقلوأضطرابات بالإضافة إلى العداءات الكثيرة التي أورثها جلال الدين في قلوبكل سكان المنطقة.

٢- في أو آخر عام ٦٢٢- توفي الخليفة العباسي " الناصر لدين الله " الذي حكم البلاد لمدة ٤٧سنة وتولى ابنه الحكم وهو " الظاهر بأمر الله " لكن كان الولد على النقيض تماماً من أبيه فكان رجلاً صالحاً تقياً أظهر من العدل والإحسان ما لم يسبق إلا عند القليل إلى حد أن ابن الأثير يقول " أنه لو قيل أنه لم يلي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً " فرفع الضرائب الباهظة عن الناس وأعاد إليهم حقوقهم وأخرج المظلومين من السجون وتصدق على الفقراء حتى قيل في حقه"

أنه كان غريباً تماماً على هذا الزمان الفاسد " ولقد قال ابن الأثير عنه " إني أخاف أن تقصر مدة خلافته لأن زماننا وأهله لا يستحقون خلافته " وصدق ظن ابن الأثير فلم يمر إلا تسعة أشهر فقط وتوفي الظاهر بأمر الله وقد ذكر الرواة أن الأسعار في أيامه رخصت جداً وتحسن الاقتصاد في العراق في تسعة أشهر فقط ؛ وتولى الحكم من بعده "المستنصر بالله " وفي هذه الأثناء كان جلال الدين مستمراً في حروبه في هذه المنطقة ضد المسلمين.

دخول سنة ٦٢٤

أستمر جلال الدين في هذه السنة في حروبه ضد المسلمين ومما يذكر عنه أنه حاصر مدينة " أخلاط " في تركيا وهي مدينة مسلمة فقتل منها خلقاً كثيراً وامتدت أيدي الجنود الخوارزميين إلى كل شيء في المدينة بالسلب والنهب حتى سبوا الحريم المسلمين.

وفي هذا العام حدث أمر هام هو وفاة القائد التتري المجرم السفاح " جنكيز خان " لعنه الله- وعمره ٧٢ عاماً ملأ هذه الأعوام بالدماء والسلب والنهب والقتل فأقام مملكة واسعة من كوريا في الشرق إلى فارس في الغرب بنيت هذه المملكة على جماجم البشر ومعظمهم من المسلمين ؛ وبموته هدأت الأمور نسبياً في المنطقة واحتفظ التتار بما ملكوه من بلاد المسلمين

إلى وسط إيران تقريباً وجلال الدين يبسط سيطرته على المناطق الغربية من إيران والمناطق الغربية من بحر قزوين؛ وتوقف القتال وكأن كل فريق رضي بما يملك واستقرت الأمور من سنة ٦٢٤- عندوفاة جنكيز خان إلي سنة ٦٢٧-.

دخول سنة ٦٢٦

في هذا العام وأثناء فترة الهدوء النسبي حدث أمر هلم وهو تسليم بيت المقدس الذي حرره " صلاح الدين "رحمه الله- قبل ذلك بأربعين سنة إلى الصليبيين صلحاً لأن أمراء الشام اتفقوا علي إعطاء بيت المقدس للصليبيين ليساعدوهم في غزو مصر.

دخول سنة ٦٢٨

انتهت فيها فترة الهدوء النسبي فهذه السنة تحمل هجمة تترية جديدة على العالم الإسلامي ؛ استقر مُلك التتار في منغوليا ومات جنكيز خان منذ أربعة سنوات وتولى القيادة من بعده زعيم تتري جديد يُدعى " أوكي تاي " خاقان جديد للدولة التترية ؛ نظم هذا الخاقان أمور الدولة التترية في الأربع سنوات الماضية في منطقة الصين ومنغوليا وبدأ يفكر من جديد في اجتياح العالم الإسلامي بل وفكر في استكمال الحروب داخل روسيا ويدخل أوروبا وقرر عدم الهجوم على الخلافة العباسية فيذلك الوقت

.. ..

تقييم أوضاع العالم ككل حتى سنة ٦٣٩

١- وصلت حدود دولة التتار فيهذه السنة من كوريا شرقا إلى بولندا غرباً ومن سيبريا شمالاً إلى بحر الصين جنوباً فأصبحت قوة التتار في ذلك الوقت هي القوة الأولى في العالم بلا منازع.

٢- تولى قيادة التتار بعد " أوكي تاي " إبنه " كيوك بن أوكي تاي " وكان له الرأي في تثبيت الأقدام في البلاد المفتوحة ؛ ولم يكن لديه سياسة توسعية كأبيه فأوقف الفتوحات في أوروبا والعالم الإسلامي.

٣- ابتلع التتار في فتوحاتهم السابقة النصف الشرقي للأمة الإسلامية وضموا معظم الأقاليم الإسلامية في آسيا إلى دولتهم فقضوا على معظم مظاهر الحضارة في هذه المناطق كما قضوا على أي نوع من المقاومة في هذه المناطق الواسعة.

٤- ظل القسم الأوسط من العالم الإسلامي وهو يبدأ من العراق إلى مصر مفرقاً ومشتتاً وانشغل حُكام هذه المناطق بالصراعات الداخلية بينهم وأزداد تفككهم بصورة كبيرة كذلك كان القسم الغربي من العالم الإسلامي الذي يضم كلاً من ليبياً وتونس والجزائر والمغرب وغرب أفريقيا وكان أيضاً هذا القسم مفككاً تماماً بعد سقوط دولة الموحدين.

٥- ذاق الأوروبيين النصارى من ويلات التتار كما ذاق المسلمون وذبح منهم مئات الآلاف أو الملايين ودُمرت كنائسهم وأحرقت مدنهم وهددوا تهديداً كبيراً خوفا من أن يصل التتار إلى روما عُقر دار الكاثوليكية في أوروبا.

٦- مع أن النصارى رأوا أفعال التتار إلا أن الملوك النصارى في أوروبا الغربية في (فرنسا- إنجلترا -إيطاليا - ألمانيا) فكانوا يرون أن هذه مرحلة مؤقتة سوف تقف أما حروب النصارى الصليبيين ضد المسلمين فكانت في رأيهم حروب دائمة لا تنتهي ومن ثم اعتقد ملوك الصليبيين أنهم لابد أن يتعاونوا

تعاوناً تعاوناً كاملاً مع التتار ضد المسلمين بالرغم من كل الأعداد الهائلة من النصارى التي ذبحت على أيدي التتار.

***فلماذا يعتقد الصليبيين أن حرب المسلمين دائمة وحرب التتار مؤقتة ؟**

-لأن حرب الصليبيين مع المسلمين حرب عقائدية فالعداء بين المسلمين والصليبيين على أساس ديني فالصراع بينهما أبدي ؛ فالنصارى لن ينهوا القتال إلا بدخول إحدى الطائفتين في الأخرى كما يقول الله -غز وجل – في كتابه الكريم " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم "
- أما حروب التتار فهي لم تكن حروب عقائدية أبداً فعقيدة التتار كانت عقيد ة مشوهة باهتة مجموعة من أديان شتى فلم يُسمع عن قائد تتري واحد حاول أن ينشر هذه العقيدة في البلاد المفتوحة إنما كان كل هدف التتار هو الإباده والتشريد وجمع المال وسبي النساء والأطفال وإلى ذلك من أمور التخريب ومن كانت هذه صفته فلم يُكتب له الإستمرار أبداً لذلك على الغم من الصدمات التي تلقتها أوروبا على يد التتار إلا أن أوروبا استمرت في تكثيف الجهود لإعادة العلاقات الدبلوماسية مع التتار.

٧-بدأ يحدث تغير عقائدي في الجيش التتري بعد حملات التتار في أوروبا وذلك بزواج عدد كبير من قادة التتار من فتيات نصرانيات أوروبيات وبذلك بدأت الديانة النصرانية تتغلغل نسبياً في الجيش المغولي وهذا ساعد على إمكانية التعاون التتري الصليبي فيما بعد وأن يجتمع الحقد التتري مع الحقد الصليبي على إسقاط الخلافة العباسية واجتياح الشام.

٨- استمرت الحروب الصليبية الأوروبية على المسلمين في مصر والشام فلم تنقطع مع كل هذه المجازر التترية في أوروبا ؛ فلم تنقطع المجازر الصليبية في بلاد الشام ومصر وكانت مصر وبلاد الشام في ذلك الوقت تحت حكم الأيوبيين ودار الصراع بينهم على حكم هذه المقاطعات وأصبح المسلمون

يقعون في مثلث خطير فالصليبيين من ناحية والتتارمن ناحية أخرى وزعماء المسلمين من ناحية ثالثة.

٩- في عام ٦٤٠- توفي المستنصر بالله الخليفة العباسي وتولى الخلافة " المستعصم بالله " ابن المستنصر بالله وكان عمره آن ذاك ٣٠ عاماً وستسقط الخلافة العباسية في زمانه.

١٠- لم يبق فاصل بين التتار والخلافة العباسية في العراق إلا شريط ضيق في غرب إقليم فارس وكانت تعيش في طائفة الإسماعيلية الشيعية.

.. ..

ما حدث من سنة ٦٣٩- إلى سنة ٦٤٩

بعد تولية " كيوك بن أوكيتاي " خاقاناً جديداً للتتار فقرر أن يوقف الحملات التترية التوسعية وقررأن يتفرغ لتثبيت الأقدام في أجزاء المملكة الواسعة وحكم التتار من سنة٦٣٩- إلى سنة ٦٤٦- فلمدة سبع سنوات لم يدخل التتار في هذه السنوات أي بلد جديد ؛ فرأى الصليبيون في غرب أوروبا هذا النهج غير التوسعي لدى " كيوك "فتجددت الآمال في التعاون معهم ضد المسلمين فأرسل البابا " إنوسنت الرابع" سفارة صليبية إلى منغوليا في سنة ٦٤٣- والمسافة بين روما وقرقورم ١٢ألف كم مربع ذهاباً فقط ؛

فأرسل إليه رسالة يعرض عليه فيها التوحد لحرب المسلمين في مصر والشام ولم يكن من أهداف هذه السفارة أن ترفع الظلم عن نصارى أوروبا وروسيا لأن معظم البلاد التي وقعت في أيدي التتار في أوروبا وروسيا كانوا من النصارى الأرثوذكس ؛ فوصل الوفد الصليبي إلى قرقورم وسلم رسالة البابا إلى خاقان التتار ؛ فوجد أن البابا بالإضافة إلى طلبة توحيد العمل العسكري

ضد المسلمين فهو يدعوه إلى اعتناق النصرانية فاعتبر خاقان التتار ذلك تعدياً خطيراً من البابا فكيف يطلب من خاقان التتار أعظم دولة على وجه الأرض في ذلك الزمن أن يغير من ديانته مع أن الديانة النصرانية بدأت تتغلغل في البلاط المغولي لكن هذا تعدياً كبيرا على خاقان التتار فرفض السفارة الصليبية إلا بشرط واحد فقط وهو أن يجتمع أمراء الغرب الأوروبي جميعاً ليأتوا إلى منغوليا لتقديم قروب الولاء و الطاعة للخاقان التتري بالطبع رفض ملوك أوروبا هذا الشرط وبذلك فشلت السفارة الأوروبية الأولى ؛ فلم ييأس البابا " أنوسنت الرابع " وأخذ يبحث في قواد الجيش التتري في مناطق العالم المختلفة على من عنده الرغبة والحمية في غزو العالم الإسلامي فوجد ضالته في قائد المنطقة الغربية لدولة التتار الذي كان يتمركز في منطقة "أذربيجان وفارس " وهو القائد التتري الكبير " بيجو " وهو من أشهر قواد التتار وفي سنة ٦٤٥- وبعد السفارة الأولى بعامين أرسل البابا رسالة جديدة إلى " بيجو " في فارس وكان هذا القائد لديه حب ورغبه شديدة في العدوان والهجوم وكانت رغبته الشديدة في التوسع في أراضي المسلمين فوجدت السفارة ترحيباً كبيراً من بيجو وتوقع أن هجوم الصليبيين على مصر والشام سوف يشغل المسلمين في هذه المناطق عن الدفاع عن الخلافة العباسية وبذلك يستطيع أن يتقدم في داخل أراضي العراق ؛لكن بيجو لم يكن لدية الصلاحيات الكافية لإجراء المعاهدات والمفاوضات مع البابا وغيره فأرسل إلى كيوك وكان مصمماً على عدم التوسع ومصر على قدوم ملوك أوروبا إلى قورقورم لتقديم قروب الولاء والطاعة ففشلت هذه السفارة الثانية.

وفي ذلك الوقت كان " لويس التاسع " ملك فرنسا كان يجهز الحملة الصليبية المشهورة على مصر والمعروفة بالحملة الصليبية السابعة وكان يتمركز في جزيرة قبرص لتجميع الجيوش الفرنسية وغيرها لغزو مصر ؛ وفي سنة ٦٤٦- وبعد سنة من السفارة الصليبية إلى بيجو فكر لويس التاسع في أن الأمل لم ينقطع بعد في التعاون مع التتار فأرسل سفارة صليبية ثالثة من

قبرص إلى منغوليا لمحاولة إقناع التتار بالتعاون من جديد وزود هذه السفارة بالهدايا الثمينة وغيرها لكن وصلت هذه السفارة إلى " قورقورم " العاصمة التترية فوجدت أن الخاقان التتري " كيوك" قد مات وأولاده صغار لا يستطيعون تولي مقاليد الحكم فتولت الحكم أرملتهأم أولاده الثلاثة الصغار وكانت تُدعى " إغول قينيش " فتولت الوصاية على أولادها وبالتالي تولت حكم التتار من سنة ٦٤٦- إلى سنة ٦٤٩- ؛

فتوجهت سفارة لويس التاسعإلى ملكة التتار فاستقبلتهم الملكة بحفاوة لكن إعتذرت عن إمكانية التعاون معاً لأنها مشغولة بالمشاكل الضخمة التي طرأت في المملكة الترية الضخمة نتيجة موت " كيوك " بالإضافة إلى أن عامة قواد الجيوش الترية لم يكونوا يقبلوا ببساطة على حكم امرأة لدولة التتار فهي دولة تعتمد في أساسهاً على البطش والإجرام والقوة والأوضاع كانت غير مستقرة في منغوليا وغيرها من البلاد فالمطلوب أن يتولى القيادة رجل حازم ؛ فردت السفارة وعادت السفارة الصليبية الثالثة دون نتيجة لكن مع ذلك لويس التاسع أصر على الحرب وغزا بالفعل مصر ونزل إلى دمياط سنة ٦٤٧- واحتلها وبدأت الحملة الصليبية السابعة على مصر وكان لها آثار كبيرة ؛ الأوضاع في منغوليا لم تكن مستقرة ولم يقبل التتار تولية امرأة عليهم ومن ثم اجتمع المجلس الوطني للتتار واختار في سنة ٦٤٩- خاقاناً جديداً للتتار وهو " منكو خان " وهذا الإختيار أدى إلى تحول كبير في سياسة التتار وبداية تغيير جذري في المناطق المحيطة بهم وكانت لهذا الخاقان الجديد سياسة توسعية كبيرة شبيه بسياسة جنكيز خان المؤسس الأول لدولة التتار وشبيه أيضاً بسياسة أوكي تاي الذي فتحت أوروبا في عهده لذلك عندما تسلم مقاليد الحكم فكر في إسقاط الخلافة العباسية واجتياح الشام ومصر وإفريقيا فكان لدية أحلام توسعية في كل مكان على وجهالأرض وللأسف فإن حكام المسلمين في هذه الأثناء لم يكونوا على مستوىالأحداث ونسوا تماماً أمر التتار بسبب توقف التوسعات الترية لمدة عشرة سنوات فنسي الناس هذا الأمر بل ونسي الحكام والعلماء

المسلمين أن الجزء الشرقي من العالم الإسلامي في أيدي التتار ونسوا أن التتار قد أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الخلافة العباسية والشام ومصر والحجاز إلى حد أن المؤرخين الذين يؤرخون لهذه الفترة لا يذكرون مطلقاً إي شيء عن التتار ؛

وعلى سبيل المثال ففي البداية والنهاية لابن كثير وهو كما نعرف لم يعاصرهذه الحقبة من الزمان بل نقل عن المؤرخين الذين كانوا معاصرين لهذه الأحداث فلم يذكروا في هذه الفترة شيئاً عن التتار مطلقاً ففي البدايةوالنهاية من سنة ٦٣٦- إلى سنة ٦٤٩- لم يذكر شيء البتة عن التتار وكأن القضية التترية قد حلت تماماً ؛ ولكن تجد أنه ذكر في هذه الفترة فيالبداية والنهاية أن ابن كثير يصف حياة طبيعية في العراق والشام ومصر أمورفي غاية البساطة فمثلاً يذكر ابن كثير أن " الخليفة يعالج بعض المشاكل الإقتصادية " ؛ " قد يحدث وباء فيعالج " ؛ " يحدث الغلاء فيشق ذلك على الناس فيمنح الخليفة بعض الأموال لمقاومة الغلاء " ؛ " يفتح مدرسة " ؛ "أحد الناس يفتح دار ضيافة " ؛ " أحد الناس يفتح داراً للطب ".

وهكذا. !

سياسة منكو خان في عقد التحالفات

١- كان من رغبات منكو خان أن يعقد تحالفات مع أمراء الممالك الصليبية الموجودة بالشام وذلك لشغل المسلمين في منطقةالشام وتركيا عن الخلافة العباسية ؛ ولتشجيع أمراء هذه الممالك أرسل إليهمملك التتار يطلب التحالف في رسالة مع هيثوم ملك أرمينيا ووعدهم ملك التتار بأن يعطي لهم المقدس هدية إذا ساعدوه في إسقاط الخلافة العباسية ومع كل هذا التشجيع إلا أن أمراء الإمارات الصليبية بالشام ترددوا في ذلك بإستثناء واحد فقط وهو أمير أنطاكيا وكان يدعى "بوهمند" إستحسن الأمر وانضم

مباشرة إلى ملك التتار أما بقية الأمراء الصليبيين في الشام رفضوا هذه المعاهدة لأسباب منها:

أ- هم يعلمون أن التتار لا عهد لهم فقد يبيعونهم دون ثمن.

ب- وهم يعيشون في قلب العالم الإسلامي فخطورة المسلمين عليهم كخطورة التتار.

٢- سعى منكو خان إلى عقد بعض الإتفاقيات مع نصارى الشام والعراق ولكن هذه المرة مع الأمراء بل مع عامة النصارى الذين يعيشون في كنف العالم الإسلامي في الشام والعراق ولم تكونهذه الصفقات طبعاً معلنة بل كانت إتفاقيات سرية مع بعض رءوس النصارى ومع بعض القساوسة لكي يسهلوا مهمة دخول التتار إلى البلاد وينقلوا الأخبار منوإلى التتار ؛ ونجح منكو خان في الوصول إلى بعض رءوس النصارى الكبيرة في الشام والعراق وعلى رأسهم بطريرك بغداد وكان يدعى " ماتيكا " وكان عاملاً مساعداً هاماً في دخول بغداد.

٣- عقد منكو خان معاهدات مع مملكة الكرج النصرانية ؛ فلكم ذاقوا على يد التتار الويلات لعدة مرات والآن يتعاهدون ويتعاقدون على حرب المسلمين.

٤-عقد التتار بعض المعاهدات المقززة الشنيعة فكل المعاهدات السابقة شيء والمعاهدات التي ستذكر شيء آخر ؛فهذه المعاهدات عقدت مع بعض أمراء المسلمين لضرب بلاد المسلمين ؛ وهذه المعاهدات لم يعقدها منكو خان بنفسه لكن إستهان بهؤلاء الأمراء الخونة ووكل هولاكو في أن يعقد هذه المعاهدات معهم وجاء أمراء المسلمين الضعفاء يسارعون إلى التتار الأقوياء ؛ قال تعالى " فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون

نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو بأمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين " ؛ فجاء إلى هولاكو ليتحالف معه على حرب المسلمين كلاً من:

١- "بدر الدين لؤلؤ " ليتحالف معه وبذلك تكون منطقة شمال العراق وهم الأكراد قد تحالفوا مع التتار لدخول بغداد من الشمال.

٢- وجاء كلاً من " كيكاوس الثاني" و " قلج أرسلان الرابع " سلطانا السلاجقه ليتحالفا مع هولاكو وهم أمراء تركيا التي تقع إلى الشمال من العراق وهو مكان في منتهى الحساسية؛ ففيما بعد ذلك سيفتح هؤلاء الأمراء المجال الأرضي التركي لدخول الجيوش التترية من شمال العراق إلى بغداد.

٣- وجاء " الناصر يوسف " أمير حلب ودمشق حفيد صلاح الدين الأيوبي فهو أبن أبنه لكن لم يكن يشبهه تماماً فكان على النقيض من جده ؛ فأرسل ابنه العزيز لا ليقدم فروض الولاء والطاعة إلى هولاكو بل ليقود فرقة إسلامية تنضم إلى جيش التتار لغزو بغداد.

٤- وجاء " الأشرف الأيوبي " أمير حمص ليقدم ولاءه لهولاكو.

فكانت هذه التحالفات الإسلامية معهولاكو في منتهى الخطورة فقد زادت من قوة التتار وأصبح التتار يحاصرون العراق من كل الإتجاهات بالإضافة إلى أن هذه التحالفات أدت إلى هبوط شديد في معنويات الأمة فلما شاهد المسلمون أمرائهم على هذه الصورة المخذية ضعفتا لهمم وفترت العزائم وانعدمت الثقة تماماً بين الشعوب وبين حكامهم وأيقنوا أنه لم يعد لديهم طاقة في الوقوف في وجه التتار.

٥- وصل التتار إلى شخصية مهمة إلى حد كبير داخل البلاط العباسي فوصلوا إلى كبير الوزراء في الخلافة العباسية فهو الشخصية الثانية في الدولة بعد "المستعصم بالله " هو الوزير " مؤيد الدين بن العلقمي " الشيعي الرافضي

وكان رجلاً فاسداً خبيثاً وكان رافضياً يرفض خلافة أبو بكر وعمر بن الخطابوكان شديد التشيع كارهاً لأهل السنة ومن العجيب أن يصل إلى هذا المنصب المرموق وهو على هذه الصورة في دولة سنية والأسوء من ذلك أن هذا الوزير المفسد لم يكون وزيراً منذ شهر أو شهرين أو سنة أو سنتين بل بقي على كرسي الوزارة أربعة عشر سنة كاملة منذ سنة ٦٤٢- إلى سنة ٦٥٦- عندما أسقطت بغداد ؛

إتصل هولاكو بمؤيد الدين ابن العلقمي الشيعي وأتفق معه على تسهيل دخول الجيوش التترية إلى بغداد بالمساعده بالآراء الفاسدة والإقتراحات المضللة للخليفة وهذا سيكون في مقابل أن يكون له شأن في مجلس الحكم الذي سيدير بغداد بعد سقوط الخلافة فقام الوزير الفاسد بدورة على أكمل ما يكون كما سنرى فيما بعد.

هذه الجهود الدبلوماسية التي ذكرناها أخذت فترة خمس سنوات كاملة فتعاون التتار تعاوناً قوياً ومهماً مع ملوك أرمينيا والكرج وانطاكيا النصارى وحيدوا إلى حد كبير جانب أمراء الإمارات الصليبية في الشام وأقاموا تحالفات سرية مع نصارى الشام والعراق وتحالفوا مع بعض أمراء المسلمين ومع الوزير الفاسد مؤيد الدين بن العلقمي.

المحور الثالث: الحرب النفسية على الشعوب الإسلامية

كانت لهولاكو أكثر من طريقة لشن حرب نفسية مهولة على المسلمين قبل اللقاء في الحرب وقبل إسقاط بغداد من هذه الطرق:

١- القيام بحملات إرهابية فيالمناطق المحيطة بالعراق لتذكير المسلمين بالذكريات الأليمة التي حدثت فيعهد جنكيز خان و أوكي تاي وكانوا يسيطرون على القوافل التجارية القادمة من وإلى العراق وبذلك يقومون

بعمل ضربات إقتصادية كبيرة للعراق قبل أن يغزوها؛ فعلى سبيل المثال إستولى التتار على قافلة تجارية بلغت الأموال فيها ستمائة ألف دينار وعلى هذه الشاكلة كان هناك حروب كثيرة لإضعاف الروح المعنوية للمسلمين.

٢- ومن وسائل هولاكو الخطيرة لإضعاف الروح المعنوية الوصول إلى بعض الأدباء والشعراء المسلمين ليقوموا بحرب إعلامية قذرة في داخل البلاد الإسلامية فيعظمون من إمكانيات التتار ويقللون من إمكانيات المسلمين حتى لا يتخيل مسلم أنه يحارب تترياً ؛ فنجد أن الكتب في ذلك الوقت ملئ بكلمات غريبة فعلى سبيل المثال " التتار تصل إليهم أخبار الأمم ولا تصل أخبارهم إلى الأمم " ؛ " التتار نساءهم يقاتلن كرجالهن " ؛ " التتار خيولهم تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات و لاتحتاج إلى الشعير " ؛ " التتار لا يحتاجون إلى الإمداد والتموين " ؛ "التتار يأكلون جميع اللحوم ويأكلون بني آدم" .

٣- ومن وسائل الحرب النفسية أيضاً هي كتابة الرسائل التهديدية الخطيرة و أيضاً أعد التتار العدةالمناسبة في ذلك الأمر فاتصلوا ببعض الوصوليين والمنافقين المسلمين ومن لهم حسن أدبي وفن في كتابة الرسائل.

٤- إعلان التحالفات فالقوات التي ستحارب المسلمين ليسوا من التتار فقط بل من التتار والأرمن والكرج وأنطاكيا وغيرها. .. .. فهذه التحالفات ستدخل الرعب في قلوب المسلمين.

٥- إعلان التحالفات مع أمراء المسلمين فكل هذا كان معلناً أمام العوام. بهذه الوسائل وبغيرها إستطاع التتار أن يبثوا الرعب والهلع في قلوب المسلمين وبذلك أصبح الجو مناسباً لدخول القوات التترية الغازية إلى العراق.

المحور الرابع: إضعاف جيوش الخلافة العباسية

كيف للتتار أن يضعفوا جيوش الخلافة العباسية وهم دولة من خارج الخلافة العباسية وأراضيها ؟

-طلب هولاكو من الوزير الفاسد " مؤيد الدين بن العلقمي " أن يقنع الخليفة العباسي أن يخفض من ميزانية الجيش وأن يقلل من أعداد الجنود وأن يصرف أذهان الدولة عن قضايا التسليح والحرب وتحويل بقية الجيش إلى الأعمال الميدانية في مجالات الزراعة والصناعة وغيرها وكل ذلك حتى لا نثير حفيظة التتار فنظهر لهم أننا رجال سلام ولسنا أصحاب حرب ؛ فعندما قال الوزير الشيعي ذلك الكلام للخليفة وافقه على ذلك وخفض ميزانية الجيش وقلل أعداد الجنود حتى أصبح الجيش العباسي الذي كان يبلغ عدده مائة ألف فارس في آخر أيام المستنصر بالله والد المستعصم بالله وذلك في سنة ٦٤٠- فأصبح هذا الجيش لا يزيد على عشرة آلاف فارس فقط في سنة.

وأصبح الجنود في حالة مذرية من الفقر والضياع حتى أنهم كانوا يسألون الناس في الأسواق وأهملت التدريبات العسكرية وفقد قواد الجيش أي مكانه لهم ولم يعد يذكر من بينهم من له القدرة على التخطيط والإدارة والقيادة ونسي المسلمون فنون القتال والنزال وغابت عن أذهانهم تماماً معالم الجهاد.

كان هذا هو إعداد هولاكو ومنكو خان كان إعداداً مبهراً حقاً وفي المقابل لم يكن هناك أي رد فعل مناسب أو غيرمناسب من المسلمين إستعداداً للغزو التتري القريب.

**الإعداد لحصار " بغداد "

بعد خمس سنوات كاملة من الإعداد وفي سنة ٦٥٤- أدرك هولاكو أن الظروف قد أصبحت ملاءمة للهجوم المباشر على الخلافة العباسية فبدأ بعملية حشد هائلة للجنود التتريين فجمع أكبر الجيوش التترية على الإطلاق منذ أن قامت دولة جنكيز خان ؛ فالجنود الذين كلفوا بحصار بغداد فقط أكثر من مائتي ألف جندي هذا بخلاف الأعداد الهائلة من الجنود المنتشرين في شمال وشرق وغرب وجنوب العراق والقوات المكلفة بحماية الطرق وتأمين الإمداد والتموين هذا غير الفرق المساعدة للجيش من فرق الإمداد والتموين والإستطلاع والمراقبة.

فبذلك نستطيع أن نبين تركيبة الجيش التتري في عشرة نقاط هي -:

١- الجيش التتري الأصلي فذلك الجيش كان يتمركز منذ سنوات في منطقة فارس وأذربيجان في شرق العراق.

٢- إستدعى هولاكو فرقة من جيوش التتار المتمركزة في حوض نهر " الفولجا " الروسي.

٣- أرسل هولاكو في طلب فرقة من جيش التتار الذي فتح أوروبا وتمركز هناك وكان في ذلك الوقت يتمركز على أطراف الأناضول شمال تركيا فجاءت الفرقة الكبيرة وعلى رأسها القائد التتري الكبير " بيجو ".

٤- أرسل هولاكو إلى صديقة ملك أرمينيا يطلب المساعدة فجاءه هيثوم ملك أرمينيا بنفسه على رأس فرقة من الجيش الأرمني.

٥- طلب هولاكو من ملك الكرج أن يرسل إليه فرقة للمساعدة في حصار العراق فاستجاب إلى ذلك فوراً.

٦- إستدعى هولاكو ألفاً من الرماة الصينيين المهرة الذين إشتهروا بتسديد السهام المحملة بالنيران

٧- وضع هولاكو على رأس الجيوش أفضل قواد التتار في ذلك الوقت وكان يدعى "كتبغا نوين " فوق إمكانيات هذا القائد القيادية والمهارية فإنه كان نصرانياً فكان هذا الإختيار موفقاً من هولاكو لأن كتبغا سيستطيع التعامل مع الأعداد الكبيرة النصرانية المشاركة في الحرب من أرمن وكرج وغيرهم وبذلك يكون الجيش التتري قد ضم بين صفوفة ثلاثة من أمهر القادة العسكريين في تاريخ التتار وهم (هولاكو وكتبغا نوين وبيجو) .

٨- راسل هولاكو أمير أنطاكيا" بوهمند " لكن تعذر عليه إختراق الشام كله ومع ذلك كان على استعداد تام للحرب فجهز جيوشه على إستعداد إذا سقطت العراق شارك هو في إسقاط الشام.

٩- وجود فرقة إسلامية في داخل الجيش التتري وعلى رأسها ولي عهد دمشق "العزيز بن الناصر يوسف الأيوبي " حفيد صلاح الدين وهذه الفرقة تشارك فيجيش التتار لإسقاط بغداد.

١٠- فرقة إسلامية أخرى أرسلها " بدر الدين لؤلؤ " أمير الموصل لتساعد أيضاً جيش التتار في إسقاط بغداد.

كانت هاتين الفرقتين الإسلاميتين الهزيلتين ليس لهما أي قيمة بالنسبة للجيوش التترية لكن كانتا تحملان معان كثيرة فهناك في جيش التتار مسلمون يشتركون مع التتار في حرب المسلمين بل قد يشارك في عملية تحرير العراق من الخليفة العباسي عراقيون متحالفون مع التتار.

بهذا الإعداد العالي المستوى إكتمل جيش التتار وبدأ بالزحف من فارس بإتجاه الغرب إلى العراق وبدأ هولاكو يضع خطة المعركة ؛ بدراسة مسرح العمليات وجد هولاكو أن طائفة الإسماعيلية الشيعية التي تتمركز في

الجبال في غراب وشرق العراق بين الجيش التتري وبين الخلافة العباسية وسوف تمثل خطورة كبيرة عل بالجيش التتري إذا ما هاجم بغداد ؛ لذلك قرر التتار عدم دخول بغداد إلا بعدأن يقضوا على طائفة الإسماعيلية تماماً وبالفعل تحركت الجيوش التترية الضخمة صوب معاقل الإسماعيلية فحاصرتها حصاراً محكماً ودارت حروب شرسة بين الفريقين إنتهت بسحق كامل للإسماعيلية وخلوا المنطقة تماماً منهم وأصبح الطريق مفتوحاً لبغداد هذه الحروب أخذت سنة ٦٥٥- بكاملها ؛

إجتمع هولاكو مع كبار مستشارية في مجلس حرب يُعد من أهم مجالس الحرب في تاريخ التتار والقرار هوغزو العاصمة بغداد وإسقاط الخلافة العباسية وكان هذا الإجتماع معقوداً في مدينة " همدان " الفارسية وأخذ القرار بالحرب وأهتم هولاكو بوضع مراقبة لصيقة على الفرق الإسلامية الموجودة داخل الجيش التتري خوفاً من الخيانة.

إنطلقت الجيوش من همدان صوب العراق والمسافة بين همدان في إيران والعراق ٤٥٠كم مربع ؛ وقرر هولاكو فيهذا المجلس أن يقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام:

الجيش الأول: وهو القلب وهوالقسم الرئيسي من الجيش والذي سيقوده هولاكو بنفسه وستلحق به أكثر من فرقةمن الفرق الهامة في الجيش التتري وستلحق به الفرقة الأخرى التي ستأتي من روسيا والفرق المساعدة من مملكة أرمينيا والكرج هذا القسم سيخترق الجبال الواقعة في غرب فارس صوب بغداد مروراً بمدينة "كرمان شاه " بعد أن أخليت هذه المنطقة تماماً من طائفة الإسماعيلية وستكون مهمة هذا الجيش هو حصاربغداد من الجهة الشرقية.

الجيش الثاني :هو الجناح الأيسر لجيش التتار الرئيسي وهذا الجيش سيقوده " كتبغا نوين" أفضل قواد هولاكوسيتحرك هذا الجيش بمفرده

بإتجاه بغداد أيضاً لكن إلى الجنوب من الجيشالأول وستكون مهمته إختراق سهول العراق والتوجه إلى بغداد من جنوبها للحصار من الجنوب.

الجيش الثالث :وهو الجيش التتري الرابض على أطراف الأناضول في شمال تركيا وعلى رأسه القائد " بيجو " وهذا الجيش سيأتي من المنطقة الشمالية للعراق بإتجاه الجنوب حتى يصل إلى بغداد وسيحاصر بغداد من الشمال ثم يلتف ويحاصرها من الغرب.

وبذلك تحصر بغداد بين هولاكو شرقاً وكتبغا نوين جنوباً وبيجو من الغرب والشمال.
على قدر الأداء المبهر للجيش الثالث في وصوله إلى بغداد في وقت متزامن مع الجيشين الآخرين على قدر الفضيحة الكبرى التي لحقت بالمسلمين جراء وصول هذا الجيش سالماً إلى بغداد لأن هذا الجيش عليه أن يقطع أولاً ٥٠٠كم مربع في الأراضي التركية (الأناضول) وهي أراض إسلامية ثم عليه أن يقطع ٥٠٠كم مربع أخرى داخل الأراضي العراقية وهي أيضاً أراض إسلامية ؛

إذاً فهذا الجيش عليه أن يسيرمسافة ١٠٠٠كم مربع في عمق الأراضي الإسلامية حتى يصل إلى بغداد ومع ذلك فقد قطع بيجو بجيشه ٩٥ بالمائة من الطريق أي حوالي ٩٥٠كم مربع دون أن تدري الخلافة العباسية عنه شيئاً باغت بيجو الخلافة العباسية على بعد ٥٠ كمأيضا كما فعل هولاكو شمال غرب بغداد ؛ وتبرير إختراق بيجو للأراضي الإسلامية يحمل معه مصيبتين كبيرتين:

المصيبة الأولى: هي غياب المخابرات الإسلامية عن الساحة تماماً فمن الواضح أن الجيش العباسي لا علم له ولا دراية بإدارة الحروب أو فنون الحرب.

المصيبة الثانية: وهي العظم وهي أن هناك خيانة واضحة من أمراء الأناضول (تركيا حاليا) والموصل المسلمين وكذلك من الشعوب المسلمة في الأناضول وفي الموصل هذه الخيانة فتحت الأبواب لجيش التتار ولم يحدث أي نوع من المقاومة فهي خيانة عظمى من " كيكاوس الثاني " و " قلج أرسلان الرابع " أمراء الأناضول وخيانة أعظم من "بدر الدين لؤلؤ " أمير الموصل فلم يكتفي فقط بتسهيل مهمة التتار ولكنه أيضا شارك بفرقه إسلامية تعين التتار على عملية تحرير العراق من الخلافة العباسية ومع العلم أن بدر الدين لؤلؤ من أصل عراقي وأقل تقدير لعمره عند هذه الخيانة كان ثمانون سنة وبعض الروايات تقول مائة ومن الجدير بالذكر أن بدر الدين لؤلؤ مات بعد هذه الخيانة بشهور قليلة.

هذه كانت كل تحركات الجيش التتري صوب بغداد.

الوضع في داخل بغداد

كانت بغداد في ذلك الوقت من أشد مدن الأرض حصانه فكانت أسوارها من أقوى الأسوار فهذه عاصمة الخلافة الإسلامية أكثر من خمسة قرون أنفق على تحصينها أموال طائلة وكان على رأس الدولة في بغداد والخليفة في نفس الوقت هو الخليفة السابع والثلاثون والأخير من خلفاء بني العباس " المستعصم بالله

الحصار

وفي يوم ١٢ محرم سنة ٦٥٦-ظهر جيش هولاكو فجأة أمام أسوار بغداد الشرقية وبدأ في نصب معدات الحصار الثقيلة حول الأسوار ؛ وجاء كذلك كتبغا بالجناح الأيسر من الجيش ليحيط بالمدينة من الناحية الجنوبية ؛ فارتاع الخليفة لذلك وعقد إجتماع عاجل وجمع فيه كبار مستشاريه وعلى

رأسهم الوزير الخائن " مؤيد الدين بن العلقمي" وكان من رأيه مهادنة التتار وإقامة مباحثات سلام فلا مانع عنده من بعض التنازلات وكان رأيه هو السلام غير المشروط مع التتار ؛ لكن قام رجلان من الوزراء في مجلس الخليفة وهما " مجاهد الدين أيبك " و " سليمان شاه " قاماليشيرا على الخليفة بحتمية الجهاد ؛

فاحتار الخليفة فهواه مع كلام مؤيد الدين بن العلقمي وعقله مع قول الوزيران لأن تاريخ التتار كله لا يشير بأي فرصة للسلام كما أنه كان يسمع من أجداده أن الحقوق لا توهب إنما تؤخذ وعندها سمح الخليفة للمرة الأولى تقريباً في تاريخه بإستخدام الجيش فهذا الجيل من الجنود يحارب لأول مرة ؛ فخرجت فرقه هزيلة من الجيش العباسي وعلى رأسها مجاهد الدين أيبك لتلاقي جيش هولاكو المهول ؛ وعندما خرج من أبواب بغداد بإتجاه الشرق لكي يلاقي جيش هولاكو سمعوا بقدوم جيش بيجو من الشمال وهذا الجيش إذا حاصر بغداد من الشمال فتكون بغداد قد طوقت تماماً ففضل مجاهد الدين أيبك قائد الجيش العباسي أن يحارب بيجو بدلاً من هولاكو لكي لا تحاصر بغداد من جميع الجهات وانتقل بجيشه الضعيف الهزيل لملاقاة جيش بيجو في الشمال ؛

وكان اللقاء في منطقة الأنبار وأستدرك الجيش العباسي في منطقة الأنبار وسحق الجيش المسلم واستطاع مجاهد الدين أيبك بأعجوبه أن يهرب بمجموعة قليلة من الجيش العباسي ويعود إلى داخل بغداد وكانت هذه هي الموقعة الوحيدة الغير متكافئة التي دارت بين التتار والعباسيين وكان ذلك في ١٩ من محرم أي بعد ظهور هولاكو أمام أسوار بغداد بسبعة أيام ؛ وانتقل بيجو مباشرة بجيشه من الأنبار حيث دارت المعركة إلى شمال بغداد وحاصرها وطوقت بغداد بين مثلث خطير بين هولاكو وبيجو.

المفاوضات

فاستغل مؤيد الدين العلقمي هذه الفرصة وأشار على الخليفة بطلب المفاوضات مع التتار ولكن الخليفة كان يعلم بأن التفاوض بين طرف قوي شديد القوة وطرف ضعيف شديد الضعف فإن هذا لايعني تفاوض وإنما يعني الإستسلام وفي الإستسلام عادة ما يقبل المهزوم بشروط المنتصر دون تعديل أو إعتراض ومع ذلك وافق الخليفة الضعيف على إجراء المفاوضات مع التتار ؛

وبعث رجلين ليديرا المفاوضات مع التتار وهما مؤيد الدين العلقمي الشيعي الذي يكن في قلبه كل الحقد والغل على الخلافة العباسية وأرسل معه متيكا بطريرك بغداد النصراني ؛ فكان الوفد الرسمي الممثل للخلافة الإسلامية العباسية العريقة للمفاوضات معالتتار لا يضم إلا رجلين فقط أحدهما شيعي ولآخر نصراني ؛ ودارت المفاوضات السرية بين هولاكو وبين ممثلي الخلافة العباسية الإسلامية فأعطيت الوعود العظيمة من هولاكو لكليهما إن ساعدا على إسقاط بغداد وأهم هذه الوعود أنهما سيكونان أعضاء في مجلس الحكم الجديد الذي سيحكم العراق بعد إحتلالها من التتار ؛

وعاد المبعوثان من عند هولاكو إلى الخليفة بالشروط التترية وبعض العروض والوعود ؛ فالوعود كانت

١- إنهاء حالة الحرب بين الدولتين وإقامة علاقة

٢- الزواج بين ابنة القائد هولاكو التتري الذي سفك دماء الملايين من المسلمين وأبن الخليفة.

٣- يبقى المستعصم بالله على كرسي الحكم.

٤- إعطاء الأمان لأهل بغداد جميعاً.

-هذه الوعود كلها سوف تحدث في حال لو فتحت بغداد أسوارها.

الشروط كانت

١- قمع حركة الجهاد التي أعلنت في بغداد فهذه الدعوة إلى الجهاد ستنسف كل مباحثات السلام فعلى الخليفة أن يسلم إلى هولاكو رءوس الحركة الإسلامية في بغداد وهما مجاهد الدين أيبك وسليمان شاه.
٢- تدمير الحصون العراقية وردم الخنادق وتسليم الأسلحة
٣- الموافقة على أن يكون حكم بغداد تحت رعاية أو مراقبة تترية.
وختم هولاكو المباحثات مع المبعوثين بأنه ما جاء إلى هذه البلاد إلا لإرساء قواعد العدل والحرية والأمان وبمجرد أن تستقر الأمور وفق الرؤية التترية فإنه سيعود إلى بلاده ويترك العراقيين يضعون دستورهم ويديرون شئون بلادهم بأنفسهم ؛ فاقنع مؤيد الدين العلقمي الخليفة بهذه الشروط والوعودو رغبه في قبولها ح فتردد الخليفة في قبول هذه المفاوضات ولكنه مضطر إلى قبولها والشعب الضخم الذي يعيش في بغداد أيضاً متردد ونداء الجهاد لاينبعث إلا من بعض الأفواه القليلة؛ فأراد الخليفة بعض الوقت للتفكير فيهذه الشروط والوعود ولكن هولاكو لا يقوى على الإنتظار فهو يقف خارج أسوار بغداد بجيوش ضخمة تتكلف من النفقات يومياً الآلاف من الدنانير وهو شخصياً لا يقوى على الإنتظار فهو يريد أن يرى هذه المدينة العظيمة التي طالما سمع عنها كثيراً يريد أن يراها من الداخل ويريد أن يحقق الحلم الذي راود أجداده وهو يحققه الآن وهو غزو بغداد وإسقاط الخلافة العباسية الإسلامية ؛وبالفعل بدأ هولاكو في قصف بغداد بالقذائف الحجرية والنارية ومع أول قذيفة سقط قلب الخليفة في قدمه فماذا يفعل؟ أربعة أيام متتالية من القصف المتواصل على بغداد.

*قصة غريبة

يذكر ابن كثير رحمه الله- في البداية والنهاية موقفاً بسيطاً لا يعلق عليه ؛ فيقول ابن كثير :وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل مكان حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه وكانت من جملة حظاياه وكانت تسمى " عرفه "جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة ؛ فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذامكتوب عليه " إذا أراد الله إنفاز قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم" فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الإحتراز وكثرت الستائر على دار الخلافة .

.. ..

**إجتياح بغداد

القصف على بغداد إستمر من يوم ١ صفر إلى الرابع من صفر في سنة ٦٥٦هـ ؛ وفيالرابع من صفر سقطت الأسوار الشرقية لبغداد ومع سقوط الأسوار سقط الخليفة   وانهار تماماً فأشار عليه الوزير بن العلقمي أن يخرج هو بنفسه لمقابلة هولاكو لعل هولاكو يقبل السلام ؛ فجاءت الرسل من عند الخليفة إلى هولاكو تخبره بقدوم الخليفة ؛ فأمر هولاكو أن يأتي الخليفة ومعه كبار رجال الدولة والوزراء والفقهاء والعلماء وأمراء الناس والأعيان حتى يحضروا جميعاً المفاوضات وتصبح المفاوضات كما يزعم هولاكو ملزمة للجميع ؛

فجمع الخليفة كبار قومه وخرج بنفسه في وفد مهيب إلى خيمة هولاكو ومعه سبعمائة من قادة المسلمين وعلماءهم وكان يسير إلى جواره الوزير الخائن مؤيد الدين العلقمي الشيعي ؛واقترب الوفد من خيمة هولاكو فاعترض الوفد فرقه من الحرس الملكي التتري ولم يسمحوا لكل الوفد بالدخول على هولاكو ولم يسمحوا إلا للخليفة وسبعةعشر رجلاً معه فقط

بالدخول على هولاكو أما الباقي فكما قالوا سيخضعون للتفتيش الدقيق ؛ ودخل الخليفة ومعه رجاله وحجب عنه باقي الوفد ؛ وقتل الوفد بكامله فقتل كل الرجال الذين أخذوا للتفتيش ولم يبق إلا الخليفة ومن معه داخل خيمة هولاكو ؛ وبدأ هولاكو يصدر الأوامر في عنف وتكبر واكتشف الخليفة أن وفده قد قتل بكامله فاكتشف عند ذلك الخليفة أن التتار وأمثالهم لا عهد لهم ولا أمان لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وبدأت الأوامر الصارمة تخرج من هولاكو:

أولاً:على الخليفة أن يصدر أوامره إلى أهل بغداد بإلقاء أي سلاح معهم و الإمتناع عن أي مقاومة.

ثانياً:يقيد الخليفة ويساق في بغداد يرسب في أغلاله لكي يدل التتار على كنوز العباسيين.

ثالثاً:يقتل ولدا الخليفة أمام عينه وهما أحمد وعبد الرحمن.

رابعاً:يتم أسر أخوات الخليفة الثلاثة فاطمة وخديجه ومريم.

خامساً:يستدعى من بغداد بعض الرجال بعينهم وهؤلاء كتب أسمائهم ابن العلقمي فهؤلاء هم علماء السنة وحملة القرآن وأئمة المساجد في داخل بغداد ؛ فيخرج كل فرد من هؤلاء ومعه أولاده ونسائه ويذهبون إلى مكان خارج بغداد بجوار المقابر فيلقى العالم على الأرض ويذبح كما تذبح الشاه ويؤخذ نساؤه وأولاده سبياً أو للقتل ؛فذبح على هذه الصورة أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف فهذا ابن العالم المشهور ابن الجوزي رحمه الله- وذبح أولاده الثلاثة معه عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم ؛ وذبح مجاهد الدين أيبك وزميله سليمان شاه ؛

وذبح شيخ الشيوخ ومؤدب الخليفة ومربيه صدر الدين علي بن النيار ؛ ثم ذبح بعد ذلك خطباء المساجد والأئمة وحملة القرآن ؛ كل ذلك والخليفة حي يشاهد.

إستباحة المدينة

فألقى أهل بغداد السلاح وقتلت الصفوه من أهلها وأنساب جنود هولاكو في شوارع وطرقات بغداد وأصدر السفاح هولاكو أمر الشنيع باستباحة بغداد ؛فالأمر بالإستباحة يعني أن الجيش التتري يفعل فيها ما يشاء يقتل يأسر يسبي يزني يسرق يدمر يحرق ؛ فانطلقت وحوش التتار الهمجية تنهش في أجساد المسلمين وفعل التتار في المدينة مالا يتخيله عقل فبدأ الجنود التتريين يتعقبون المسلمين في كل شارع أو ميدان في كل بيت أو حديقة في كل مسجد أومكتبة وأستحر القتل في المسلمين والمسلمون لا حول لهم ولا قوة لا هم لهم إلا الهرب ؛

فيهرب المسلم إلى داره ويغلق عليه الباب فيأتي التتري ويحرق الباب أو يقتلعه ويدخل عليه فيهرب إلى أعلى المنزل إلى السطح فيصعد وراءه التتري ويقتله فوق الأسطح حتى سالت الدماء بكثرة من ميازيب المدينة ؛ فلم يقتصر التتار على قتل الرجال الأقوياء فقط إنما كانوا يقتلون الكهول والشيوخ وكانوا يقتلون النساء إلا من إستحسنوه منهن فكانوا يأخذونهم سبياً بل وكانوا يقتلون الأطفال حتى الرضع منهم ؛وجد جندي من التتار أربعين طفلاً حديثي الولادة في شارع من شوارع بغداد وقد قتلت أمهاتهم فقتلهم جميعاً ؛ وتزايد عدد القتلى في المدينة بشكل بشع كل هذا والخليفة على قيد الحياة يشاهد ما يحدث في مدينتة ولاشك أنه كان نادماً على كل ما فعل وكان لسان حاله يقول رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً ؛

روي أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم " ؛ عمل أهل بغداد في الزراعة والتجارة بل وفي العلم والتعلم لكن تركوا الجهاد في سبيل الله فكانت النتيجة هذا الذل الذي رأوه.

مقتل الخليفة

وسيق الخليفة المستعصم بالله إلى خاتمته الشنيعة بعد أن دل على كل كنوز العباسيين ؛ فوضعه التتار فيجوال ثم أمر هولاكو أن يقتل الخليفة رفساً بالأقدام ؛ وبمقتله يكون قد سقط آخر خلفاء بني العباس في بغداد وسقطت معه بغداد وسقط من وراءها الشعب بكامله وكان ذلك في اليوم العاشر من فتح بغداد لبوابها يوم ١٤ صفر سنة٦٥٦هـ.

ما فعله التتار في بغداد بعد قتل الخليفة

ولم تنتهي المأساه بقتل الخليفة وإنما أمر هولاكو- لعنه الله بإستمرار عملية القتل في بغداد واستمرت إلى أربعين يوما متصله لاهم للجنود التتر إلا قتل المسلمين ؛ وقتل من أهل بغداد وحدها مليون مسلم في أربعين يوما فقط من الرجال والنساء والأطفال والكهول ولم ينج من القتل في بغداد إلا أفراد الجالية المسيحية!!!!!

وبينما كان فريق من التتار يعمل على قتل المسلمين وسفك الدماء إتجه فريق آخر من التتر إلى عمل إجرامي أبشع وهو تدمير مكتبة بغداد وهي أعظم مكتبة موجوده على وجه الأرض في ذلك الزمان بلا منازع فقد جمعت فيها مختلف العلوم والآداب والفنون من شتى بقاع الأرض ؛ ولم يقترب منها في العظمة والشهرة إلا مكتبة قرطبة في الأندلس ؛فحمل التتار الكتب الإسلامية وفي بساطة شديدة ألقوها جميعا في نهر " دجلة"فتحول لون مياه النهر إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب حتى قيل أن الفارس التتري كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى أخرى ؛

وبعد أن فرغ التتار من تدمير مكتبة بغداد إتجهوا إلى الديار الأنيقة والمنازل الجميلة فتناولوها بالتدمير والحرق وسرقوا منها المحتويات الثمينة وما عجزوا عن حمله منها أحرقوه ؛ وبعد الأربعين يوما الدموية في بغداد

أصدر هولاكو مجموعة من الأوامر وأولها أنه أعطى أماننا حقيقيا في بغداد فلا يقتل مسلم في بغداد بعد هذا الأمر عشوائيا لأن الجثث المتعفنه أصبحت كالتلال في شوارع وطرقات بغداد ؛ فخشى هولاكو أن يحدث وباء في هذه المناطق فيأكل المسلمين والتتار فأمر بخروج من تبقى من المسلمين ونجى من القتل من مخابئهم وأعلن الأمان ليقوموا بدفن موتاهم ؛ وخرج من تبقى من المسلمين وأخذوا في دفن موتاهم ومع ذلك فقد إنتشرت الأوبئة فعلا في بغداد ومات من المسلمين عدد كبير من جراءهذه الأمراض القاتله ؛

وكما يقول ابن كثير فيكتابه البداية والنهاية " ومن نجا من الطعن لم ينجو من الطاعون " ؛والأمر الثاني الذي أصدره هولاكو هو تعيين "مؤيد الدين العلقمي" الشيعي الرافضي رئيسا على مجلس الحكم المعين من قبل التتار على أن توضع عليه بالطبع وصاية تترية ولم يكن مؤيد الدين إلا صورة للحاكم ولكن القيادة الفعلية كانت في يد التتار بل إن الأمر تزايد بعد ذلك حتى وصل إلى الإهانة المباشرة له من قبل صغار الجند ؛ وبعد كل هذا الذل الذي عاشه بن العلقمي بعدها بأيام مات في بيته وسبحان الله فلم يتسنى له أن يستمتع بملك أو بحكم والذي ضحى من أجله بحياة آلآف المسلمين وليكن عبرة بعد ذلك لكل من تسول له نفسه أن يخون أمته ودينه ؛ وبعد موته ولى التتار إبنه ليكون مكان أبيه على حكم بغداد ولكن من مفارقات القدر أن يموت أيضا هذا الأبن الشاب في نفس السنه التي مات فيها أبيه وهي نفس السنه التي سقطت فيها بغداد.

ردود الأفعال بعد سقوط بغداد

ووصلت أخبار سقوط بغداد إلى بأسره ؛ فالعالم الإسلامي كان سقوط بغداد بالنسبة له صدمه كبيرة ورهيبة لايمكن إستيعابها مطلقا ؛وظهر لدى المسلمن في ذلك الوقت إعتقاد سيطر على معظمهم وهو أن ضعف

المسلمين وقوة التتار وسقوط بغداد ما هي إلا علامات للساعة وأن المهدي سيظهر قريبا وسيقود جيوش المسلمين للإنتصار على التتار.

أما العالم النصراني فقد عمت فيه البهجة والفرحة اطرافه بكاملها وكان هذا هو المتوقع ؛ فالحروب بين المسلمين والنصارى لم تنتهي وكانت على أشدها في ذلك الوقت وبالطبع فهذه الضربه التترية موجعه جدا للعالم الإسلامي ؛ ولا شك أن أطماع الصليبيين ستتجدد في الشام وفي مصر.

ماذا فعل هولاكو بعد تدمير بغداد

إنسحب هولاكو من بغداد إلى همدان بفارس ثم توجه إلى قلعة تسمى " شها " على شاطئ بحيرة " أرميه " وهى تقع في الشمال الغربي لدولة إيران حاليا ؛ في هذه القلعة وضع هولاكو والكنوز الهائلة التي نهبها من قصور العباسيين والتي نهبها من بيت مال المسلمين ومن بيوت التجار وأصحاب الأموال. .. ... ؛ وبالطبع ترك هولاكو حاميه تتريه حول بغداد لحمايتها.

وبدأ يفكر بجدية في الخطوة التالية ولا شك أن الخطوة التالية سوف تكون سوريا.

وبدأ هولاكو بدراسة الموقف في هذه المنطقة ؛ وبينما هو يقوم بهذه الدراسه ويحدد نقاط الضعف والقوة في هذه المناطق الإسلامية ؛ بدأ بعض الأمراء المسلمين يؤكدون على ولائهم للتتار وبدأت الوفود الإسلامية الرسمية تتوالى على زعيم التتار تطلب عقد الأحلاف والمعاهدات مع هولاكو فجاء الأمير " بدر الدين لؤلؤ " أمير الموصل والأمير " كيكاوس الثاني " والأمير " قلج أرسلان الرابع " من منطقة الأناضول في وسط وغرب تركيا حاليا ؛ وجاء أيضا الأمير " الأشرف الأيوبي "أمير حمص والأمير " الناصر

يوسف " حفيد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله -أمير حلب ودمشق ؛ فهؤلاء الأمراء يمثلون معظم شمال العراق والشام وتركيا.

ولكن قبل أن يدخل الشام ظهرأمام هولاكو أحد العوائق الصعبة والتي سوف تأخر وصوله وتقدمه نحو الشام وهو أن أحد الأمراء الأيوبيين رفض أن يرضخ لأوامر وقرارات هولاكو ورفض أنيعقد مع التتار أي معاهدات وقرر أن يجاهد التتار إلى النهاية وهذا الأمير هو " الكامل محمد الأيوبي " أمير مدينة " ميافرقين " وهي تقع الآن إلى الغرب من بحيرة " وآن " ؛ وجيوشه كانت تسيطر على شرق تركيا بالإضافه إلى منطقة الجزيرة (وهي المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات من جهة الشمال) ولذلك فإن هولاكو أصبح من اللازم عليه محاربة الكامل محمد لكي يستطيع دخول الشام وسوريا من جهة العراق لأنه لم يستطع بلوغ سوريا إلا بالمرور منالجزيرة وهي المنطقة الواقعة تحت سيطرة الكامل محمد- رحمه الله.

التتار وميافارقين

ومدينة ميافارقين هذه مدينه شديدة الحصانة وتقع بين سلسلة جبال البحر الأسود ؛ فأصبح إختراق هذه المنطقة شديد الصعوبة على التتار ؛ ولبكن هولاكو لم يريد أن يترك أي شيء للمفاجئات وقرر إقتحام المدينة.

فماذا يفعل هولاكو للخروج من ذلك المأزق ؟

بدأ هولاكو بسلوك الطرق السهلة وغير المكلفة ؛ فحاول إرهاب الكامل وإقناعه بالتخلي عن فكرة الجهاد؛ فأرسل إليه رسول برساله يدعوه فيها إلى التسليم غير المشروط ويدعوه إلىالدخول فيما دخل فيه غيره.

وكان هولاكو في منتهى الذكاء عندما إختار الرسول الذي سيرسله إلى الكامل محمد الأيوبي ؛ فلم يرسل رسولا تتريا وإنما أرسل رسولا عربيا نصرانيا ؛ وهو

رجل يدعى " قسيس يعقوبي "فهذا الرسول من ناحية يستطيع التفاهم مع الكامل بلغته ؛ ثم هو من ناحيه أخرى نصراني وذلك حتى يلفت نظر الكامل محمد إلى أن النصارى يتعاونون مع التتار.

فما أهمية ذلك بالنسبة للكامل محمد ؟

لذلك الموقف أهمية إستراتيجية بالغة الخطورة بالنسبة للكامل محمد ؛ لأنه في شرق تركيا سنجد الموقع الجغرافي لإمارة ميافرقين في منتهى الخطورة ؛ فالحدود الشرقية مع مملكة "أرمينيا " النصرانية وهي متحالفة مع التتار ؛ والحدود الشمالية الشرقية مملكة " الكرج" النصرانية وهي أيضا متحالفة مع التتار ؛ ومن الحدود الجنوبية الشرقية تجد إمارة "الموصل" العميلة للتتار ؛ فأصبح بذلك الجانب الشرقي للإمارة بالكامل محاط بعملاء التتار من النصارى والمسلمين ؛ ومن الغرب توجد إمارات السلاجقة المسلمين وهم أيضا كغيرهم في ذلك الزمان عملاء للتتار ؛ فوسط وغرب تركيا عميل للتتار ؛ ومن الجنوب الغربي إمارة حلب التابعة للناصر يوسف المتعاون مع التتار.
فلم يصبح للكامل محمد أي منفذ من أي جهة فقد أصبح محاصرا من جميع الجهات.

ماذا فعل الكامل محمد مع رسول التتار النصراني

فعل الكامل محمد على غير عادة الملوك والأمراء مع الرسول ؛ فقد أمسك بذلك الرسول وقتله ؛ ولكن الكامل محمد قام بذلك ليكون بمثابة الإعلان الرسمي للحرب على هولاكو وكنوع من شفاء الصدور للمسلمين إنتقاما من ذبح مليون مسلم في بغداد ؛ ولأن التتار في الأساس لم يحترموا أي عرف أو عادة فيحياتهم.

وبعد هذه الواقعة أدرك هولاكو تماما أنه لن يدخل الشام إلا بعد القضاء على الكامل محمد تماما.

الحصار

أسرع هولاكو في تجهيز جيشكبير لملاقاة الكامل محمد ووضع على رأسه إبنه "أشموط" وتوجه ذلك الجيشمباشرة إلى ميافرقين بعد أن قام أمير الموصل لبعميل " بدر الدين لؤلؤ "بفتح أرض الموصل لمرور الجيش التتري.

وحاصر جيش التتار إمارةميافرقين حصارا شديدا ؛ وكما هو متوقع فقد جاءت جيوش مملكتي أرمينياوالكرج لكي تحاصر ميافرقين من الناحية الشقية ؛ وبدأ ذلك الحصار الشرس منشهر رجب سنة ٦٥٦هـ ؛ وصمدت المدينة في وجه ذلك الحصار وظهرت فيها مقاومةضارية وقام الأمير الكامل محمد في شجاعة نادرة يشجع شعبه على الثبوتوالجهاد في سبيل الله.

وقام الأمير الكامل بطلبالنجدة من الناصر يوسف صاحب حلب ؛ لكن الناصر رفض تقديم أي مساعدة له رفضاقاطعا وصريحا ؛ ثم إنه لم يكتفي بمنع المساعدة عن الكامل ولم يكتفيبالمشاركة في الحصار بل أرسل رسالة إلى هولاكو مع إبنه " العزيز " يطلبفيها أمرا غريبا في هذا التوقيت ؛ فقد أرسل يطلب من هولاكو أن يعينه بفرقهتتريه للهجوم على مصر وافستيلاء عليها من المماليك ليضمها إلى أملاكه ؛ولكن سبحان الله – إستكبر هولاكو أن يرسل إليه الناصر يوسف إبنه ولم يأتإليه بنفسه ؛ ورأى هولاكو أن الناصر قد بدأ يرى نفسه إلى جواره في العظمةوالسلطان ؛ فجمع هولاكو الأدباء والشعراء المحترفين لكي يرسل رسالة يردفيها على الناصر يوسف.

رسالة هولاكو إلى الناصر يوسف

فأرسل يقول له " الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب ؛ أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى وقتلنا فرسانها ؛ وهدمنا بنيانها ؛ وأسرنا سكانها ؛ كما فال الله تعالى في كتابه العزيز " قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلةوكذلك يفعلون" ؛ واستحظرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب (يعني عن الكنوز والأموال) فواقعه الندم واستوجب منا العدم ؛ وكان قد جمع ذخائرنفيسه وكانت نفسه خسيسه ؛ فجمع المال ولم يعبأ بالرجال ؛ وكان قد نما ذكرهوعظم قدره ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال ؛ إذا وقفت على كتابي هذافسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهً شاه رويزمين (أيملك الملوك على وجه الأرض) تأمن شره وتنل خيره كما قال الله تعال فيكتابه العزيز " وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاهالجزاء الأوفى " ولا تعوق رسلن عنك فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ؛ وقدبلغنا أن تجار الشام وغيرهم إنهزموا بحريمهم إلى مصر ؛ فإن كانوا فيالجبال نسفناها ؛ وإن كانوا في الأرض خسفناها أين النجاه ولامناص لهاربوليا البسيطان الندى والماء ؛ ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت في قبضة الأمراءوالوزراء " انتهت الرسالة التترية المرعبة وعلم الناصر يوسف أن هولاكويطلب منه التسليم الكامل.

ماذا فعل الناصر يوسف بعدما وصلته رسالة هولاكو

فقرر الناصر يوسف أن يأخذقرارا ما فكر فيه طيلة حياته فقد إضطر إضطرارا إلى أن يأخذ قرار الجهاد فيسبيل الله ؛ وضرب معسكر جيشه في شمال دمشق عند قرية "برزا " وبدأ في إعدادالعده لقتال التتار ؛ فبدأ في مراسلة الأمراء المسلمين من حوله لينضمواغليه لقتال التتار فراسل أمير الكرك " المغيث فتح الدين عمر " وراسل أميرمصر يطلب معونته في حرب

التتار والذي كان بالأمس يريد أخذ فرقه تترية لغزو بلاده.

وكان هولاكو قد عاد من قرية "شها " إلى مدينة " همدان " وهي التي كان يوجد بها القيادة المركزية لإدارةشئون الحرب في المنطقة ؛ وبدأ هولاكو في إعادة ترتيب الأوضاع في المنطقةبعد التطورات الجديدة واستوجب النقاط التالية:

١- وجوب تعميق العلاقات بين التتار والنصارى.

٢- إستمرارية حصار ميافرقين.

٣- الإستهانه من قبل هولاكو بأمر الناصر يوسف وإعداده للجهاد لأنه يعلم جيدا الناصر يوسف وأنه ليس له ناقة ولا جمل في دخول الحرب.

٤- منطقة العراق الأوسط وبما فيها بغداد ومنطقة شمال العراق أصبحت آمنه تماما للتتار

٥- أقوى المدن في الشام هما مدينتا حلب ودمشق فلوسقطتا فقد سقطت الشام بالكامل

ماذا كان قرار هولاكو؟

قرر هولاكو التوجه مباشرةلإسقاط إحدى المدينتين حلب أو دمشق ؛ فقرر هولاكو وبعد دراسة وبحث أوضاعكلا من المدينتين والمناطق المحيطة بهما أن يدخل حلب أولا ثم يتوجه إلى دمشق.

حصار حلب

بدأ جيش التتار الرئيسيبقيادة هولاكو في التحرك من قواعده في همدان في فارس متجها إلى شمالالعراق وفي طريقه إحتل مدينة " نصيبيين " وهي تبعد ١٦٠كم عن ميافرقين ولميقابل هذا الجيش بأي مقاومة تذكر ؛ ثم إتجه غربا ليحتل مدينة " حران " ثممدينة " الرها " ثم مدينة " البيرة " ؛ وكل هذه المدن تقع حاليا في جنوبتركيا ؛ ثم بعد ذلك عبر هولاكو نهر الفرات من شرقه إلى غربه وتوجه مباشرةإلى مدينة حلب الحصينة واستمر هذا التقدم التتري في الأراضي الفارسية ثمالعراقية والتركية ثم الأراضي السورية وصولا إلى حلب مدة عام كامل وهو عام٦٥٧هـ ؛ ووصل هولاكو إلى مدينة حلب في شهر محرم من سنة ٦٥٨هـ وحاصرتالجيوش التترية المدينة من كل الجهات ؛ لكن حلب رفضت التسليم وتزعمالمقاومة فيها " توران شاه " عم الناصر يوسف وكان سيخا كبيرا ؛ ونصبتالمجانيق حول المدينة وبدأ القصف المتوالي من التتار على المدينة ؛

وفي أثناء ذلك الحصاروالشعب يحاول رد بأس التتار عنه وصل إليهم خبر أليم مفجع فقد سقطت مدينةميافرقين وفتحت لجيش التتار المحاصر لها بقيادة " أشموط " وانساحت جيوشالتتار الهائلة داخل المدينة بعد حصار إستمر عاما ونصف واستبيحت حرماتالمدينة تماما ؛ فقد جعلها " أشموط " إبن هولاكو عبرة لكل بلد تقاوم تفكرأن في هذه المنطقة فقد قتل كل سكانها وحرق الديار ودمرها تماما ؛ لكنهإحتفظ برجل واحد فقط من هذه المدينة وهو الأمير " الكامل محمد الأيوبي "حيا ليزيد من عذابه ؛ فذهب به إلى أبيه الفاح هولاكو وهو في حصار مدينةحلب وسلمه إياه.

قتل الكامل محمد

إستجمع هولاكو كل شره في الإنتقام من الأمير البطل ؛ فأمسك به وقيده ثم صلبه ثم بدأ في تقطيع أطرافه وهو هيثم أجبره على أن يأكل لحمه ؛ فكان يدس لحمه في فمه رغما عن أنفه ؛ وظل به على هذا التعذيب البشع إلى أن أذن الله عز وجل – لروحه المجاهدة أن تصعد إلى دارها في الآخرة ؛ ثم قام السفاح هولاكو بقطع رأسه ثم وضعها في رمح وأمر أن يطاف برأسه في كل بلاد الشام وذلك ليكون عبرة لكل المسلمين ؛وانتهى المطاف برأسه ‘لى دمشق وعلقت رأسه فترة على أحد أبواب دمشق وهو باب" الفراديس " ثم انتهى المقام به إلى أن دفن في أحد المساجد وعرف هذا المسجد بعد ذلك بمسجد الرأس.

سقوط حلب

واشتد القصف التتري على حلب واستمر الحصار للمدينة لسبعة أيام فقط ؛ ثم أعطى التتار الأمان لأهلها إذا فتحوا الأبواب دون مقاومة ؛ لكن زعيم المدينة " توران شاه " قال لهم أن هذه خدعة لأن التتار لا أمان لهم ولاعهد ؛ لكن الشعب الحلبي كان قد أصيب بالإحباط الشديد وقادهم هذا الإحباط إلى الرغبة في التسليم ؛ فاتجه عامتهم إلى فتح الأبواب لهولاكو ؛ لكن قائدهم وبعض المجاهدين في المدينة رفضوا واعتصموا بالقلعة داخل المدينة ؛وفتحت الأبواب ودخل التتار داخل مدينة حلب وما إن سيطروا على محاور حلب حتى ظهرت النوايا الحقيقية الخبيثة للتتار فقد أصدر هولاكو أمرا بقتل المسلمين في حلب وترك النصارى ؛ وهكذا بدأت المذابح البشعة في رجال ونساء وأطفال حلب وتم تدمير المدينة تماما ؛

ثم إتجه هولاكو إلى حصار القلعة التي في داخل حلب ؛ وأشتد القصف على القلعة وانهمرت السهام من كل مكان ؛ ولكن القلعة صمدت وقاومت

أربعة أسابيع كاملة إلى أن سقطت في النهاية ودخل هولاكو القلعة وقتل كل من كان فيها وأبقى رجلا واحد وهو القائد البطل " توران شاه " لم يقتله كما فعل مع الكامل محمد ولكنه إحتفظ به معه أسيرا.

إستقر الوضع لهولاكو في حلب وخارت كل مقاومة كانت بها ؛ ثم أراد هولاكو أن ينتقل إلى منطقة أخرى بالشام فاستقدم الأشرف الأيوبي أمير حمص وهو من الأمراء الذين والو هولاكو قبل ذلك فأظهر له هولاكو كرما غير عادي فقد أعطاه مدينة حلب إلى جوارمدينة حمص لكي يضمن الولاء التام له.

ثم اتجه هولاكو إلى الغرب بعدسقوط حلب واتجه إلى حصن " حارم " وهو حصن إسلامي يبعد ٥٠كم من حلب ؛فحاصره ثم فتحه وذبح كل من فيه ؛ وأكمل سيره إلى الغرب حتى وصل إلى إمارة" أنطاكيا " وهي إمارة الحليف النصراني الأمير بهمند ؛ وحول أنطاكيا ضرب هولاكو معسكره ؛ ثم دعى إلى عقد مؤتمر لبحث الأوضاع في المنطقة، وبدأ الحلفاء في كل المنطقة يتوافدون على هولاكو ؛ فجاء الملك الأرمني هيثوموأمير أنطاكيا بهمند وأمراء السلاجقة المسلمون كيكاوس وقلج أرسلان الرابع؛ وبدأ هولاكو يصدر مجموعة من الأوامر والقرارات والجميع يستمعون وهي الآتي:

أولا: يكافأ ملك أرمينيا هيثوم بمكافأه كبيرة من غنائم حلب ؛ وذلك تقديرا لدور الجيش الأرمني في إسقاط بغداد ثم ميافرقين ثم حلب.

ثانيا: على سلطاني السلاجقة أن يعيدا بعض المدن والقلاع التي كان المسلمون قد فتحوها قبل ذلك إلى ملك أرمينيا.

ثالثا: يكافأ بهمند أمير أنطاكيا على تعاونه مع هولاكو فأعطاه هولاكو مدينة اللازقية المسلمة هدية وهي المدينة التي حررت من الصليبيين على يد صلاح الدين – رحمه الله.

رابعا: تعين بطريرك جديد للكنيسة في أنطاكيا ؛ وهو بطريرك يوناني ارزثكسي فعينة هولاكو على كنيسة أنطاكيا الكاثوليكية.

سقوط دمشق

وبدأ هولاكو بعد ذلك بالتحرك بالجيش التتري ناحية الجنوب ؛ وعندما بدأ هولاكو في التحرك جاء إليه وفد من أعيان" حماه " وكبرائها يقدمون له مفاتيح المدينة ويسلمونها دون قتال ؛ فقبل منهم هولاكو المفاتيح واعطاهم الأمان الحقيقي في هذه المره لكي يشجع كل الملوك في الشام ان يفتحوا أبواب بلادهم كما فتحت حماه ؛ ثم ترك حماه وانتقل بعد ذلك إلى حمص وهي بلد صديقه فتركها ولم يدخلها واتجه مباشرة إلى دمشق والمسافة بين حمص ودممشق ١٢٠ كم فقط ؛ فعلم الناصر يوسف أمير دمشق أن هولاكو قادم إليه ؛ فعقد مجلسا إستشاريا أعلى ضم معظم قادة الجند وأخذوا في التباحث والتشاور وطال النقاش والحوار ووصلوا في النهاية إلى القرار ؛

والقرار هو الفرار فليس لديهم أي فرصة في الدفاع عن المدينة ولا التفكير أصلا في الدفاع عنها ؛ فسيفر الأمير الناصر يوسف والأمراء سيفرون والجيش كذلك وستبقى مدينة دمشق وشعبها الكبير دون حمايه ولا دفاع وإنا لله وإنا إليه راجعون ؛ وعند قرب قدوم التتار إلى المدينة إجتمع أعيان دمشق وكبرائها وقرروا أن يفعلوا مثلما فعل أهل حماه ؛سيأخذون مفاتيح المدينة ويسلمونها إلى هولاكو ويطلبون منه الأمان ؛ ولم يخالف هذا الرأي إلا قله من المجاهدين قرروا التحصن في قلعة دمشق والدفاع حتى النهاية ؛ وبالفعل أعطى هولاكو أهل دمشق الأمان الحقيقي كما أعطى أهل حماه ؛ وقبل أن يدخل دمشق حدث مالم يكن في حسبانه فقد مات منكوخان زعيم دولة التتار ؛ فقد جائته الأخبار قبل أن يصل دمشق بقليل ؛

فقد كانت هذه أزمة كبيرة فقد كان منكوخان يحكم دوله مهولة إتسعت في وقت قياسي فحدوث أي إضطراب في الحكم سيؤدي إلى كارثة وهو أحد المرشحين لقيادة دولة التتار بدلا من قيادة الشام وما حولها ؛ فترك الجيش التتري وسارع بالعوده باتجاه العاصمة قورقورم لكنه عندما وصل إلى تبريز في إيران إكتشف أن التتار قد عينوا غيره فقد عينوا كوبي لاي أميرا على دولة التتر بكاملها ؛ وكان ذلك بمثابة الصدمة لهولاكوفلم يكمل الطريق إلى العاصمة وآثر أن يمكث في تبريز ولم يعد بعد ذلك إلى الشام ؛ واخذ يراقب الموقف من تبريز ويدير كل هذه الممتلكات الواسعة التي فتحها ؛ وحمل أعيان دمشق المفاتيح ليسلموها إلى هولاكو فاستقبلهم القائد الجديد ؛ فقبل أن يغادر هولاكو الجيش ترك على رأسه أعظم قواده " كتبغانوين " وهو الذي دخل دمشق وأعطى أهلها الأمان الحقيقي وتقدم بجيشه لدخول المدينة العظيمة الكبيرة دمشق ؛

وقد شاهد المسلمون في دمشق مالم يتخيلوه مطلقا ؛ فقد شاهدوا ثلاثة أمراء نصارى يتبخترون في شوارع دمشق فقد كان في مقدمة الجيش " كتبغا نوين " وهو تتري نصراني وبصحبتة الملك " هيثوم" ملك أرمينيا والأمير " بهمند " أمير أنطاكيا فهذه أول مرة يدخل أمراءنصارى مدينة دمشق منذ أن تركها الرومان أيام هرقل قيصر الروم عند الفتح الإسلامي سنة ١٤هـ ؛ وأعطى التتار فعلا الأمان لأهل دمشق فلم يقتلوا منهم أحد اللهم إلا هولاء الذين تحصنوا في قلعة دمشق وسقطت دمشق في أواخر صفر سنة ٦٥٨هـ أي بعد عامين فقط من سقوط بغداد ؛ وبدأ التتار في إدارة مدينة دمشق بواسطة النصارى فقد وضعوا على المدينة رجلا تتريا يدعى " إبلسيان "وهو وإن لم يكن نصرانيا ولكنه كان معظما جدا للنصارى محابيا جدا لهم وبدأت المدينة تعيش فترة عجيبة جدا من تاريخها.

.. ..

ماذا قال ابن كثير عن سقوط دمشق ؟

فقد قال ابن كثير في كتاب البداية والنهاية تفصيلا لهذا الأمر يقول "إجتمع إبلسيان لعنه الله – بأساقفة النصارى وقساوستهم فعظمهم جدا وزار كنائسهم فصارت لهم دولة وصولة بسببه وذهبت طائفة من النصارى إلى هولاكو وأخذوا معهم هدايا فاستقبلهم وأحسن إستقبالهم ثم قدموا بعد ذلك من عنده ومعهم أمان من جهته ؛ ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤس الناس وهم ينادون بشعارهم ويقولون ظهر الدين الصحيح دين المسيح ؛ويذمون دين الإسلام وأهله ومعهم أواني فيها خمر لا يمرون على باب مسجد إلارشوا عنده خمرا وقماقم ملأا خمرا يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم ؛

ويامرون كل من يجتازون به فيالذقة والأسواق من المسلمين أن يقوم لصليبهم ؛ ووقف خطيبهم إلى دكة دكان في عطفة السوق فمدح دين النصارى وذم دين الإسلام وأهله فإنا لله وانا إليه راجعون ؛ ثم إنهم دخلوا الجامع بخمر فلما وقع ذلك إجتمع قضاة المسلمين والشهود والفقهاء فدخلوا القلعة يشكون هذه الحال إلى إبلسيان زعيم التتار؛ فأهينوا وطردوا وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم "

.. ..

- كان هذا هو الوضع في دمشق ولم يكتف بذلك كتبغا بل أمر أن تحتل فلسطين ؛فأرسل فرقة من جيشه إحتلت نابلس ثم اخترقت كل فلسطين واحتلت غزة ؛ ولم تقترب بالطبع الجيوش التترية من الإمارات الصليبية المنتشرة في فلسطين وهكذا قسمت فلسطين بين التتار والصليبيين.

بهذا الإحتلال الأخير لفلسطيني كون التتار قد أسقطوا العراق بكامله وأجزاء كبيرة من تركيا وأسقطوا أيضا سوريا بكاملها ولبنان ثم فلسطين كل ذلك في عامين فقط من سنة ٦٥٦ إلى سنة٦٥٨هـ ووصل التتار في فلسطين

إلى غزة وأصبحوا على بعد ٣٥ كم فقط من سيناء وبات معلوما للجميع أن الخطوة التالية للتتار مباشرة هي إحتلال مصر.

وبدأ التتار يوجهون انظارهم تلقاء مصر.. ولكن الله عز وجل قيض للعالم الاسلامى عبدا من عباده شاء الله ان يكسر به شوكة التتار وهو سيف الدين محمود بن ممدود رحمه الله او المملوك قطز كما شاع على السن الناس.

تسلطن بعد أن خلع الملك المنصور علي ابن الملك المعز أيبك في يوم السبت ١٧من ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ- ١٩٥٩م، بعد أن تفاقم خطر التتار، وأصبحت مصر مهددة بغزوهم الوشيك.

وكانت مصر على إثر وفاة ملكها الصالح، ومقتل ولده الملك المعظم قد رفعت على عرشها امرأة هي: شجرة الدر -أرملة الملك الصالح-، فكانت أول ملكة، كما كانت آخر ملكة اعتلت عرش مصر الإسلامية. وأقيم للسلطنة نائب قوي، هو الأمير عز الدين أيبك -كبير المماليك البحرية-، ليعاون شجرة الدر في تدبير الأمور، وبالرغم مما أبدته شجرة الدر من حزم وبراعة في تسيير أمور الدولة،

وتصفية الموقف مع الصليبيين وإجلائهم عن مصر فقد كان جلوس امرأة على عرش مصر نذيراً بوقوع الفتن والاضطرابات، حيث أبى معظم الأمراء أن يحلفوا يمين الطاعة للملكة الجديدة،لذلك رأت شجرة الدر أن تتزوج من الأمير عز الدين أيبك، فلما لم تفلح هذه الخطوة في تهدئة الأمور رأت أن تتنازل عن العرش لزوجها، فتولى الأمير عزالدين أيبك عرش مصر باسم الملك المعز، وذلك في آخر ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ١٢٥٠م، وحكم مصر زهاء سبع سنين.

وكانت شجرة الدر وراء زوجها تعينه في تصريف الأمور، حتى دب الخلاف بين الزوجين، لاعتزام المعز الزواج ثانية، فدبرت شجرة الدر مؤامرة لاغتياله، ونفذتها في بيتها يوم الثلاثاء٢٣ من ربيع الأول من سنة ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧م.

وتولى الملك المنصور علي ابن الملك المعز أيبك، المُلْكَ يوم الخميس ٢٥ من ربيع الأول من سنة ٦٥٥ هـ١٢٥٧م، وكان عمره ١٥ سنة، فلم يكن قادراً على تحمل أعباء الملك في ظروف حرجة للغاية؛ إذ كانت البلاد مهددة بالغزو التتري، لذلك خلعه قطز، وتولى الملك مكانه سنة ٦٥٧ هـ - ١٢٥٩م، وكان هدفه: حرب التتار، وإنقاذ مصر خاصة والبلاد العربية عامة من خطر غزوهم الكاسح.

الموقف العام

ولعل في عرض الموقف العام العصيب التي كانت مصر ودول العالم الإسلامي تجتازه من جراء الغزو التتري الجارف ما يبرز مبلغ التضحية التي بذلها قطز في قبوله تحمل المسؤولية حينذاك، في بلد مهدد بغزو خارجي ساحق، وارتباك داخلي فظيع، وقد كانبإمكانه أن يستمتع بالسلطة الفعلية بالرغم من بقاء الملك المنصور في الحكم دون أن يكون المسؤول الأول في مثل تلك الظروف الحرجة، ولكنه آثر المصلحة العامة على مصلحته الشخصية، فقضى أولاً على الارتباك الداخلي، ووضع الأمور في نصابها، ثم وجه همه إلى العدو الخارجي، فاستطاع بأعجوبة خارقة حقًّاإحراز النصر وإنقاذ مصر والبلاد العربية من التتار و قواتهم الضاربة.

ففي سنة أربع وخمسين وستمائة هجرية ١٢٥٦م، مَلَكَ التتار سائر بلاد الروم بالسيف، فلما فرغوا من ذلك،نزل هولاكو بن طولوي بن جنكيز خان كالإعصار على بغداد في صفر من سنة ست وخمسين وستمائة هجرية ١٢٨٥م، ودخلوها دخول الضواري المفترسة، وقتلوا مئات الآلاف من أهلها، ونهبوا خزائنها وذخائرها، وقضوا على الخلافة العباسية،وعلى معالم الحضارة الإسلامية، ثم قتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته وأكابر دولته..

وتقدم التتار إلى بلاد الجزيرة، واستولوا على "حـ ران" و"الرّها" و"دياربكر" في سنة سبع وخمسين وستمائة هجرية ١٢٥٩م، ثم جاوزا الفرات، ونزلوا على"حلب" في سنة ثمان وخمسين وستمائة هجرية ١٢٦٠م، واستولوا عليها وجرتالدماء في الأزقة أنهاراً.

ووصل التتار إلى "دمشق"، وسلطانها الناصر يوسف بن أيوب، فخرج هارباً ومعه أهل اليسار، ودخل التتار دمشق، وتسلموها بالأمان، ثم غدروا بأهلها وفتكوا بهم، ونهبوا وسلبوا ودمروا.

وتعدوا دمشق، فوصلوا إلى "نابلس"، ثم إلى "الكرك" وبيت المقدس، وتقدموا إلى "غزة" دون أن يلقوا مقاومة تذكر، واضطر هولاكو فجأة إلى مغادرة سورية،بعد أن جاءته الأخبار بوفاة أخيه الأكبر "منكوقاآن" في الصين، و بتنازع أخويه الآخرين "قوبيلاي" و"أريق بوكا" ولاية العرش. وقد استثمر التتار حرب الصاعقة، التي تعتمد على سرعة الحركة، كما استثمروا حرب الأعصاب إلى أقصى مدى، فنشروا الذعر والخوف في كل مكان، وحيثما اتجهت قواتهم كانت تسبقهم الأقاصيص عن طغيانهم وقسوتهم ومذابحهم.

موقف أوروبا

فرحت أوروبا النصرانية بانتصار التتار على المسلمين، فقد كانوا من أصدقاء النصارى وفيهم بعض النصارى، ولهولاكو نفسه زوجة نصرانية، فضلاً عن أن القائد الذي ولي أمر سورية عندما غادرها هولاكو كان نصرانياً، كل هذا جعل البابوات وحكام غرب أوروبا ينظرون إلى التتار وكأنهم حلفاؤهم في قتال المسلمين..

الإستعمار

وكما كان الإسلام يفتح البلاد لنشر دعوة التوحيد وإقامة العدل في تلك البلاد كان الإستعمار على النقيض لنهب ثروات البلاد وسفك دماء شعوبها

مصطلح الاستعمار:

الاستعمار لفظة محدثة مشتقة من عَمَر، واستعمره في المكان أي جعله يعمره، ومنه قوله تعالى: [هو الذي أنشأكم في الأرض واستعمركم فيها](هود: ٦١) فالأصل اللغوي يفيد معنى طلب التعمير والسعي لتحقيق العمران، لكن الواقع لا علاقة له بالمعنى اللغوي.

ويعرف الشهابي وحبنكة الاستعمار موافقين لما جاء في المعجم الوسيط بأنه استيلاء دولة أو شعب على دولة أخرى وشعب آخر لنهب ثرواته وتسخير طاقات أفراده والعمل على استثمار مرافقه المختلفة.

و الاستعْمارُ إخضاع جماعة من الناس لحكم أجنبيّ ،و يُسمّى سكان البلاد اَلمستَعْمَرين، وتُسمّى الأراضي الواقعة تحت الاحتلال البلاد المُستعمَرة. ومعظم المستعمَرات مفصولةٌ عن الدولة المستعمرة (بكسر الميم الثانية) ببحارٍ ومحيطات. وغالباً ما ترسل الدولة الأجَنبية سكانًا للعيش في المستعمرات وحكمها واستغلالها مصادر للثروة. وهذا ما يجعل حكّام المستعمرات منفصلين عِرقيًا عن المحكومين.

وهذه التعاريف تشمل أنواع مختلفة من الاستعمار لا تختلف عن بعضها إلا بالأسماء وبعض الأشكال، فمن أشكال الاستعمار أن تضع دولة ما أخرى تحت حمايتها وإشرافها وتسلبها من حريتها بقدر ما يتناسب مع قوة هذه الدولة وضعف تلك، وفي الأغلب يكون للدولة المحمية شبه سيادة داخلية

يمارسها حكام وطنيون تديرهم الدولة المستعمرة من خلف ستار.

وللاستعمار تاريخٌ طويلٌ يعود إلى العصور القديمة. فالرومان، مثلاً، حكموا عددًا من المستعمرات في أوروبا والشرق الأوسط وإفريقيا. وبدءاً من القرن الخامس عشر الميلادي، بدأت الدول الأوروبية في بناء إمبراطوريات استعمارية ضخمة في كلٍّ من إفريقيا وآسيا وأمريكا الشمالية، وكذلك في أمريكا الجنوبية. ومن أهم القوى الاستعمارية الأوروبية، فرنسا، بريطانيا، هولندا، البرتغال، أسبانيا . وبحلول سبعينيات القرن العشرين، تَفكَّكت معظم هذه الإمبراطوريات .

وتُعزى أهمية المستعمَرات للعوائد الاقتصادية التي تُدِرُّها .فالدول تحصل على سلعٍ نادرةٍ مثل الماس والتوابل من هذه المستعمرات. كما تسعى الدول إلى توسيع صناعاتها وتجارتها مع المُستعمرات لأنَّ هذه المُستعمرات قد تكون:

١- مصدرًا للمواد الخام

٢- سوقًا للسلع

٣- مصدراً لسلع قابلة للتصدير لبلدان أخرى

٤- مناطق استثمارية .

وبالإضافة إلى ذلك، فإنَّ الدول تستخدم المستعمرات أيضًا لزيادة مكانتها وسمعتها بين الأمم، كما تستفيد من مواقعها الحيوية لأغراضِ عسكرية، أو تستفيد منها لنشر دينها ومذهبها .

ويعتقد بعض الناس أن الاستعمار لم يَمُت، فهم يُعرَفون الاستعمار بأنه أيّ شكلٍ من أشكال الظلم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي من قبل جماعة من الناس لجماعة أخرى، وذلك على أساسِ عرقي. ويستخدم آخرون

مصطلح الاستعمار الجديد لتعريف السيطرة غير المباشرة للدول الغنية على الدول النامية. وبحسب تفسير هذه المدرسة، فإن الدول النامية تعتمد على الدول الغنية في مجال استثمار رأس المال، مع أن هذا الاعتماد يدفع الدول الغنية إلى الاستفادة من الدول النامية.

ومن أمثلة هذا الشكل للاستعمار ما فعلته فرنسا في تونس حيث وقعتا معا معاهدة حماية في ١٨٨١/٥/١٢م، ثم جددت في ١٨٨٣/٦/٨م، وبموجب بنود هذه الحماية فقدت تونس سيادتها الخارجية وحقها في التمثيل الدبلوماسي المستقل، كما سلبت حق إبرام المعاهدات الخارجية، وعينت فرنسا آلاف الموظفين يرعون مصالحها يرأسهم المقيم العام. وما حصل في تونس كررته فرنسا في مراكش بموجب معاهدة ١٩١٢/٣/٣٠م وفعله الإنجليز في مصر خلال احتلالهم لها بين عام ١٩١٤ - ١٩٢٢م.

وبعد الحرب العالمية الأولى ظهر شكل جديد من أشكال الاستعمار أقرته عصبة الأمم المتحدة التي تكونت حينذاك كمنظمة أممية لنشر السلام ومنع الحروب، فقد كرست عصبة الأمم نوعاً جديداً من الاستعمار وهو الانتداب، حيث ورد إجازته في المادة ٢٢ لميثاق عصبة الأمم التي اعتبرته طريقة للنهوض بالشعوب القاصرة والأخذ بيد هذه الأمم لتكون قادرة على تسيير أمورها، لكنه في الحقيقة كان مظهراً للاستعمار ووسيلة لامتصاص خيرات الشعوب.

وفيما عدا هذين الوجهين أسفر الاستعمار عن وجهه الكالح، فأعلن عن ضمه لبعض الدول إلى مستعمراته كما فعلت فرنسا بالجزائر.

تاريخ الاستعمار:

الاستعمار القديم. تُعدّ الإمبراطوريةِ الرومانية أكبر دولة استعماريةِ في التاريخ القديم، فقد بدأت روما توسّعَهَا فيما وراء البحار نحو عام ٢٦٤ق .م. وفي أوج مجدها، كانت الإمبراطورية الرومانية تمتد من شمالي بريطانيا إلى البحر الأحمر والخليج العربيّ. وفي عام ٤٧٦م، سقطت تلك الإمبراطورية.

بدايات الاستعمار الأوروبي. بدأت البرتغال وأسبانيا في القرن الخامس عشر الميلادي بإرسال مستكشفين للبحث عن طرق بحرية جديدة إلى الهند والشرق الأقصى، حيث كان المسلمون يهيمنون على الطرق البرية ويسيطرون على التجارة بين آسيا وأوروبا. وكان الأوروبيون يطمحون إلى السيطرة على تلك التجارة، فقد نجحت البرتغال في السيطرة على البرازيل، وأنشأت مراكز تجاريةً في كل من غربي إفريقيا والهند وجنوب شرقي آسيا. كما نجحت أسبانيا في السيطرة على أجزاء مما يعرف اليوم بالولايات المتحدة، واحتلت معظم أجزاء أمريكا اللاتينية.

وفي القرن السابع عشر الميلادي، انتزع الهولنديون والبريطانيون التجارة الآسيوية من البرتغاليين، وذلك بعد أن نجحوا في احتلال جزر الهند الشرقية الهولندية (إندونيسيا) وأصبح للإنجليز نفوذٌ قويّ في الهند. وتمكَّن الهولنديون والبريطانيون والفرنسيون من احتلال بعض المناطق في أمريكا اللاتينية .

وبالإضافة إلى ذلك، احتل عددٌ من المهاجرين البريطانيين والفرنسيين بعض المناطق في كندا. كما أنَّ الهولنديين والبريطانيين والفرنسيين ادَّعوا ملكية بعض أجزاء من الولايات المتحدة. وفي نهاية المطاف، تمكن الإنجليز من إنشاء ثلاث عشرة مستعمرة في تلك البلاد. ودخل البريطانيون والفرنسيون في صراعٍ على أمريكا الشمالية سُمّي حروب الهنود والفرنسيين الأربع، واستمر ذلك الصراع من عام ١٦٨٩م حتى ١٧٦٣م. وفي آخر تلك الحروب،

انتصرت بريطانيا ونجحت في احتلال معظم الممتلكات الفرنسية في أمريكا الشمالية

الاستعمار الحديث:

نجحت المستعمرات الثلاث عشرة في الحصول على استقلالها من بريطانيا في الثورة الأمريكية (١٧٧٥ – ١٧٨٣م). وحصلت معظم المستعمرات في أمريكا اللاتينية على استقلالها في القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. ولم يتطوّر الاستعمار الأوروبي في بداية القرن التاسع عشر مع أنَّ بريطانيا ضَمّت عددًا من المستعمرات في أستراليا، وقد كانت نيوساوث ويلز أول مستعمرة أسترالية تم تأسيسها في القرن الثامن عشر. وكان معظم المستوطنين الأوائل من السجناء الذين أبعدوا إلى أستراليا عقاباً لهم. وقد أوقف إرسال السجناء إلى تلك المناطق في منتصف القرن التاسع عشر.

وبحلول ذلك التاريخ، أنشئت مستعمراتٌ جديدة في كوينزلاند وفان ديمن زلاند (تسمانيا حالياً)، وغربي أستراليا وجنوبيها، وفكتوريا. أما نيوزيلندا، فإنها لم تصبح مستعمرة بريطانية إلا عام ١٨٤٠م. وبحلول عام ١٨٥٠م، كان هناك الكثيرون ممن يعتقدون أن المستعمرات لا تساوي تكاليف إنشائها وإدارتها. وساعدت الثورة الصناعية وظهور القومية الأوروبية، على تطور الاستعمار في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في كلٍّ من إفريقيا وآسيا. ففي هاتين القارتين، سعت الدول الصناعية إلى الحصول على المواد الخام لمصانعها، والأسواق لمنتجاتها الصناعية، كما سعت إلى هاتين القارتين بوصفهما مناطق استثمار جديدة، وللبحث عن أقطار جديدة تقويها في منافستها للأقطار الأوروبية الأخرى .

واقتسم إفريقيا كلٌّ من بلجيكا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا والبرتغال وأسبانيا. ولم يبق من المناطق الإفريقية مستقلة إلا إثيوبيا وليبيريا. أما

بريطانيا، فقد سيطرت بدورها على الهند وبورما وما يُعرف الآن بماليزيا. كما احتلت فرنسا الهند الصينية. وكانت الهند الصينية الفرنسية تضم كلاً من كمبوتشيا (كمبوديا) ولاوس وفيتنام. وتوسّع الهولنديون في الهند الصينية الشرقية. أما الولايات المتحدة، فقد احتلت الفلبين. وكان هناك تنافسٌ كبير بين فرنسا وألمانيا وبريطانيا وأسبانيا والولايات المتحدة للسيطرة على جزر المحيط الهادئ. وفي نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أنشأت اليابان إمبراطوريةً ضمّت كوريا وتايوان. وخلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥ م)، وسّعت اليابان إمبراطوريتها على حساب بعض المستعمرات الصغيرة التي كانت تسيطر عليها دول غربية. إلا أنَّ هذه الإمبراطورية سقطت بعد أن هُزمت اليابان عام ١٩٤٥م. وتحولت هذه المناطق مرةً أخرى إلى مستعمرات غربية.

والواقع أنَّ هناك ثلاثة عوامل أسهمت في إنهاء عصر الاستعمار في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين؛ أولها أنَّ القوى الأوروبية قد أُضعفت في الحرب وبدأ عددٌ كبيرٌ من الناس يعارضون الاستعمار لأسباب أخلاقية،كما أنَّ الحركات القومية والمطالبة بحقِّ تقرير المصير قد زادت ازدياداً كبيراً في مستعمرات إفريقيا وآسيا. وقد حصلت بعض هذه المستعمرات على استقلالها بشكل سلمي، لكنَّ مستعمرات أخرى لم تحصل على استقلالها إلا عن طريق الحرب. وكانت البرتغال من أواخر الدول التي منحت مستعمراتها الاستقلال في منتصف السبعينيات .

الاستعمار المعاصر:

لا تزال كل من فرنسا وبريطانيا والبرتغال وأسبانيا تحتفظ ببعض مستعمراتها إلى اليوم، ولكنها لا تسميها مستعمرات. وعلى سبيل المثال، فإن بريطانيا تُسمي هذه المناطق البلاد التابعة. كما أنَّ الولايات المتحدة

تحكم بعض المناطق البعيدة، مثل: ساموا الأمريكية وغوام وعددًا من الجزر في المحيط الهادئ، وكذلك بورتوريكو وفيرجين آيلاندز الأمريكية. كما لا تزال إسرائيل تلك الدول التي أقامتها الصهيونية مدعوية من القوى العالمية تحتل و تستعمر أرض فلسطين العربية منذ عام ١٩٤٨م

رؤية تاريخية للاستعمار:.

وقد بدأ الاستعمار الغربي للعالم مع بداية عصور النهضة في أوربا حيث استفاقت أوربا على وقع طبول الإصلاح الديني والسياسي في القرن الخامس و السادس عشر .

ومنذ أفاقت أوربا بدأت تحركها للإطباق على العالم الإسلامي، فانتشرت المراكب الاستكشافية تجوب البحار بحثاً عن تحقيق أهداف الاستعمار المختلفة الدينية والسياسية والاقتصادية .

وفي عام ١٤٩٩م توصل فاسكودي جاما إلى طريق رأس الرجاء الصالح، فوصل البرتغاليون إلى الشواطئ الهندية بعيداً عن المرور في الأراضي الواقعة في سلطة الخلافة العثمانية.

وشرع البرتغاليون يؤسسون مستعمرات ومراكز تجارية في أماكن مختلفة من السواحل التي وصلوا إليها، ولم يكد النصف الأول من القرن السادس عشر ينقضي حتى كان البرتغاليون قد أحكموا السيطرة على شواطئ شرق أفريقيا وغربها إضافة إلى شواطئ الخليج وفارس والهند.

وفي عام ١٦٠٠م أنشئت بريطانيا أول جهاز استعماري لها تحت مسمى شركة الهند الشرقية البريطانية، ومثله صنعت فرنسا عام ١٦٦٤م فأنشئت ما أسمته بشركة الهند الشرقية الفرنسية، وبدأ الصراع والتنافس بين

الدولتين، وانتهى بانتصار الإنجليز عام ١٧٧٥م (١١٧١هـ) وخروج فرنسا من الهند والصين.

وفي عام ١٧٩٨م (١٢١٣هـ) وصل نابليون يقود الحملة الفرنسية على مصر ثم حاول السيطرة على بلاد الشام، فغادر وهو يحمل أدراج الخيبة لكثر من قتل من جنوده هناك، ثم ما لبث أن عاد إلى فرنسا ولحقته جيوشه عام ١٨٠١م.
وفي عام ١٨٢٧م أعلن الملك شارل العاشر اعتزام فرنسا إنشاء مستعمرة ذات شأن في شمال أفريقيا، وزحفت الجيوش الفرنسية لاحتلال الجزائر عام ١٨٣٠م، واستتب الوضع لهم عام ١٨٥٧م وهو نفس العام الذي قضت فيه بريطانيا على الإمارة الإسلامية المنغولية في الهند، وقد ألحقت فرنسا الجزائر بها عام ١٨٨١م، وهي نفس السنة التي أعلنت فرنسا وضعها تونس تحت الحماية الفرنسية بموجب ميثاق باردو، ثم السنغال ومدغشقر عام ١٨٨٢م، في عام ١٨٨٧م (١٢٩٥هـ) وقع مؤتمر برلين لاقتسام مواقع النفوذ في الوطن العربي. وتوالى بعد ذلك سقوط البلاد العربية والاسلامية في قبضة الاستعمار.
فسيطر الفرنسيون على المغرب سنة ١٩١٢م، وعلى سورية سنة ١٩٢٠م. وأما الإيطاليون فاحتلوا الصومال وأريتريا عام ١٨٨٧م، وزحفت إيطاليا لاحتلال الساحل الليبي عام ١٩١٤م، وأكملت الاحتلال عام ١٩١٤م. فيما احتلت انجلترا مصر ووضعتها تحت الحماية عام ١٨٨٢م، وكانت قد احتلت بلاد البنغال عام ١٧٥٧م، والبنجاب عام ١٨٤٩م، ثم احتلت نيجيريا عام ١٨٥١م. وفي عام ١٨٩٨م احتلت بريطانيا السودان ثم العراق ١٩١٩م، ثم الأردن عام ١٩٢٠م.

وفي المشرق الإسلامي انقض الروس الأرثوذوكس على بلاد المسلمين فأخذوا ما يحاذيهم منها، وضموه إلى بلادهم، ففي ١٦٧٠م دخل الروس بلاد الأورال، وأحكموا السيطرة على مسلميها، وفي عام ١٨٥٩م ضمت روسيا طشقند، ثم القوقاز عام ١٨٦٤م، ثم بخارى عام ١٨٨٢م، فيما دخلت بلاد

التركستان تحت سيطرة الروس عام ١٨٨٤م.

وقد استمرت السيطرة الروسية على بعض هذه البلاد إلى يومنا هذا فيما نجت بلاد أخرى، وشكلت حكومات مستقلة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩٠م .

فيما تحررت البلاد الإسلامية جملة من الاستعمار الفرنسي والإنجليزي والإيطالي (العسكري) في أواسط القرن العشرين .

اسباب الاستعمار:.

١- ازدياد عدد السكان، فكان من الضروري البحث عن اماكن جديدة لهذا الفائض السكاني وخاصة في الدول المتخلفة ثقافياً وتكنولوجياً، واعتبرت هذه الهجرة علاج شافي للفقر، كما ادت هذه الهجرة الى اشتباك بين المهاجرين وبين السكان الاصليين للمستعمرات.

٢- الحاجة للأسواق ومصادر مواد الخام لازدياد الانتاج الصناعي في اوروبا، مما اضطر الدول للتفتيش عن اسواق جديدة خاصة للمستعمرات التي لم تطور فيها الصناعات.

٣- تطور طرق المواصلات البرية والبحرية، خاصة بعد شق قناة السويس وقناة بنما

٤- ظهور دولتين جديدتين هما ايطاليا والمانيا، ولم يكن لهاتين الدولتين مستعمرات في الخارج، لذا اخذت كل منهما تسعى للسيطرة على مستعمرات جديدة لبيع بضائعها

٥- ظهور افكار جديدة تؤمن بأن على اوروبا ان تنقل الحضارة الموجودة فيها الى الشعوب المتأخرة في افريقيا واسيا والشرق الاقصى واعتبر اصحاب هذه الفكرة على ان الرجل الابيض نقل هذه الحضارة عن طريق الاستعمار ولو بالقوة

مؤتمر برلين

عقد ١٨٨٥ في برلين بالمانيا بدعوة من بسمارك ، وذلك لحل مشكلة الكونغو القائمة بين فرنسا وبلجيكا ، ثم ارادة الدول الاوروبية الاستعمارية بوضع القواعد وتحديد للنشاط الاستعماري ، وبسبب رغبة المانيا بتوسيع استعمارها في افريقيا ، وتعود اهمية هذا المؤتمر لعدد الدول التي اشتركت فيه ثم عقده في المانيا ، واقر المؤتمر:

١- تحديد المناطق الاستعمارية حتى عام ١٨٨٥

٢- يجب على كل دولة ان تحتل المنطقة المرغوب فيها فعلياً بعد التأكد من انها غير تابعة لغيرها من الدول المستعمرة

٣- تقرر ان الحق لكل دولة لها نفوذ على السواحل الافريقية بالتغلغل داخل افريقيا

٤- بالنسبة لمنطقة الكونغو تقرر انها لبلجيكا بشرط ان تسمح للدول الاخرى بحرية التجارة فيها، وعلى ان تعمل لتحسين وضع سكانها المحليين.

هكذا ادى هذا المؤتمر الى زيادة التنافس الاستعماري.

الاستعمار الاوروبي في افريقيا

اسباب الاهتمام الاوروبي في افريقيا:

١- بسبب التجارة.

٢- لإقامة الاستراحات البحرية لخدمة سفنها التجارية بطريقها الى الهند وآسيا.

٣- اكتشاف الانهر المهّمة في افريقيا مثل النيل النابع من بحيرة فكتوريا، واكتشاف المواد الخام

٤- ازدياد اهمية بعض الدول الافريقية ، خاصة مصر بعد حفر قناة السويس التي قصّرت الطريق الى الهند والتي ربطت البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط ، وبدأت مطامع الدول الاوروبية في مصر وخاصتهً فرنسا التي اقنعت الخديوي اسماعيل لحفر قناة السويس حيث وفرت فرنسا الآلات لذلك مقابل ان توفر مصر الايدي العاملة.

كانت الفكرة منذ عهد محمد علي باشا الذي رفض فكرة المهندس الفرنسي ديليسبس لحفر القناة ، قال محمد علي جملته المشهورة " لا اريد جعل مصر بسفوراً ثانياً " ويعني لا يريد قلب مصر الى مسألة شرقية ثانيه للتنافس الاستعمار الاوربي ، حيث اجل المشروع لعهد الخديوي الذي اقنعته فرنسا بامتلاك القناة بعد انتهاء الاستعمار البريطاني ، حيث مات الكثير من العمال المصرين الذين قاموا بحفر القناة ، ثم خسارة مصر اموال كثيرة بسب الاحتفالات لفتح القناة ، مما ادى الى وقوعها في ديون بسب ذلك مما اضطرها الى بيع اسهم القناة بثمن بخس ، ولم تكتفي بريطانيا بذلك وبدأت بالتفكير في احتلال مصر وجاءت الفرصة عندما قامت الثورة العربية ، حيث هزمت بريطانيا قوات عرابي باشا في معركة التل مدعيه ان الخديوي طلب منها ذلك ، حيث بدأ احتلال مصر الفعلي حتى اصبحت

محمية بريطانية (انتداب) حيث قام الشعب المصري بمقاومة الاحتلال. ظهر الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل على امل تحرير مصر وبعدها اتى محمد عبده وثورة سعد زغلول. وكانت اخر مقاومات مصر للاحتلال عام ١٩٥٢ ضد الملك فاروق ليطرد من مصر ليصبح محمد نجيب اول رئيس للجمهورية العربية المصرية ، ثم جمال عبد الناصر تحت اسم الناصرية فأمم قناة السويس وطرد الانجليز وقاوم الهجوم الثلاثي.

٥- مشروع سيسل رودوس الذي يقضي باقامة امبراطورية بريطانية داخل افريقيا.

٦- قرارات مؤتمر برلين.

احتلال ايطاليا لليبيا

كانت ليبيا تحت السيطرة العثمانية ، لكن بعد ضعفها سيطرت القبائل على ليبيا ، وكان من اهم زعماء تلك القبائل: "العائلة السانوسية"

احتلت ايطاليا ليبيا عام ١٩١١ ، فعارضت الحكومة التركية وحاولت توسيط الدول الكبرى لكن دون جدوى. وبدأت المقاومة ضد ايطاليا ، وكانت على رأس تلك المقاومة " الحركة السانوسية " التي ترأسها محمد بن علي السانوسي ، ونجحت الحركة بتوحيد القبائل المتنازعة داخل ليبيا وتوّحدوا مع الاتراك ضد الاحتلال واستمروا بالمقاومة حتى الاستقلال.

كذلك اشتهر عمر المختار الذي قاوم من اجل ليبيا ، حتى أعدم في النهاية.

حصلت ليبيا على الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية ، وحكم فيها محمد ادريس السانوسي لمدة ١٧ عام. ولكن قام انقلاب ضده في عام ١٩٦٩ على يد معمر القذافي.

محاولة الاستعمار الايطالي في الحبشة

كانت الحبشة دولة ضعيفة ، لذلك فكّرت ايطاليا باحتلالها ، ولكن ايطاليا هزمت في معركة " ادوا " وبذلك فشلت المخططات الايطالية في احتلال الحبشة ، وكان ذلك بمثابة ضربة للاستعمار الايطالي ، وخاصة وانها هزمت على يد دولة ضعيفة فأثر ذلك على مكانة ايطاليا.

حاولت ايطاليا ان تسيطر على الحبشة مرة اخرى بعد الحرب العالمية الاولى ، ولكن هذه المرة واجهت المعارضة من عصبة الامم ، فانسحبت من العصبة عام ١٩٣٦.

اسباب تفكير المانيا في الاستعمار داخل افريقيا

١- كانت تريد تقوّية نفسها ، وكان جزء من هذه القوّة هو الاستعمار

٢- البحث عن مصادر لمواد الخام ، واسواق جديدة

٣- سياسة بسمارك وهي تأسيس المستعمرات في افريقيا حيث استعر جنوب غربي افريقيا (الكاميرون ، طنجة) وبعد اقالة بسمارك استمر ولهلم الثاني بنفس السياسة الاستعمارية.

الاستعمار الفرنسي في افريقيا :

المشروع الاستعماري الفرنسي في افريقيا:

١- توحيد المستعمرات الفرنسية في شمال افريقيا مع احتلال المناطق التي في لم تُحتل في الشمال مثل المغرب ، ثم توحيدها مع المستعمرات الفرنسية في الغرب ، وذلك عن طريق السيطرة على وسط افريقي مثل: chadوالسودان.

ان معظم الدول الاوروبية عارضت هذا المخطط بريطانيا رأت في هذا المخطط تهديد لمخططها الاستعماري , ايطاليا :حيث يتعارض هذا المخطط مع استعمارها في شمال افريقيا المانيا: ايدت ايطاليا ضد فرنسا لانها ارادت توريط فرنسا في مشاكل بسبب العداء القائم بينها وبين فرنسا.

هل نجحت فرنسا في تحقيق مخططها هذا ؟

احتلت فرنسا chad و لكنها فشلت في احتلال جنوب السودان لأن بريطانيا ضدها هناك، وهو بما سمي بنزاع فاشودا، فقد تجمع الفرنسيون ومعهم ٣٠٠ جندي باتجاه السودان كما خرجت قوات البريطانية الى نفس المكان وقد حذرت بريطانيا فرنسا ولكن فرنسا لم تلفت انظاراً الى هذا الانذار، فحشدت بريطانيا جيشها فتوجهت نحو السودان ووصل الفرنسيون الى نفس المكان (فاشودا): هو ملتقى هام في داخل السودان على الساحل الغربي للنيل الابيض ، ورفعوا عليها العلم الفرنسي ووصلت القوات البريطانية بعد ان انتصرت على الحركة المهدية. ومن هنا بدأ الطرفين بالاستعداد للحرب، اخذت الجماهير في كل من الدولتين تطالب حكومتها بعدم التراجع واعتبرت هذه المسألة تتعلق بالكرامة.
كان من الواضح عدم استطاعة فرنسا مواجهة الاسطول البريطاني القوي بسبب الانشقاق الداخلي لوقوع قضية درايفوس فقررت اخلاء المكان، فانتقدت الجماهير الفرنسية قرار الحكومة هذا، وزاد عدائهم لبريطانيا. ان تراجع فرنسا الى التقارب بين الدولتين في المستقبل.

احتلال فرنسا للجزائر

اسباب احتلال فرنسا للجزائر:

١- ارادت فرنسا احتلال الجزائر كتعويض لها على ما فقدته من مستعمرات

في امريكا والهند

٢- رغبة شارل العاشر بإحراز نصر خارج اوروبا ليخفف من كراهية الشعب الفرنسي له

٣- رغبة شارل في كسب ولاء الكنيسة الكاثوليكية عن طريق التوسع في البلاد الاسلامية لان هذا يعتبر امتداداً للحروب الصليبية.

٤- رغبة فرنسا بتحويل الجزائر الى سوق استهلاكية لمتوجاتها.

غزو الجزائر واحتلالها:

حدث ذلك في قصر " القصبة " حيث ان قنصل فرنسا degel ادعى ان الداي حسين الجزائري لطمة على اثر جدال بينهما.

اتخذت فرنسا هذا سبباً في احتلال الجزائر وظنت انها مهمة سهلة، فارسلت سفنها الحربية لمحاصرة الجزائر وبعثت مبعوثاً للداي طالبة منه الاستسلام لكنه رفض، فقامت فرنسا بضرب الجزائر وانزلت المشاة، واحتلت الجزائر.

بدأت المقاومة الشديدة خاصة بعد ظهور عبد القادر الجزائري الذي واصل الكفاح، وبدأ العمل على توحيد الجزائريين تحت لواء واحد ثم تحريض تونس والمغرب لاقامة جبهة موحدة لطرد الفرنسيين من الجزائر ومنعهم من احتلال تونس والمغرب، مما ادى الى غضب الفرنسيين على عبد القادر الجزائري.

كان من الصعب على الجزائري مقاومة الاحتلال حتى قامت الثورة الجزائرية " ثورة المليون شهيد " التي اشتهر بها احمد بن بيلا.

اما اسباب نجاح الثورة:

- دعم الدول العربية المستقلة للثورة الجزائرية خاصة مصر في عهد جمال عبد الناصر الذي هدف لتوحيد الامة العربية وتحريرها.

- تأييد هيئة الامم لمطالب الجزائر للاستقلال.

- عدم قدرة فرنسا لتحمل الخسائر (جنود، اسلحة، مال)
- معارضة الرأي العام الفرنسي لبقاء فرنسا في الجزائر.

- قوة الجزائريين في الثورة وحسن تنظيمها، وظهور الشخصيات المهمة امثال احمد بن بيلا ثم مدى تضحية الشعب الجزائري.

احتلال فرنسا لتونس

حاول بعض حكام تونس النهوض ببلادهم، ولكن الاحتلال الفرنسي منع ذلك، وجعلت تونس تعيش في متاهات الاحتلال

اسباب احتلال فرنسا لتونس:

١- رغبة فرنسا بالسيطرة على تونس كمنطقة استراتيجية مهمة.

٢- احتلالها للجزائر سهل عليها احتلال تونس.

سيطرة فرنسا على تونس مما اثار غضب الدولة العثمانية التي لم تستطع فعل شيء واكتفت بالاحتجاج والاتصالات الدبلوماسية، نشأت في تونس حركة تحرر بزعامة " الحبيب بورقيبا " مما اضطر فرنسا منح الاستقلال لتونس عام ١٩٥٦.

احتلال فرنسا للمغرب

اسباب احتلال فرنسا للمغرب:

١- احتلالها للمغرب يساعدها على حماية كيانها في الجزائر.

٢- اعتبرت مراكش جزء من المغرب العربي التي ارادت فرنسا ان تستولي عليه.
٣- رغبتها في استغلال ثروات المغرب الطبيعية

٤- بسبب مساعدة الكثير من لمراكشيين لمحمد الجزائري في ثورته حيث حاصروا ميناء طنجة ، وضربوها بالقنابل

فشلت فرنسا باحتلال مراكش ، والسؤال لماذا ؟

لان معظم الدول الاوروبية كانت تتجه لنفس الاتجاه ، (اسبانيا، انجلترا، المانيا، ايطاليا) تلك الدول التي كانت لها مصالح في مراكش.

فأرادت فرنسا الاتفاق مع تلك الدول قبل احتلالها لمراكش.

اتفقت فرنسا مع ايطاليا ، بأن تعطي فرنسا ايطاليا الحرية بالسيطرة على ليبيا مقابل اعتراف ايطاليا بسيطرة فرنسا على مراكش.

السياسات الاستعمارية: .

قام عددٌ من المُستعمرين بفرض أسلوب حياتهم على المستعمرات .، فقد كانوا يؤمنون بتدنّي مستوى ثقافة المناطق المُستعمَرة قياسًا إلى ثقافتهم. وحاول بعض هؤلاء الحكام أن يُغيّروا من ديانة المناطق التي يَستعمرونها، كما عَمَدوا إلى جعل لغتهم الأجنبية اللغة الرسمية في تلك المستعمرات. وفي عدد من الحالات، حاول الحكام المستعمرون أن يحلوا ثقافتهم الخاصة محلَّ الثقافة المحلية. وساعد الحكام المستعمرون في تطوير وتحديث المستعمرات عن طريق إنشاء خطوط السكك الحديدية والطرق البرية والمصانع، وكذلك عن طريق إنشاء المدارس والمستشفيات. لكنَّ القوى الاستعمارية كانت تحرص على تَبني سياسات اقتصادية وسياسية مفيدة للاستعماريين أنفسهم .

السياسات الاقتصادية :

عَمدت الدول الاستعمارية إلى الاستفادة من العوائد الاقتصادية للمستعمرات. وفي العصور القديمة، كانت هذه القوى تزيد من ثروتها عن طريق السّخْرة (العمل بدون أجر)،كما فُرضت الإتاوات على الشعوب المُستعمَرة بدعوى حماية هذه الشعوب من الدول الأخرى. وفيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين، ظهر نظام اقتصادي في أوروبا يُدعى(المركنتالية) أي النزعة التجارية. وفي ظلِّ هذا النظام، قامت القوى الأوروبية بتشكيل اقتصاد المناطق المستعمرة حسب حاجاتها التجارية. فعلى سبيل المثال، سنّت بريطانيا عددًا من القوانين في القرن السابع عشر لتقوية سيطرتها على اقتصاد مستعمراتها الثلاث عشرة في أمريكا الشمالية. وقد كان بعض هذه القوانين يحصر التجارة بين المستعمرات البريطانية مع التجار البريطانيين فقط، كما كانت تشترط استخدام سفنٍ بريطانية فقط. أما القوانين الأخرى، فقد قلّصت من

الصناعة في المستعمرات لأنَّ البريطانيين كانوا يريدون أن تعتمد المستعمرات على السلع المصنَّعة في بريطانيا. ولتشجيع الأمريكيين على تصدير السلع التي تحتاج إليها بريطانيا، عمد البريطانيون إلى إعطاء امتيازات تجارية لهذه الصادرات للتجار الأمريكيين. وقد أدارت القوى الأوروبية الأخرى تجارتها بالطريقة نفسها.

وكان الرَق عُنصراَ مهمًا في السياسات الاقتصادية خلال عصر النزعة التجارية. في البداية، عَمَد الأوروبيون في أمريكا الجنوبية إلى تسخير الهنود الحمر للعمل في المزارع الضخمة المنتجة للقطن وغيره. وفي فترةٍ لاحقة، استوردوا الرقيق من إفريقيا .

وفي معظم دول أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، أُلْغيَ الرق في القرن التاسع عشر. كما أن البريطانيين وجدوا منذ منتصف القَرن التاسع عشر أنَّ سياسات النزعة التجارية قد أضرّت ببعض صناعاتهم. ولذلك، بدأت بريطانيا بتطبيق نظام التجارة الحرة بشكلٍ تدريجي نجح في النهاية في إنهاء السيطرة على تجارة المستعمرات. وبحلول عام ١٨٧٠م، كانت معظم القوى الاستعمارية قد حذت حذو بريطانيا في إلـغاء القوانين التي تَحدَّ من حرية التجارة. لكنَّ حرية التجارة لم توقف تطوّر وازدهار الاستعمار في إفريقيا وآسيا. واستمرت المستعمرات في تقديم المواد الخام والأسواق للسلعِ الأوروبية. كما أن مديري المصارف الأوروبيين وصنّاعهم حقّقوا أرباحا من استثماراتهم في المصانع والمناجم والمزارع والطرق الحديدية التي أنشأوها فيما أطلقوا عليه اسم المناطق المتخلِّفة للمحافظة على تلك الاستثمارات.
وبحلول القرن العشرين، كانت معظم القوى الأوروبية قد عادت مرةً أخرى إلى السيطرة على النظم الاقتصادية. إلا أنَّ أدوات السيطرة لم تكن كاملةً كما كانت إبّان مرحلة النزعة التجارية. واليوم، ما زالت المستعمرات القديمة تحتفظ بِصلاَت اقتصادية قوية مع الدول التي كانت تحكمها .

الإدارة السياسية:

اختلفت طرق الحكم في المستعمرات بشكلٍ كبير، فبعض الدول الحاكمة عمدت إلى جعل المستعمرات مستقلةً بشكلٍ كامل على حين أنَّها أعطت دولاً أخرى شيئًا من الحكم الذاتيّ. وإذا نظرنا في سياسات بلجيكا وفرنسا وبريطانيا والبرتغال في كلٍّ من إفريقيا وآسيا، فإننا نجد تباينًا في نظم الحكم.

والواقع أنَّ أكبر مستعمرة بلجيكية في إفريقيا كانت في الكونغو البلجيكي (الكونغو الديمقراطية الآن). وقد حكمت بلجيكا الكونغو منذ عام ١٨٨٥م، وكانت تديرها بشكلٍ مركزيّ من بروكسل (العاصمة البلجيكية). ولم يُشرك البلجيك شعب الكونغو في الحكم، ولذلك فقد حدثت عدة انتفاضات في الكونغو عام ١٩٥٩م، مما اضطر بلجيكا إلى إعطائها الاستقلال عام ١٩٦٠م.

و كانت سياسة الحكم الفرنسي للمستعمرات شبيهة بهذا، فقد كان يتم حكمها بشكلٍ مركزيّ من باريس، وكان المتوقَّع من علْيَة القوم في المستعمرات أن يُصبحوا كالفرنسيين ثقافيًا واقتصاديًا. لكن الفرنسيين لم يكونوا يفكرون في إنهاء استعمارهم .

وفي عام ١٩٤٦م، قامت ثورةٌ في الهند الصينية لم تنته إلا عام ١٩٥٤م، حينما أُجْبِر الفرنسيون على الانسحاب بعد تعرضهم لخسائر جسيمة. وفي عام ١٩٥٤م، قامت ثورة مماثلة في الجزائر، إحدى المستعمرات الفرنسية في إفريقيا، واستمر الجهاد والنضال هناك حتى عام ١٩٦٢م حين انتزعت الجزائر استقلالها. وبِ عد ذلك، مَنحت فرنسا الاستقلال بشكل سلمي لمعظم مُستعمراتها .

أما بريطانيا، فقد حَكمت معظم مستعمراتها عن طريق الوكلاء البريطانيين (والوكيل حاكم عام يكون مقره عاصمة المستعمرة). وخلال استعمارها، أعطت بريطانيا لمُستعمراَتها صلاحيات أوسع في المحاكم المحلية والمجالس

التشريعية والخدمات العامة. فعلى سبيل المثال، أدَّى الهنود دورًا أكبر في إدارة شؤون بلادهم منذ عام ١٩١٨م وحتى عام ١٩٣٩م (فترة ما بين الحربين العالميتين)، وحصلت الهند على استقلالها عام ١٩٤٧م. وكان النجاح الذي حققته الهند، في التحوّل من مستعمرة إلى دولة مستقلة، مثالاً طبقته بريطانيا على مستعمراتٍ أخرى. أما البرتغال، فقد ادَّعت أنَّ مستعمراتها تتمتع بالحكم الذاتي، لكنهاكانت في الواقع، تَسُن التشريعات وتُسير الشؤون الإدارية لمعظم أقاليمها فيما وراء البحار بنفسها.

أعمال الاستعمار:.

وخلال تاريخ الحركة الاستعمارية الغربية للعالم الإسلامي وبقية المستعمرات أظهر المستعمر الغربي صوراً قاتمة كالحة ملؤها الظلم والقهر والاستغلال .

فعلى الصعيد الإنساني ارتكب المستعمرون مجازر بحق الشعوب التي قامت تدافع عن دينها وخيراتها، فقد بلغت أعداد قتلى المسلمين في الهند حتى عام ١٨٨٠م مليون مسلم سقطوا على يد الإنجليز، ومثله كانت الجزائر بلد المليون شهيد .

وكان البرتغاليون قد أحدثوا مجازر عند سيطرتهم على الشواطئ الهندية، ويسجل القائد البرتغالي البوكيرك بفخر بعضاً منه وهو يخاطب ملك البرتغال مهنئاً إياه بالسيطرة على مقاطعة جوا الهندية فيقول: " وبعد ذلك أحرقت المدينة، وأعملت السيف في كل الرقاب، وأخذت دماء الناس تراق أياماً عدة. ... وحيثما وجدنا المسلمين لم نوقر معهم نفساً، فكنا نملأ بهم مساجدهم، ونشعل فيها النار، حتى أحصينا ستة آلاف روح هلكت، وقد كان ذلك يا سيدي عملاً عظيماً رائعاً أجدنا بدايته وأحسنا نهايته" .

وفي مدغشقر قتلت القوات الفرنسية ثمانين ألف في ضربة واحدة للثائرين من سكان الجزيرة، فيما أعمل الإنجليز القتل في قبائل ماو ماو الأفريقية، ثم ادعوا أن وحوشاً مفترسة ظهرت في المنطقة وتخطفت الآلاف إلى مصارعهم.

وفي الجزائر يقول الجنرال الفرنسي شان: " إن رجاله وجدوا التسلية في جز رقاب المواطنين من رجال القبائل الثائرة في بلدتي الحواش وبورقيبه" .
ويخط الماريشال سانت أرنو إلى زوجته بعض ما صنعه وجنوده في الجزائر فيقول: " إن بلاد بني منصر بديعة، وهي من أجمل ما رأيت في أفريقيا، فقُراها متقاربة، وأهلها متحابون، لقد أحرقنا فيها كل شيء، ودمرنا كل شيء .. أكتب إليك يحيط بي أفق من النيران والدخان، لقد تركتني عند قبيلة البزار فأحرقتهم جميعاً، ونشرت حولهم الخراب، وأنا الآن عند السنجاد أعيد فيهم الشيء نفسه ولكن على نطاق أوسع" .

ويقول مونتياك في كتابه " رسائل جندي " وهو يصف إحدى المذابح التي حضرها: "لقد كانت مذبحة شنيعة حقاً، كانت المساكن والخيام في الميادين والشوارع والأفنية التي انتشرت عليها الجثث في كل مكان، وقد أحصينا في جو هادئ بعد الاستيلاء على المدينة عدد القتلى من النساء والأطفال فألفيناهم ألفين وثلاثمائة، وأما عدد الجرحى فلا يكاد يذكر لسبب هو أننا لم نترك جرحاهم على قيد الحياة" .

وقد بلغ عدد القتلى في مدينة سطيف في مايو ١٩٤٥م ما يقرب الأربعين ألفاً.
ويشنع الكونت هيريسيون على هذه القبائح التي لا مبرر لها فيقول: " فظائع لا مثيل لها، أوامر الشنق تصدر من نفوس كالصخر يقوم بتنفيذها جلادون قلوبهم كالحجر. .. في أناس مساكين جُلّ ذنبهم أنهم لايستطيعون إرشادنا إلى ما نطلب إليهم أن يرشدونا إليه" .

وقد تفنن المستعمرون في طرق إبادة هذه الشعوب، ومما أبدعوه في هذا الباب طريقة يسمونها "جهنم" حيث يتبع الجنود الهاربين من النساء والأطفال والرجال إلى الكهوف فيشعلون عند باب الكهف ناراً عظيمة، فيموت من بداخله حرقاً أو خنقاً ". وفي جنوب أفريقيا سيطر الاستعمار ففرض القوانين الجائرة والضرائب، ومنح البيض في عام ١٩١٣م ٨٨% من أراضي جنوب أفريقيا وفرض على السود دون البيض مصروفات الدراسة، وأمر بأن يدفع كل أسود بين سنة ١٢ - ٦٥ سنة ضريبة عن نفسه وأخرى عن كوخه.

وقد أضر المستعمرون بمصالح المزارعين حين أمروهم بزراعة بعض المحاصيل دون بعض، ثم شروها منهم بأبخس الأثمان. ففي عام ١٩٥١م باع فلاحو الجزائر قنطار الزيتون بـ ٢٠٠٠ فرنك في حين كانوا يبيعونه قبل دخول فرنسا بـ ٥٠٠٠ فرنك فرنسي.

وأجبر الفرنسيون السكان في أفريقيا الاستوائية على زراعة القطن عام ١٩٥٥م، ثم باعوه لأربع شركات استعمارية بما ثمنه ٧٢ -٦٠ فرنكاً للكيلو، فيما باعه المستعمرون بسعر ٢٤٥-٢٨٥ فرنكاً في مرفأ التصدير.

وقد كان كيلو القطن المستورد في فرنسا يماثل - في مراكش - أربعة مرات كيلو القطن المصدر، وذلك في عام ١٩٣٨م، ثم ارتفع إلى ست مرات في عام ١٩٤٩م ومثله يقال في القطن التونسي.

وفي نيجيريا يباع الخشب أكثر من سعره بـ ٣٠ - ٤٠ %، وباعت بلجيكا كيلو زيت النخل في مستعمراتها بـ ١١٠ فرنكاً بدلاً من ٧٥ فرنكا.

وتعترف إحدى مجلات الاستعمار بهذا الاستغلال فتقول: " المستهلكون في البلاد المستعمرة كانوا يتلقون عام ١٩٥٣م ما يبلغ ٨٠% من مستورداتهم بأسعار أكثر أرتفاعاً بـ ٢٠ - ٥٠ % وأحياناً أكثر أيضاً من الأسعار التي كانوا يحصلون عليها لو أتيح لهم أن يستوردوا بضائهم من بلد آخر غير فرنسا.

وفي مظهر آخر للاستعمار وظف المستعمر أبناء جلدته في مؤسسات الدول المستعمرة، وأبعد أهل البلاد الأصليين، ومن ذلك أن فرنسا وظفت في الجزائر في الدوائر العقارية ٢٠٠ موظف منهم ثمانية فقط من الجزائريين، فيما لم يبلغ عدد المغاربة في وزارة الشئون الإجتماعية في المغرب سوى أربعة من الحجّاب فيما قارب الفرنسيون المائتين والخمسين. وأجبر السكان الأصليون تحت مظلة المستعمر على العمل بأبخس الأجور، ففي حين كانت الأسعار في الجزائر مقاربة للأسعار في فرنسا كان العامل الجزائري يحصل على ٤٠ - ٧٠ فرنكاً لقاء عمله اليومي، في حين أن العامل الفرنسي يحصل على أكثر من ضعف المبلغ في فرنسا، وقد كان سعر كيلو الخبز يومذاك في الجزائر ٤٨ فرنكاً وكيلو السكر ٩٤، واللبن ٢٥ فرنكاً فيما كان اللحم الردئ يباع الكيلو منه بـ ٤٠٠ - ٥٠٠ فرنك فرنسي. وكتب النائب الأسقفي في داكار عاصمة السنغال يشكو الظلم الذي يقع على العمال الذين يسميهم بالمؤقتين والذين يحصلون على أجر شهري يتراوح بين ٨٠٠ - ١٢٠٠ فرنكاً في حين أن أحقر كوخ كان يؤجر بـ ٣٥٠٠ فرنك شهرياً إضافة إلى ما يدفعه من ضرائب تصل إلى ١٨٠٠ فرنك سنوياً. وقد كان العمال في صفاقس من عمال شركة الفوسفات الفرنسية يسكنون بمعدل ١٠ عمال في كل كوخ، فيما تحدثت الصحف الفرنسية عن مدينة التنك (مراكش) حيث يسكن ٢٠٠٠٠٠ من العمال وعوائلهم في بيوت أو أكواخ من التنك أو الخشب الذي يلتقطونه من مخلفات الشحن، وقد تحدثت إحدى الصحف الفرنسية عن القسوة البالغة التي يعيشها العمال المغاربة وعائلاتهم في هذه البيوت من غير توفر أي إجراءات تضمن صحتهم وسلامتهم.

ونتيجة لضعف رواتب العمال في مراكش وانتشار الفقر بأبشع صوره كتب أحد أطباء وادي الداد في جنوب مراكش: " إن الأطفال في هذه البلاد يأكلون التراب. لماذا ؟ أذلك من الفقر أو الجوع أم أنها عادة مجهولة المنشأ ؟ لا أستطيع أن أقول شيئاً، ولكن هذا الواقع ماثل هنا. إن الأطفال يأكلون

التراب ويصابون بالأمراض الخطيرة: فقر الدم وتضخم الطحال. ... ".

وقد اقتصر غذاء الأسرة المراكشية في الغالب على عدة أقراص من الشوفان، فيما ذكرت إحصائيات فرنسية في عام ١٩٤٥م أنه " من أصل المليون والثلاثمائة عائلة جزائرية تعيش من الزراعة وتربية المواشي ثمة ٨٠٠ ألف إلى مليون يجب أن تعتبر عائلات محتاجة ومعوزة ".

وأما المشاريع التي أقامها الاستعمار في البلاد المستعمرة فإنما أقامها لحماية مصالحه " فالجهود المبذولة لكهربة المراكز الثانوية والريفية يجب أن يكون مفهوماً أن التجهيزات المنتظرة إنما يجب أن تقتصر فقط على المشروعات ذات الدخل المضمون.

أما برنامج النقليات فعليه أن يقتصر في الدرجة الأولى على إنشاء وسائل النقل وطرق المواصلات المرتبطة مباشرة بأهداف الانتاج المعينة في المشروع والتي تؤلف على كل حال أحد العوامل الجوهرية لنجاحه ".

ورغم الاستغلال الواسع للموارد الطبيعية والقوى البشرية فإن المستعمر لم يقدم أبسط الخدمات الإنسانية وهي الصحة والتعليم ففي الجزائر التي اعتبر تها فرنسا جزءً منها لم يستطع سوى ١٢% من أطفال الجزائر ممارسة عملية التعلم، وانخفضت النسبة في مراكش إلى ١٠%، وفي أفريقيا الغربية إلى ٧. ٦ %، وفي تشاد إلى ٤ .٧%، فيما ارتفعت في أفريقيا السوداء إلى ١٨% من أطفال تلك البلاد .

ويخلص هنري كلود إلى أن نسبة التعليم في المستعمرات الفرنسية جملة لا يتجاوز ٩ % من أطفال المستعمرات الفرنسية.

وأما الخدمات الصحية فجرى تأمينها في المناطق التي ينتشر فيها الفرنسيون فيما كان لكل ١٠٠٠٠ جزائري طبيب واحد، وتصل هذه النسبة في الأقاليم الجنوبية للجزائر إلى ١/٣٠٠٠٠، وفي مراكش ١/٤٥٠٠٠ فيما لكل

٥٠٠٠٠ شخص في غينيا طبيب واحد.

ونتيجة لذلك ارتفعت نسبة الوفيات بين الأطفال في المستعمرات عنها في البلاد المستعمرة أو بين المستعمرين، ففي حين يموت من أطفال الأوربيين في الجزائر ما نسبته ٥. ٤ % يموت من أطفال الجزائر ١٨%، وفي تونس يموت للأوربيين من أطفالهم ما نسبته ٥ .٩% فيما يموت للتونسيين ما نسبته ١٩. ٣% فيما تصل النسبة في بعض مناطق أفريقيا الريفية إلى ٦٠%، وكتب الدكتور بريسو مقرر ميزانية الصحة عام ١٩٥٤م في الجزائر أن من بين ١٢٠ مريضاً يراجعون عيادة السل في مستشفى مدينة الجزائر لا يلقى العناية منهم سوى ٣٠. أما الباقون فأسلموا إلى الموت.

وننبه أخيراً إلى أن كل ما سمعناه عن الاستعمار الفرنسي مما سطره لنا هنري كلود ورفاقه ينطبق تماماً على الاستعمار البريطاني والإيطالي والبرتغالي وسوى ذلك من جنسيات الاستعمار الأخرى.

آثار الاستعمار: .

كانت للاستعمار آثارٌ سلبية وأخرى إيجابية على كلٍّ من المستعمَرات والدول المُستعْمِرَة على حدٍّ سواء. فقد حقق المستعمرون شيئًا من التنمية الاقتصادية للمستعمرات، فأدخلوا إليها طرق الزراعة والصناعة والعلوم الطبّية الغربية. وفي الوقت نفسه، قامت القوى الاستعمارية باستغلال مستعمراتها واستفادت منها اقتصاديًا. وفي عدد من المستعمرات، قامت القوى الحاكمة بتعطيل الهياكل الاقتصادية التقليدية وتغييرها. فقد ألزموا المستعمرات بإنتاج المواد الخام وشراء معظم السلع المصنّعة من الدول الحاكمة. وبهذه الطريقة، حطَّم المستعمرون الأنشطة التجارية والصناعية في المستعمرات. ومع أن هناك نواحي إيجابيةً لربط المستعمرات بالنظام الاقتصادي الدولي، فإن شعوب تلك المستعمرات فقدت القدرة على التحكم

في مقدَّراتها الاقتصادية. وبالإضافة إلى ذلك، قاد ارتفاع مستويات المعيشة والاستقرار السياسي إلى زيادة كبيرة في عدد السكان، الأمر الذي أدى إلى توقف التحسن في مستوى المعيشة وربما ساعد على تقهقره.
وقام النظام الاستعماريّ بزيادة رقعة السيطرة السياسية للدول الأوروبية، ولكنه أدى في الوقت نفسه إلى تقليص عدد من الحروب المحلية ووحّد تلك المناطق تحت مظلة دولة واحدة. وأقامت القوى الحاكمة عدداً من المدارس الحديثة، وأدخلت النظام الديمقراطي في الحكم. ولكن، في العديد من الحالات، لم يمنح المُستعمرون الشعوب التي استعمروها إلا قدراً ضئيلاً من التدريب والإعداد من أجل الاستقلال، كما حاول عددٌ من الحكام فرض ثقافتهم على الشعوب المُستعمَرة. ويعتقد بعض المؤرخين أنَّ الثقافة الغربية قد أفادت الشعوب المستعمَرة بطرق شتّى، لكن عدداً من الدول التي كانت مُستعمَرةً حاولت، بعد الاستقلال، إعادة إحياء ثقافتها وهويتها.
ولقد أثرى النظام الاستعماري الدول الحاكمة، ولكنه ساعد أيضًا في ظهور الحركات القومية وظهور الشعور الوطني بين الشعوب المستعمَرة. وبذلك، كتب الاستعمار نهايته بنفسه.

وكان من النتائج غير المتوقعة لنهاية الاستعمار أن ظهرت حركات الهجرة لعدد كبير من سكان المستعمرات إلى البلدان التي كانت تَستعمرها. كما أنَّ أعداداً كبيرةً من الهنود والباكستانيين ومواطني جزر الهند الغربية وجدوا طريقهم إلى بريطانيا. وهاجرت أعدادكبيرة من إندونيسيا وسُورِينَام إلى هولندا . وهناك أعدادٌ من المهاجرين من شمالي إفريقيا تعيش في فرنسا. ومن ناحية أخرى، أسهمت هذه الهجرات في خلق تباين عرقي وثقافي في البلدان الأوروبية التي كانت يومًا ما ذات طابع عرقي واحد .

آثار الاستعمار واشكاله الجديدة في الوطن العربي:.

تتباين خبرة كل دولة عربية مع غيرها من ناحية التجربة الاستعمارية من ناحيتين:

١- الفترة الزمنية التي مكثها الاستعمار في الدولة، إذ تتفاوت المدة بين دولة وأخرى، فبعضها بقي فيه الاستعمار متواصلاً لمدة (١٣٢) عاماً مثل الجزائر، وبعضها لم يستغرق فيه الاستعمار الأوروبي سوى (٢٤) عاماً مثل الأردن وهي الفترة الممتدة من تاريخ اعلان الانتداب البريطاني عليها إلى حين إعلان الاستقلال عام (١٩٤٦).

ومن المؤكد أن طول التجربة التاريخية مع الاستعمار تترك آثاراً عميقة للدول التي عرفت الاستعمار لمدد أطول من غيرها، وهو الأمر الذي أدى إلى التفاوت في مستوى التطور بين الدول العربية.

٢- تنوع التجربة الاستعمارية: فبعض الدول لم تعرف سوى الاستعمار البريطاني كمنطقة الخليج، وبعضها عرف الاستعمار الفرنسي فقط مثل الجزائر، وبعضها عرف كليهما مثل مصر، ومن المؤكد أن التنوع في الخبرة الاستعمارية يترك آثاراً متباينة بين الدول العربية.

ونتيجة لهذه التباينات انعكست الآثار على الدول العربية بشكل متباين من ناحية حدتها وإن تماثلت من حيث طبيعتها في أغلب الأحيان .

وتتمثل أبرز آثار الاستعمار في:

١- إيجاد كيان سياسي غير عربي في قلب المنطقة العربية، وهي إسرائيل، الأمر الذي أدى إلى دخول المنطقة العربية في صراعات مختلفة منذ عام (١٩٤٨م)، فمنذ وجود إسرائيل دخلت الدول العربية معها في حروب كثيرة (١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٦٨، ١٩٧٣، ١٩٨٢م) كما أن أجزاء من الدول العربية ما زالت محتلة من هذا الكيان.

٢- ترسيم الحدود بين الدول ترسيماً يراعي المصالح الاستعمارية، وهذا ما أدّى في فترات ما بعد الاستقلال إِلى اشتغال النزعات بين الدول العربية، بسبب هذه الحدود (النزاع بيت العراق والكويت، ومصر والسودان، الجزائر والمغرب).

٣- المساهمة في تعميق التخلف العربي ويتمثل ذلك في:

تعطيل التطور العلمي في المنطقة العربية، إِذ إن الاهتمام بفتح المدارس أو المعاهد التعليمية كان محدوداً إِلى أبعد الحدود، مما أدّى إِلى تفشي الأمية.

لكن ذلك لا ينفي أن للاستعمار آثاراً جانبية إيجابية لم يكن يقصدها، بل جاءت بحكم وجوده في هذه الدول، كإدخال بعض المطابع أو فتح المجال أمام بعض النخب العربية للاحتكاك بالأوروبين، أو الاطلاع على بعض الفنون الأدبية وغيرها.

ومع تطور المجتمع الدولي طورت الدول الاستعمارية أساليب سيطرتها بما أصبح يعرف بالاستعمار الجديد. وتشمل هذه الأساليب:

١- الغزو الثقافي

وقد سبق الإشارة إليه في الصفحات السابقة .

٢- الشركات متعددة الجنسية

ويمكن تعريف الشركات متعددة الجنسية أنها شركات تنتج وتسوق السلع والخدمات في أكثر من قطر واحد، وتعتبر العالم مجالاً لنشاطها .

وقد تركز نشاط هذه الشركات في الوطن العربي في البداية في استخراج النفط وتسويقه، ثم بدأت هذه الشركات في الدخول إلى قطاعات مختلفة من الاقتصاد العربي، وقد أدت هذه الاستثمارات إلى تحويل مبالغ هائلة من الأموال من العالم العربي.

وتؤثر الشركات المتعددة الجنسية على جهود التكامل الاقتصادي العربي طالما أنها تتحكم في نسبة هامة من القطاعات الاقتصادية العربية.

٣- القواعد والتسهيلات العسكرية

أدّى التنافس بين الدول الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة على المنطقة العربية إلى دفع الدول العربية للبحث عن مساند لها في صراعاتها مع القوى الخارجية، وقد أخذ هذا الاعتماد شكل الاستعانة بالخبراء العسكرين وغير العسكرين من هذه الدول، أو منح أساطيل هذا الدول تسهيلات في الموانئ العربية، أو السماح لطائرتها العسكرية باستخدام المطارات العربية في بعض الظروف الخاصة.

٤- الديون

اندفعت الدول العربية في فترة ما بعد الاستقلال نحو سياسة الاستدانة من الدول الغربية، لكن لم تكن لديها القدرة على السداد الأمر الذي دفعها إلى طلب إعادة جدولة الديون أو تخفيف شروطها، مما دفع الدول الدائنة إلى طرح مطالب سياسية على الدول العربية، تؤثر في درجة استقلالية قرارها السياسي.

٥- القوانين التجارية

وتتمثل هذه القوانين في الضغط على الدول العربية لفتح أسواقها أمام المنتجات الغربية وتخفيف القيود الجمركية أو الكمية عليها، وهو الأمر الذي قد يهدد الصناعات العربية الناشئة .

٦- المنظمات الدولية

تتحكم بعض الدول الكبرى في سياسات هيئة الأمم المتحدة بشكل يجعلها تسخر قرارات هذه المنظمة لحسابها، وهذا يؤثر في الاستقلال السياسي والاقتصادي للدول الصغيرة.

مجازر امريكا

أما بعد: كان يظن كثير من الناس ـ بسبب الإعلام المزيف لسنوات عديدة ـ بأن أمريكا هي فعلاً دولة الديمقراطية، ودولة الحرية، وأنها راعية السلام، فتبين ـ ولله الحمد ـ من خلال غزوها الصليبي لبلاد العراق، كذب ذلكم الادّعاء، وتبين زيف ديمقراطيتها وحريتها. وقد آن الأوان أن نقلب بعض أوراق التاريخ، ونُخرج ما يجهله الكثيرون عن هذه الدولة الطاغية المعتدية، من خلال عرض سريع لبعض جرائمها عبر التاريخ .

إن أمريكا عدوّة الإنسانية، ليس المسلمين فحسب، بل من كل ملة، اسألوا أفريقيا السوداء، واسألوا اليابان، واسألوا أمريكا الجنوبية، الذين يُجزرون بعشرات الملايين، أرقام خيالية، وأعداد مذهلة، ووفيات فوق حسابات البشر، ﴿ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة:٣٠]. وطريقة القتل عند الأمريكان طريقة وحشية، وليست إنسانية، فهم يصبون وابلاً من أطنان القنابل على الأبرياء، وكأنهم يصبونها على جبال صماء، وصدق الله حيث يقول: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ [الكهف:٢٠].

في ليلة من ليالي عام ١٣٦٦هـ، في الحرب العالمية الثانية، دمرت ٣٣٤ طائرة أمريكية ما مساحته ١٦ ميلاً مربعًا من طوكيو، بإسقاط القنابل الحارقة، وقتلت مائة ألف شخص في يوم واحد، وشردت مليون نسمة، ولاحَظَ أحدُ كبار الجنرالات بارتياح، أن الرجال والنساء والأطفال اليابانيين قد أحرقوا، وتم غليهم وخبزهم حتى الموت، وكانت الحرارة شديدة جدًا، حتى إن الماء قد وصل في القنوات درجة الغليان، وذابت الهياكل المعدنية، وتفجر الناس في ألسنة من اللهب، وتعرضت أثناء الحرب حوالي ٦٤ مدينة يابانية للقنابل، واستعملوا ضدهم الأسلحة النووية، ولذلك فإن اليابان لا تزال حتى اليوم تعاني من آثارها.

وألقت قنبلتين نوويتين فوق مدينتي هيروشيما ونجازاكي، وقال بعدها الرئيس الأمريكي هاري ترومان، وهو يكنّ في ضميره الثقافة الأمريكية: "العالم الآن في متناول أيدينا". وما بين عام ١٣٧١هـ وعام ١٣٩٢هـ ذبحت الولايات المتحدة في تقدير معتدل زهاء عشرة ملايين صيني وكوري وفيتنامي وكمبودي، وتشير أحد التقديرات إلى مقتل مليوني كوري شمالي في الحرب الكورية، وكثير منهم قتلوا في الحرائق العاصفة في "بيونغ يانغ" ومدن رئيسة أخرى.

وفي منتصف عام ١٣٨٢هـ سببت حرب فيتنام مقتل ١٦٠ ألف شخص، وتعذيب وتشويه ٧٠٠ ألف شخص، واغتصاب ٣١ ألف امرأة، ونُزعت أحشاء ٣. ٠٠٠ شخص وهم أحياء، وأحرق ٤ .٠٠٠ حتى الموت، وهوجمت ٤٦ قرية بالمواد الكيماوية السامة.

هذه هي أمريكا، وهذه بعض أفعالها لمن يجهلها. وأدى القصف الأمريكي "لهانوي" في فترة أعياد الميلاد، وعام ١٣٩١هـ إلى إصابة أكثر من ٣٠ ألف طفل بالصمم الدائم. وقتل الجيش الأمريكي المدرب في "غواتيمالا" أكثر من ١٥٠ ألف فلاح، ما بين عام ١٣٨٥هـ و عام ١٤٠٦هـ.

وقاموا بإبادة ملايين الهنود الحمر، يصل عددهم في بعض الإحصائيات إلى أكثر من مائة مليون، وهم السكان الأصليون لأمريكا، وبعدها أصدرت قراراً بتقديم مكافأة مقدارها ٤٠ جنيهاً، مقابل كل فروة مسلوخة من رأس هندي أحمر، و٤٠ جنيهاً مقابل أسر كل واحد منهم، وبعد خمسة عشر عاماً، ارتفعت المكافأة إلى ١٠٠ جنيه، و٥٠ جنيه مقابل فروة رأس إمرأه أو فروة رأس طفل، هذه هي الحضارة الأمريكية.

وأصدرت بعد ذلك قانوناً بإزاحة الهنود من أماكنهم إلى غربي الولايات المتحدة؛ وذلك لإعطاء أراضيهم للمهاجرين، وكان ذلك عام ١٢٤٥ هـ، وهُجّر إلى المناطق الجديدة أكثر من ٧٠. ٠٠٠ ألف هندي، فمات كثير منهم

في الطريق الشاق الطويل، وعرفت هذه الرحلة تاريخياَ: برحلة الدموع .

وفي عام ١٧٦٣م أمر قائد أمريكي برمي بطانيات كانت تستخدم في مصحات علاج الجدري إلى الهنود الحمر؛ بهدف نشر المرض بينهم، مما أدى إلى انتشار الوباء الذي نتج عنه موت الملايين، ونتج عن ذلك شبه فناء للسكان الأصليين في القارة الأمريكية. إنها حرب جرثومية بكل ما في الكلمة من معنى، فكانت هذه الحادثة هي أول وأكبر استخدام لأسلحةالدمار الشامل ضد الهنود الحمر.

وفي إحدى المعارك قتلت أمريكا فيها خلال ثلاثة أيام فقط ٤٥. ٠٠٠ ألف من الأفريقيين السود، ما بين قتيل وجريح ومفقود وأسير .

وأمريكا أكثر من استخدم أسلحة الدمار الشامل، فقد استخدمت الأسلحة الكيماوية في الحرب الفيتنامية، وقتل مئات الآلاف من الفيتناميين. وأمريكا أول من استخدم الأسلحة النووية في تاريخ البشرية .

هذه جرائم الطاغية الباغية رأس الكفر أمريكا في حق غير المسلمين، وهذا ما لطخته أمريكا بأيديها القذرةِ النجسة، وهذه بعض جرائمها وأرقامها الخيالـ ية، فهي لا تراعي لذي حَرم حرمته، ولا لحر حريته، ولا للإنسان إنسانيته .

أيها المسلمون، وأما جرائمهم في دماء المسلمين فحدث ولا حرج، فملفاتهم سوداء من دماء المسلمين، ودم المسلم دم وحشي في قاموس أمريكا، ليس له حرمة ألبتة، بل هو في نظر أمريكا أخس من الكلاب النجسة، وقد ثبت أنهم يقولون عن الرسول ﷺ أنه رجل شاذ، وتزوج عدة مرات للوصول إلى السلطة، ومثل هذه الادعاءات الملعونة، تدرس لديهم في مناهجهم الدراسية، وقد أنتجوا أكثر من ٧٠٠ فيلم يسيء للإسلام والمسلمين. ويرى الرئيس السابق نكسون أن ليس هناك من شعب ـ حتى ولا الصين الشعبية ـ له صورة سلبية في ضمير الأمريكيين، بالقدر الذي للعالم الإسلامي.

أيها المسلمون، وهذه بعض جرائم أمريكا الديمقراطية، في قتلهم الوحشي الشنيع ضد المسلمين، لقد قُتل أكثر من مليون طفل عراقي، بسبب قصف الطائرات الأمريكية للعراق، وحصارها الظالم له خلال أكثر من عشر سنوات، وأصيب الآلاف من الأطفال الرضع في العراق بالعمى لقلة الأنسولين، وهبط متوسط عمر العراقيين ٢٠ سنة للرجال، و١١ سنة للنساء، بسبب الحصار والقصف الأمريكي، وأكثر من نصف مليون حالة وفاة بالقتل الإشعاعي. وقد رفع أحد المحامين النصارى الأمريكيين دعوى على الرئيس الأمريكي جورج بوش ـ الأب ـ يطالب فيها بمحاكمته على أنه مجرم حرب، بسبب ما أحدثه في العراق من قتل وتدمير.

وارتكب الأمريكان المجازر البشعة، في حرب الخليج الثانية ضد العراق، فقد استخدمت أمريكا متفجرات الضغط الحراري، وهو سلاح زنته ١٥٠٠ رطل. وكان مقدار ما ألقي على العراق من اليورانيوم المنضب أربعين طنًا، وألقي من القنابل الحارقة ما بين ٦٠ إلى٨٠ ألف قنبلة، قتل بسببها ٢٨ ألف عراقي. وقتل الآلاف من الشيوخ والنساء والأطفال الفلسطينيين بالسلاح الأمريكي. وقتل الآلاف من اللبنانيين واللاجئين الفلسطينيين في المجازر التي قامت بها إسرائيل بحماية ومباركة أمريكية .

وما بين تاريخ ١٤١٢و١٤١٤هـ قتل الجيش الأمريكي الآلاف من الصوماليين أثناء غزوهم للصومال. وفي عام ١٤١٩هـ شنت أمريكا هجومًا عنيفًا بصواريخ كروز على السودان وأفغانستان، وقصفوا خلاله معمل الشفاء للدواء في السودان، وقتلوا أكثر من مائتين، وحتى هذه الساعة، لا يوجد سبب واحد ومعلن للفجوة بين أمريكا والسودان غير الإسلام، بصفته كيانًا عربيًا أفريقيًا إسلاميًا موحدًا، ولأجل ذلك كثفت أمريكا جهودها، وسعت للالتقاء بجميع المعارضين "الميرغني والصادق المهدي وقارنق" وألّبت جميع جيرانها ضدها، ودعمت حركة التمرد، وبعض الدول المحيطة بها.

والعجيب أن أمريكا تسعى بكل طاقاتها، للضغط على العرب من أجل

السلام مع إسرائيل، وفي نفس الوقت تقف بكل إمكانياتها في عرقلة السلام في السودان، من خلال توظيف النصارى في الجنوب، والذي تصل نسبتهم إلى ٥% من السكان فقط، ويأتي القرار الأمريكي المشؤوم يدين السودان، ثم تأتي الصواريخ الأمريكية لتقصف مصنع الشفاء للأدوية، وهي لا تملك أدلة تستدل بها، وهل يقبل المنطق أن هذا المصنع يهدد الأمن الأمريكي؟ إن الهدف الحقيقي لضرب السودان هو العنجهية الأمريكية، وإضعاف ا لسودان اقتصادياً والضغط عليها سياسياً.

وقتل في أفغانستان خلال ثلاثة أشهر فقط، نتيجة القصف الأمريكي ما لا يقل عن ٥٠ .٠٠٠ أفغاني، جُلّهم إن لم يكونوا كلهم من المدنيين. وتسبب حصارهم لأفغانستان في قتل أكثر من ١٥ .٠٠٠ طفل أفغاني .

وحصارها على ليبيا، إذ أدى هذا الحصار الغاشم إلى كوارث كبرى، وفواجع عظمى، إذ بعد خمسة أشهر فقط من بداية الحظر الجوي والحصار، بلغت خسائر ليبيا ما يزيد على ٢ مليار دولار.

وقتل عسكريو أندونيسيا أكثر من مليون شخص بدعم أمريكي.

وأما معاملتهم للأسرى فأسوء معاملة، فالإنسانية معدومة لديهم، والقيم الأخلاقية ليس لهم فيها ناقة ولا جمل، وقد تمثلت في أمريكا أعظم أنواع الإرهاب المنظم، وبلغ فيهم الاضطهاد والإرهاب مبلغًا لم يشهد مثله في عالمنا الحاضر، بل وعلى مر التاريخ المتقدم، لقد خالفوا الأديان والشرائع بل والقوانين الوضعية.

لقد حرص الأمريكيون على إظهار التشفي من هؤلاء الأسرى في "غونتناموا" في كل مناسبة، حتى بلغ بهم الحال أن يتركوا هؤلاء الأسرى في مقاعدهم، لأكثر من يوم ونصف بلا أي حراك، ومن دون تمكينهم من استخدام دورات المياه، ثم يعلنون ذلك لمجرد التشفي والتهكم والسخرية من هؤلاء الأسرى.

كما توضح الصور، أن الأمريكيين حرصوا على تعطيل كافة الحواس: السمع والبصر بل وحتى الفم والأنف، وضع عليها أغطية كثيفة، والمتأمل للصور يشعر بأن الأسرى يفتقدون حتى الإحساس بالمكان، وربما الزمان، ومن الواضح خلال تصريحات المسؤولين الأمريكيين، أنهم لن يترددوا في استخدام أي وسيلة يتم من خلالها إهانة وتحطيم هؤلاء الأسرى. فهم بذلك خالفوا كل الأديان والشرائع، وخالفوا ـ أيضًا ـ القوانين الوهمية؛ فإن من الاتفاقات القانونية أن إجبار أسير الحرب على الإدلاء باعترافاته هو عمل إرهابي. هذه هي أمريكا لمن لا يعرفها وهذه بعض إنجازاتها .

أين أمة المليار من هذه الثيران الهائجة والوحوش الشريرة والمواقف الفظيعة؟! أين العقلانية؟! أين الإنسانية؟! أين القيم الأخلاقية؟! بل أين القوانين الدولية؟! أليس فيهم رجل رشيد؟! حقًا إن هذه جرائم وحشية،وأفعال شيطانية وتصرفات حيوانية صامتة.

إن أمريكا لا تلتزم لا بقانون ولا بأعراف ولا بمواثيق، وإنما تسعى لمصالحها الذاتية، وهيمنتها الشخصية، دون مراعاة لروابط دولية، فهي كانت تنادي بالديمقراطية، ولما وقعت عليها الهجمات في الحادي عشر من سبتمبر، تلاشت الديمقراطية المزعومة .

إن أمريكا تدعي مكافحة الإرهاب! وقد سبق القوائم في أعمالها ومشاريعها الإرهابية، وقد اتخذت أمريكا من هذا المصطلح وهو ما تسميه هي مكافحة الإرهاب غطاء لها في ضرب المسلمين، ومنشآتهم تحت هذا المسمى. ولذلك فإن قانون الإرهاب، وضع على المسلمين، وبالتالي امتد إلى الإسلام.

إن أمريكا تتسنم بالأحادية، والطمع والهمجية، والتدخل السافر في شؤون الدول الداخلية، دون احترام لدينهم بل وقوانينهم، فهي تُشرِّع بالغداة وتنسخ بالعشي، ليس لديها قانون منضبط، فهي تنتهك القوانين

والاتفاقيات، فلسان حالها يقول: لا نُسأل عما نفعل وهم يسألون! ونأخذ ما نشاء وندع ما نشاء، وننتهك حقوق من نشاء، ولا معقب لحكمنا.

يقول ممثل إحدى الولايات في مجلس الشيوخ الأمريكي، وهو يلقي خطابه قال فيه: "إن الله لم يهيئ الشعوب الناطقة بالإنجليزية لكي تتأمل نفسها بكسل ودون طائل، لقد جعل الله منا أساتذة العالم! كي نتمكن من نشر النظام حيث تكون الفوضى، وجعلنا جديرين بالحكم، لكي نتمكن من إدارة الشعوب البربرية الهرمة، وبدون هذه القوة، سيعم العالم مرة أخرى البربرية والظلام، وقد اختار الله الشعب الأمريكي ـ دون سائر الأجناس ـ كشعب مختار، يقود العالم أخيراً إلى تجديد ذاته".

أيها المسلمون، ولما كانت سنة الله تعالى لا تتغير بتغير الزمن، ولا باختلاف الأحوال والأجواء، ابتلى الله هذه الأمة الظالمة بآلام عديدة، تخص كثيراً من الشؤون الحياتية الاجتماعية والاقتصادية، يقول الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠، ١٤١].

ودمار أمريكا قريب إن شاء الله، ونقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا؛ لأن سنة الله تعالى الكونية التي لا محيص عنها ولا محيد، جرت في أن الأمة إذا طغت وبغت، وعاثت في الأرض فساداً، أنه يهلكها، كما هي حال الأمم الغابرة، قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مّن كُلّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۝ وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ [النحل:١١٢، ١١٣].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١]. وقال

تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢]. وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحج:٤٨].

وهؤلاء عاد لما تكبروا وطغوا وتجبروا، وقالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥] رد الله عليهم بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت:١٥، ١٦]. ولما عاينوا السحب في السماء، قالوا: ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف:٢٤]، رد الله عليهم بقوله: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٤، ٢٥].

تلخيص سريع لجرائم أمريكا بحق البشرية

الهنود الحمر

كان اكتشاف الأمريكيتين - بالتزامن مع الثورة الصناعية – كارثة كبرى حلّت بعشرات الملايين من سكان أمريكا الأصليين، حيث قامت الجماعات المهاجرة إلى الأرض الجديدة من أوروبا، بإعمال القتل والإبادة في حق الهنود الحمر، الذين يُقدر الباحثون أعدادهم بأكثر من مائة مليون هندي أحمر، لم يتورع السادة البيض الذين أسسوا ما سُمي فيما بعد بالولايات المتحدة الأمريكية عن استخدام أحط الوسائل وأخس السُبل للقضاء على الهنود الحمر، ومنها تسميم آبار مياه الشرب، وحقنهم بالفيروسات والجراثيم وأشد الأمراض فتكاً مثل الطاعون والتيفود والجدري ومُسببات السرطان.

مذبحة ساندكريك

إحدى أبشع الجرائم المروعة التي عرفها تاريخ أمريكا، والتي كان زعيمها العقيد جون شيفينتون وجنوده.

ويعتبر شفنجتون اليوم من أعظم أبطال التاريخ الأمريكي، وهناك الآن أكثر من مدينة وموقع تاريخي تخليدا لذكره ولشعاره الشهير:

'اقتلوا 'الهنود' واسلخوا جلودهم. لا تتركوا صغيرا ولا كبيرا، فالقمل لا يفقس إلامن بيوض القمل'.

كان الكولونيل شفنجتون يعلم بأن القرية مسالمة، وأن معظم رجالها خرجوا لصيد الجواميس، لكن الكولونيل قال: 'حسنا، إنني متشوق للخوض في الدم'. وقد تحقق له ما يصبو إليه. فمع أول خيوط الفجر زحف رجاله إلي القرية.

وكان فيها رجلان من البيض حاولا إعلام الجنود بأن القرية مسالمة، لكنهما جوبها بإطلاق النار. ثم إن الزعيم "بلاك كاتل" رفع العلم الأبيض فوق سارية أحد البيوت كما رفع علما أمريكيا كان قد تلقاه من مفوض الشئون الهندية. وراح يطمئن أهل القرية ويهديء روعهم قائلا: لا تخافوا.. لا تخافوا، نحن في سلام مع البيض!

وسرعان ما بدأ الجنود بإطلاق النار علي أهل القرية المتراكضين في كل الاتجاهات بينما أعطي شفنجتون أوامره بالقصف المدفعي، ومطاردة الهاربين.

ويقول شاهد آخر هو الجندي آشبري بيرد أن 'عدد الضحايا يتراوح بين ٤٠٠ و ٥٠٠، وأنهم جميعا تعرضوا لسلخ فروات رؤوسهم.

لقد رأيت امر أة تعرّض فرجها للتمثيل به، كما شاهدت جثثا مقطعة

تقطيعا فظيعا وعددا من الجماجم المحطمة. وإنني لعلي ثقة بأنها تحطمت بعد موت أصحابها بإطلاق النار عليهم كما هو واضح'

وهذا ما يشهد عليه أيضا لاسيرجنت لوسيان بالمر 'انني لم أر قتيلا واحدا لم يسلخ رأسه أو رأسها.

لقد رأيت كذلك أصابع مقطوعة للسطو علي الخواتم. كمارأيت عددا من الجثث وقد قطعت أعضاؤها التناسلية'.

وتقول شهادة عاموس ميلكش: 'رأيت طفلا مايزال حيا بين الجثث المرمية في الخندق.

ورأيت جنديا من الفرقة الثالثة يستل مسدسه ويطلق النار علي رأس الطفل .رأيت ضحايا مقطعة الأصابع للسطو علي خواتمها، ومقطعة الآذان للسطو علي زينتها، ورأيت عددا من الجنود ينبشون جثثا تم دفنها ليلا. وذلك ليسلخوها وليأخذوا زينتها. ورأيت امرأة هندية مهشمة الرأس.

وفي الصباح التالي، بعد أن تيبست الجثث، بدأ الجنود بسحب جثث النساء و'فتحهن' بطريقة مشينة. وشهد دافيد لودرباك أحد الفرسان أن 'جثث النساء والأطفال تم التمثيل بها بطريقة مخيفة.

لقد رأيت ثمانية منها فقط، ولم أجد في نفسي الشجاعة لرؤية المزيد فقد كانت شديدة التقطيع، وكانت مسلوخة الرؤوس.

أما الزعيم وايت أنتولوب 'الظبي الأبيض' فإنه كان مقطوع الأنف والأذنين والأعضاء التناسلية'.

ويقول المترجم جون سميث: 'لقدمارسوا كل أنواع السلب والنهب. لقد سلخوهم، واقتلعوا أدمغتهم،. واستخدم الجنود سكاكينهم لتمزيق أجساد النساء وشقهن، ولتعذيب الأطفال ودق رؤوسهم بأعقاب البنادق واقتلاع

أدمغتهم والتمثيل بأجسادهم. وأسوأ تمثيل رأيته في حياتي هو تقطيع النساء إلي قطع صغيرة وتمزيق جثث الأطفال ذوي الشهرين أو ثلاثة أشهر. وعندما ذهبت إلي مكان المذبحة في اليوم التالي لم أر جسدا واحدا إلا وقد سلخ وقطعت أعضاؤه التناسلية".

أما الرئيس تيودور روزفلت فإنه تسامي بهذه البطولات فوصفها بقوله 'إن مذبحة ساند كريك كانت عملا أخلاقيا ومفيدا 'ذلك لأن' إبادة الأعراق المنحطة حتمية ضرورية لا مفر منها..

قصف مدينة درسدن

في مايو ١٩٤٥ قصف الطيران الأمريكي مدينة درسدن الألمانية، على رغم أن الزحف الروسي كان تجاوزها ولم تعد لهذا السبب تشكل هدفاً عسكرياً، وقد أدى القصف إلى قتل ١٥٠ ألف شخص مدني، كما تخرب ٦٠% من أبنيتها.

قنبلة هيروشيما

في ٦ أغسطس ١٩٤٥ أمر الرئيس الأمريكي ترومان بإلقاء قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما اليابانية، ما أودى بحياة ٧٨١٥٠ شخصاً، إضافة لعشرات الآلاف من المشوهين.

قنبلة ناجازاكي

في ٩ أغسطس ١٩٤٥ أمر الرئيس الأمريكي ترومان بإلقاء القنبلة الذرية الثانية على مدينة ناجازاكي اليابانية فحصدت ٧٣٨٨٤ قتيلاً، و٦٠. ٠٠٠ جريح مع إبادة كاملة لكل حيوان ونبات في المدينة، إضافة لعشرات الآلاف من المشوهين.

الحرب الأهلية في اليونان

في عام ١٩٤٩ الولايات المتحدة أشعلت حرباً أهلية في اليونان ذهب ضحيتها ١٥٤ ألف إنسان، وأودع حوالي ٤٠ ألفاً في السجون، و٦ آلاف أعدموا بموجب أحكام عسكرية، وقد اعترف السفير الأمريكي الأسبق في اليونان «ماكويغ» بأن جميع الأعمال التكنيكية والتأديبية الكبيرة التي قامت بها الحكومة العسكرية في اليونان في الفترة ما بين عامي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ ، كانت مصدّقة ومهيأة من واشنطن مباشرة.

الاحتلال الأمريكي للبنان

في ١٥ يوليو ١٩٥٨ توجه الأسطول السادس الأمريكي إلى سواحل لبنان، بهدف احتلال لبنان، وتأييد حكومة كميل شمعون، على إثر قيام انقلاب عسكري عراقي مناهض لواشنطن في اليوم السابق.

حرب فيتنام

٣٠ يوليو ١٩٦٤ قامت المخابرات المركزية الأمريكية بعملية في خليج تونكين الفيتنامي ضمن الخطة «٣٤أ» لإيجاد مُبرر للتدخل في فيتنام، وضمن هذه الخطة شنّت الولايات المتحدة ٦٤ غارة جوية على ٤ قواعد بحرية لزوارق الطوربيد الفيتنامية ومستودعات للوقود، وعلى أثر ذلك أعطى الكونغرس الأمريكي صلاحيات للرئيس الأمريكي جونسون باستخدام القوة المسلحة في جنوب شرقي آسيا، إذا اقتضت الضرورة ذلك، وبموجب هذا بدأت الولايات المتحدة حربها الجوية البحرية البرية ضد فيتنام، وبلغت أعداد جرائم الحرب الموثقة لدى البنتاجون ٣٦٠ حادثة، ليس من ضمنها مجزرة ماي-لاي، التي راح ضحيتها ٣٤٧-٥٠٤ مدني في فيتنام الجنوبية، أغلبهم نساء وأطفال في ١٦ مارس ١٩٦٨، ومن ضمن جرائم الحرب الأمريكية في فيتنام استخدام الرش الكيماوي لتدمير وحرق وإتلاف البشر والحقول والقرى، مثل الرش البرتقالي والأزرق والأخضر.

ومثال على ذلك عملية رانش هاند التي وقعت سنة ١٩٦٢ واستمر تأثيرها حتى ١٩٧١، وكانت فيتنام ادعت سنة ١٩٩٥ أن عدد القتلى في الحرب بلغ ٥ ملايين، ٤ ملايين منهم مدنيون عُزّل، في حين كان وزير الدفاع ماكنامارا قال في لقاء متلفز لاحقاً أن عدد القتلى ٣ ملايين و٤٠٠ ألف.

قتل ١٢٥ مدنياً فيتنامياً

٢٤ ديسمبر ١٩٦٦ القوات الأمريكية تقتل ١٢٥ من المدنيين الفيتناميين، على رغم أنها أعلنت عن وقف القتال لمدة ٤٨ ساعة بمناسبة أعياد الميلاد.

قتل مارتن لوثر كينج

في ٤ أبريل ١٩٦٨ قتلت المخابرات المركزية الأمريكية الثائر مارتن لوثر كينج المناضل من أجل حقوق المظلومين، خصوصاً من أبناء السود في أمريكا.

برنامج التصفية الجسدية

في عام ١٩٦٩ قَتل «كولبي» كبير ممثلي وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في فيتنام شخصياً، وفق برنامج «فينيكس» أي التصفية الجسدية، ١٨٠٠ شخص شهرياً في فيتنام الجنوبية، وبلغ مجموع من قتلهم ٤٠ ألف شخص.

الهجوم على الأراضي الكمبودية

في ٢٠ أبريل ١٩٧٠ هاجم ٣٢ ألف جندي من القوات الأمريكية مُدعمين بـ٥٠٠ طائرة أمريكية و ٤٠ سفينة حربية تابعة للأسطول السابع الأمريكي الأراضي الكمبودية، واستمر التدخل العسكري الأمريكي في كمبوديا ستة أعوام ذهب ضحيتها ما يقرب من مليون قتيل.

انقلاب تشيلي

في ١١ سبتمبر ١٩٧٣ نفذت المخابرات المركزية الأمريكية انقلاباً عسكرياً ضد الرئيس التشيلي سلفادور ليندي في تشيلي، وكانت نتيجة الانقلاب مقتل سلفادور الليندي نفسه، وإعدام ٣٠ ألفاً، واعتقال ١٠٠ ألف من أنصاره الذين تمسكوا بشرعيته وبنتيجة الانتخابات الديمقراطية.

أقمار اصطناعية للتجسس

في ٢ أكتوبر ١٩٧٨ اعترف الرئيس الأمريكي للمرة الأولى باستخدام الولايات المتحدة للأقمار الاصطناعية في التجسس على الاتحاد السوفييتي وبعض الدول الأخرى، وهذا ما امتد لاحقاً إلى معظم بقاع الأرض .

قتل رئيس كوريا الجنوبية

في أكتوبر عام ١٩٧٩ قتلت المخابرات المركزية الأمريكية باك جون في رئيس جمهورية كوريا الجنوبية.

اغتيال رئيس أساقفة السلفادور

في ٣٠ مارس ١٩٨٠ اغتالت المخابرات المركزية الأمريكية المونسينور روميرو رئيس أساقفة السلفادور بينما كان يرعى قداساً كنسياً.

انقلاب جزر سيشيل

في ٢٦ نوفمبر ١٩٨١ جندت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية المرتزقة بالاشتراك مع المخابرات الإفريقية الجنوبية (donc) الذين تموّلهم أمريكا، وترسلهم تحت غطاء فريق لعبة الركبي للقيام بانقلاب عسكري في جزر سيشيل.

قتل ١٠٠٠ شخص في سلفادور

في ديسمبر ١٩٨١ قامت كتيبة «أتلاكاتل» المتوحشة، والمرتبطة بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية بقتل ١٠٠٠ شخص مع عمليات اغتصاب وحرق في السلفادور.

مساندة إسرائيل في حرب لبنان

في ٨ يوليو ١٩٨٢ وصلت قطع الأسطول السادس الأمريكي إلى مسافة أقل من ٥٠ كيلو متراً من السواحل اللبنانية لإسناد القوات الصهيونية التي غزت لبنان يوم ٥ يونيو ١٩٨٢.

احتلال جزيرة غرينادا

في ٢٥ أكتوبر ١٩٨٣ قامت القوات الأمريكية بهجوم على جزيرة غرينادا إحدى أصغر دول العالم، فقد انتهكت سيادتها بوحشية حاملة الدمار والموت للسكان الآمنين الذين نهضوا للدفاع عن وطنهم واحتلت الجزيرة، وأطلقت الإدارة الأمريكية كذبة تقول إن الطلّاب الأمريكيين تعرضوا للخطر، وذلك لتبرير عدوانها على الجزيرة.

إسقاط طائرة مدنية إيرانية

٣ يوليو ١٩٨٨ أسقطت وحدات الأسطول الأمريكي في الخليج طائرة ركاب مدنية إيرانية لقي ركابها جميعهم حتفهم وكانوا ٢٩٨ راكباً .

معارضة قيام وطن فلسطيني

في ١١ يوليو ١٩٨٨ عارض مشروع البرنامج السياسي للحزب الجمهوري قيام وطن قومي للفلسطينيين .

الغارات الأمريكية على العراق في التسعينات

ومن الجرائم الأمريكية في العراق قبل الغزو، في ١٧ يناير ـ ٢٨ فبراير ١٩٩١ دمّرت القوات الأمريكية في العراق أكثر من ٨٤٣٧ داراً سكنية، و١٥٧ جسراً وسكة حديد، و١٣٠ محطة كهرباء رئيسية وفرعية، و٢٤٩ داراً لرياض الأطفال، و١٣٩ داراً للرعاية الاجتماعية، و١٠٠ مستشفى ومركزاً صحياً، و١٧٠٨ مدارس ابتدائية.

استخدام اليورانيوم المشع في العراق

وفي ١٧ فبراير ١٩٩٣ كشفت صحيفة «نيويورك تايمز» النقاب عن استخدام الطيران الأمريكي لقذائف تحوي اليورانيوم ضد الشعب العراقي، وقد قتل الكثير من أطفال العراق بسببها، وقالت الصحيفة أن الأطفال كانوا أكثر تأثراً بهذه القذائف لأن اليورانيوم الموجود فيها يترك آثاره بسرعة في الخلايا والهياكل العظمية للأطفال ويقضي على الأجنة في أرحام أمهاتهم.

حرب العراق

ادعت أمريكا وجود أسلحة نووية بالعراق، وقامت بغزوها مما ترتب عليه تدمير العراق وتقسيمها على أساس طائفي وتسريح قوات الجيش والشرطة وقتل الآلاف بسبب التشريد والحصار والعمليات الإرهابية، وخلفت الحرب ما يقرب من نصف مليون قتيل عراقي. ونهاية لهذه المجازر هذا غيث من فيض فلا ننسى ما قامت بها أسبانيا من قذف بلاد المغرب العربي بالغازات السامة في أوائل القرن العشرين ولا ننسى ما فعلته فرنسا في الجزائر بلد المليون شهيد وإنما تناولنا سريعا لنؤكد على عظمة الحضارة الإسلامية التى حافظت على حرمة الدماء أولا وأعطت كل ذى حق حقه فكانت الفتوحات للبلاد التى دخلها الإسلام تحمل الخير لشعوبها وتحمل رسالة التوحيد وأما الإستعمار البغيض فكان استعباد للشعوب وقتل الأبرياء بدون تفريق بين شيخ أو طفل أو إمرأة فليشهد التاريخ أن الحضارة الإسلامية هي الأقوى وستظل الأقوى وفى الباب القادم نتناول تأثير الحضارة الإسلامية على أوروبا.

خصائص الحضارة الإسلامية

اعتمدت الدولة العباسية علي شعوب البلاد المفتوحة. وكانت هذه الشعوب عريقة في حضارتها، فهناك الحضارة الساسانية التي سادت العراق وفارس، وكانت تحتفظ بتراث أسيوي خاص ساهمت في تكوينه الحضارتان الصينية والهندية بنصيب وافر. وهناك الحضارة البيزنطية التي سادت في الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط، وهي حضارة ذات أصول يونانية شرقية، لأن البيزنطيين والرومان من قبلهم، كانوا تلاميذ لليونان، وكانت الإسكندرية وحران والرها ونصيبين وإنطاكية من أهم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية.

فالعرب، رغم تراثهم العريق القديم الذي تمثل، في حضارات معين وسبأ وحمير في بلاد اليمن، وحضارة الحجاز التي اشتهرت بنشاطها التجاري والديني، إلا أنهم وجدوا في البلاد التي فتحوها حضارات متطورة راقية، لها إدارات حكومية منظمة، ونظم اقتصادية متفوقة في الزراعة وأعمال الري والصناعة، وفي ميادين العلوم العقلية والتجريبية كالرياضيات والفلك والفيزياء، فاغترفوا منها بما يتفق مع تقاليدهم وعقيدتهم.

وهكذا نرى أن الدولة العباسية باعتمادها على هذه الشعوب، عملت على مزجها وصهرها في البوتقة الإسلامية. وهذا الاتحاد هو السر في تلك النهضة العلمية العجيبة التي امتدت من، قيام الدولة العباسية إلى نهاية القرن الرابع الهجري. فان كان للدولة العربية الإسلامية في صدر الإسلام، فضل الفتوح والانتشار والاتصال بالحضارات القديمة مما أدى إلى ظهور المنابت الأولى للحضارة الإسلامية في أواخر عهدها، فإن للدولة العباسية فضل رعاية هذه المنابت الحضارية والعمل على تنميتها وازدهارها. فالمسلمون نقلوا وترجموا وعربوا هذا التراث القديم إلى لغتهم العربية حتى إذا ما استوعبوا ما نقلوه، أخذوا ينتجون ويبدعون ويضيفون، حتى قدموا للعالم ما عرف

بالحضارة العربية الإسلامية، وهي الحضارة التي توفرت لها تلك المزايا الثلاث التي لا تتوفر إلا في الحضارات الكبرى وهي: ا لامتياز، والأصالة، والإسهام في تطور البشرية.

لهذا أجمع العلماء علي أن الحضارة الإسلامية تحتل مكانة رفيعة بين الحضارات الكبرى التي ظهرت في تاريخ البشرية، كما أنها من أطول الحضارات العالمية عمراً، وأعظمها أثراً في الحضارة العالمية.

وتبدأ هذه النهضة الحضارية في العراق بعد أن أسس الخليفة العباسي "أبو جعفر المنصور" مدينة بغداد (١٤٥- ١٤٩ هـ) وجعلها عاصمة لدولته، ومقراً للخلافة العباسية صاحبة السلطان الشرعي على جميع الأقطار الإسلامية. فهي لم تكن مثل الفسطاط أو دمشق أو قرطبة، عاصمة قطر بعينه، بل كانت عاصمة العالم الإسلامي كله. ولهذا صارت مدينة دولية COSMOPOLITE واكتسبت صفة عالمية، وسكنتها عناصر من مختلف الأجناس، والملل والنحل، إسلامية وغير إسلامية، فهناك الفرس والهنود والسريان والروم والصينيون وغيرهم. وكل هذه العناصر لم تسكن بغداد بأشخاصها فقط، بل بثقافاتها وتجارتها وعلمها وفنها، فعربت ألفاظ يونانية وفارسية وهندية كثيرة. وترجمت عن اليونانية "حكم سقراط وأفلاطون وأرسطو، وظهرت كتب الأدب العربي مثل عيون الأخبار لابن قتيبة، والبيان والتبيين للجاحظ. وفي خلافة أبي جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨ هـ) ترجمت بعض أعمال العالم السكندري القديم بطليموس القلوذي CLAUDIUS PTOLOMY (ت. ١٧ م)، ومن أهمها كتابه المعروف، باسم "المجسطي ". واسم هذا الكتاب في اليونانية EMEGAL MATHEMATIKE) " ، "أي الكتاب الأعظم في الحساب. ويبدو أن المسلمين حولوا لفظ MEGALE في مجال إلى" مجسطي ". والكتاب عبارة عن دائرة معارف في علم الفلك والرياضيات. وقد أفاد منه علماء المسلمين وصححوا بعض معلوماته وأضافوا إليه.

وعن الهندية، ترجمت أعمال كثيرة مثل الكتاب الهندي المشهور في علم

الفلك والرياضيات، "براهمسبهطسدهانت " وتختصر بسد هانتا Siddhantaأي " المعرفة والعلم والمذهـب ". وقد ظهرت الترجمة العربية في عهد أبي جعفر المنصور بعنوان "السند هند" وهو تحريف للعنوان الأصلي. ومع كتاب "السند هند" دخل علم الحساب الهندي بأرقامه المعروفة في العربية بالأرقام الهندية فقد تطور على أثرها علم العدد عند العرب، وأضاف إليها المسلمون نظام الصفر، والذي لولاه لما فاقت الأرقام العربية غيرها من الأرقام،ولما كان لها أية ميزة، ولما استطعنا أيضاً أن نحل كثيراً من المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات، فقد سهل استعماله لجميع أعمال الحساب، وخلص نظام الترقيم من التعقيد، ولقد أدى استعمال الصفر في العمليات الحسابية إلى اكتشاف الكسر العشري الذي ورد في كتاب مفتاح الحساب للعالم الرياضى؟ المسلم، جمشيد بن محمود غياث الدين الكاشي(ت ٨٤٠ هـ١٤٣٦ م)، وكان هذا الكشف المقدمة الحقيقية للدراسات والعمليات الحسابية المتناهية في الصغر، لقد كانت الأرقام العربية بصفرها وكسورها العشرية بحق هدية الإسلام إلى أوروبا. ومن هذا الكتاب أيضاً استخرج العالم "إبراهيم الفزاري "- الذي أشرف على ترجمته- جدولاً حسابياً فلكياً يبين مواقع النجوم ويحسب حركاتها وهو ما يعرف باسم "الزيج ". أما الآلة الفلكية التي تستخدم لرصد الكواكب، فكانت تسمى "بالاصطرلاب ". ويعتبر إبراهيم الفزاري أول من صنع الاصطرلاب من المسلمين.

وعن الفارسية، ترجم كتاب "كليلة ودمنة" الذي كان هندياً في الأصل ثم ترجم إلى الفارسية وعنها نقله "عبد الله بن المقفع " إلى العربية في خلافة المنصور أيضاً. هذا إلى جانب ترجمته لعدة كتب أخرى في تاريخ وأدب الفرس ونظمهم وتقاليدهم. ومن المعروف أن الخليفة العباسي المأمون قد أوكل إلى سهل بن هارون، ترجمة الكتب الفارسية. كذلك نذكر كتاب "هزار افسانه " ومعناه ألف خرافة، إذ أن الخرافة بالفارسية يقال لها افسانه، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتيها وهما شيرازاد ودينازاد، ويبدو أن هذه القصص وصلت إلى

المسلمين عن طريق الفرس، ويظهر في بعضها أثر أفكار الهنود في الأرواح وتناسخها، وقد وضعت هذه القصص في قالب عربي إسلامي في العصر العباسي الأول ثم زيد فيها في العصر الفاطمي بحيث لم يتبق من التأثير الفارسي سوى بعض الأسماء الفارسية. والشاهنامة للفردوس التي ترجمها نثرا الفتح بن علي البنداري سنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٧ م، وهناك أيضا لعبة الشطرنج الهندية الأصل والتي انتقلت عن طريق الفرس إلى المسلمين، وألفت فيها كتب بالعربية وصار لها انتشار كبير في عالم الإسلام.

وفي خلافة المهدي بن المنصور (١٥٨- ١٦٩ هـ) برز عالم عربي في الكيمياء يدعى جابر بن حيان الأزدي " الذي نسبت إليه كتابات كثيرة في الكيمياء تضم ما وصل إليه هذا العلم من تقدم في هذا الوقت سواء في المركبات الكيميائية التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت مثل نترات الفضة المتبلورة وحامض الأزوتيك وحامض الكبريتيك (زيت الزاج) ولاحظ ما يرسب من كلوروز الفضة عند إضافة ملح الطعام أو في وصف العمليات الكيميائية كالتقطير والتبخير والترشيح والتبلور والتذويب والتصعيد والتكليس ونحوها.

وفي خلافة هارون الرشيد (١٧٠ هـ/ ٧٨٦،- ١٩٣هـ / ٨٠٨ م) أسس في بغداد في بيت الحكمة" لأعمال النقل والترجمة، الذي ازدهر في عهد ولده عبد الله المأمون (١٩٨ هـ/٨١٣ م- ٢١٨ هـ/٨٣٣ م)، فترجمت فيه أمهات الكتب اليونانية القديمة، وأقيمت فيه المراصد، ورسمت فيه الرسوم (الخرائط) الجغرافية على أحدث ما توصل إليه العلم في الأرصاد وأعمال المساحة. كما تخرج منه مشاهير العلماء أمثال " محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٢٣٢ هـ٨٤٦ م) " الذي عهد إليه المأمون بوضع كتاب في علم الجبر، فوضع كتابه " المختصر في حساب الجبر والمقابلة"، وهذا الكتاب هو الذي أدى إلى وضع لفظ الجبر وإعطائه مدلوله الحالي. قال ابن خلدون: "علم الجبر والمقابلة (أي المعادلة) من فروع علوم العدد، وهو صناعة يستخرج بها العدد المجهول من العدد المعلوم إذا كان بينهما صلة تقتضي ذلك فيقابل بعضها

بعضاً، ويجبر ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحاً". فالجبر إذن، علم عربي سماه العرب بلفظ من لغتهم، والخوارزمي هو الذي خلع عليه هذا الاسم الذي انتقل إلى اللغات الأوروبية بلفظه العربيALGEBRA ولقد ترجم كتاب الخوارزمي إلى اللغة اللاتينية في سنة ١١٣٥ م بواسطة مستعرب إنجليزي اسمه " رو برت أوف تشستر " ROBERT OF CHESTER " درس وعاش في أسبانيا حيث كان أسقف بامبلونه، ومن هناك انتقلت ترجمته إلى أوروبا حيث ظلت تدرس في جامعاتها حتى القرن السادس عشر الميلادي. كما انتقلت الأرقام العربية إلى أوروبا عن طريق مؤلفات "الخوارزمي ". ومن الملاحظ أن اسم "الخوارزمي " استعمل في اللغة اللاتينية على شكل "الجور تمي "ALGORISMO" ثم حور في قالب "الجورزمو" ALGORISMO " للدلالة على نظام الأعداد وعلم الحساب والجبر وطريقة حل المسائل الحسابية.

هذا، وتظهر عبقرية "الخوارزمي " في " الزيج " أو الجدول الفلكي الذي صنعه وأطلق عليه اسم "السند هند الصغير،،وقد جامع فيه بين مذهب الهند، ومذهب الفرس، ومذهب بطليموس (اليونان)، فاستحسن أهل زمانه ذلك وانتفعوا به مدة طويلة فذاعت شهرته وصار لهذا الزيج أثر كبير في الشرق والغرب.

وللخوارزمي مأثرة أخرى، وهي أنه رسم أ للمأمون خريطة كبيرة للعالم المعمور على أيامه ، كما وضع كتاباً جغرافياً بعنوان "صورة الأرض " اعتمد فيه على كتاب المجسطي لبطليموس مع إضافات وشروح وتعليقات. وقد نشر هذا الكتاب وترجم إلى الألمانية سنة ١٩٢٦ م.

وفي مجال الطب والعناية بالمرضى أنشأ العباسيون عدداً كبيراً من البيمارستانات (المستشفيات)، ومخازن الأدوية، واستأثرت العاصمة بغداد بالعديد منها، فنسمع عن البيمارستان الذي أنشأه الرشيد في الجانب الغربي من بغداد على يد الطبيب "جبرائيل بن بختيشوع "، والبيمارستان الصاعدي أيام المعتضد في الجانب، الشرقي من بغداد، والبيمارستان المقتدري الذي

بناه المقتدر سنة ٣٠٦ هـ ٩١٨م، وبيمارستان السيدة الذي أنشأته أمه في الأعظمية، وبيمارستان ابن الفرات الذي أنشأه وزيره أبو الحسن علي بن الفرات، والبيمارستان العضدي. .. الخ. وكانت هذه محاولة لإيجاد أماكن تعالج فيها المرضى ويخضعون للملاحظة والتسجيل، وهي أساس المستشفيات الحديثة.

وقد توصل الأطباء المسلمون إلى أراء جديدة في الطب تخالف أراء القدماء في معالجة كثير من الأمراض، واستخدموا في مستشفياتهم الكاويات في الجراحة، ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزف أو معالجة الحميات، وعالجوا الأورام الأنفية وخياطة الجروح، وقطع اللوزتين، وشق أوراق الحلق، وقطع الأثداء السرطانية، وإخراج الحصاة من المثانة، وجراحة الفتق وجراحة العيون، وإخراج الجنين بالآلة، وإخراج العظام المكسورة، واستخدام المرقد (البنج) (ويدخل في تركيبه الأفيون والحشيش وست الحسن) كما فرقوا بين الحصبة والجدري. .. الخ.

وكانت الدولة تراقب الممارسات الطبية والأطباء، فكانوا يمتحنون الأطباء والصيادلة فقد امتحن الصيادلة زمن المأمون والمعتصم، وأمر الخليفة المقتدر الطبيب الكبير سنان بن ثابت بن قرة سنة ٣١٦ هـ بمنع سائر المتطببين من التصرف وممارسة مهنتهم إلا بعد إجراء امتحان لهم، فامتحن يومئذ أكثر من ثمانمائة طبيب. وكان كل من يقوم بممارسة مهنة الطب، يؤخذ عليه قسم الطبيب المسلم والذي كان يعتمد على المحافظة على سر المريض وعلاجه دون تمييز وأن يحفظ كرامة المهنة وأسرارها.

وكان المحتسب هو الذي يأخذ عليه هذا القسم، لأن من عمله مراقبة هذه المهنة ونصه " برئت من قابض أنفس الحكماء، ورافع أوج السماء، فاطر الحركات العلوية، إن خبأت نصحا وبدأت ضرا، أو قدمت ما يقل عمله. إذا ما عرفت ما يعظم نفعه، وعليك بحسن الخلق بحيث تسمع الناس واستفرغ لمن ألقى، إليك زمامه ما في وسعك فإن ضيعته، فأنت الضائع والله الشاهد على وعليك والسامع لما تقول، فمن نكث عهده فقد استهدف

لقضائه، إلا أن يخرج من أرضه وسمائه" .

ومن مشاهير الأطباء الذين برزوا في العصر العباسي الأول نذكر الطبيب "جورجيوس (جرجس) ابن بختيشوع " الذي استدعاه الخليفة المنصور من "جنديسابور" (شرقي البصرة) لعلاج معدته التي كان يشكو منها. وبعد معالجة قصيرة شفي على يديه، فجعله طبيبه الخاص فكان ذلك أول صلة بين بلاط بغداد وبين أسرة "بختيشوع " التي لعبت بعد ذلك دوراً هاماً في البلاط العباسي وفي الحضارة الإسلامية.

وفي أيام المعتصم وولديه الواثق والمتوكل، برز الطبيب "يحيى بن ماسويه(ت ٢٤٣ هـ) " الذي تنسب إليه مؤلفات طبية عديدة من أهمها: "كتاب دغل العين) أي ما يضر العين ويؤذيها، وهو أول كتاب عربي في علم الرمد. كذلك يؤثر عن هذا الطبيب أنه كان يدرس التشريح عن طريق تقطيع أجسام القردة، وكان الخليفة المعتصم يعتمد على مشورته، ولهذا كان يحتفظ ببنية قوية. ويعرف " ابن ماسويه " في الغرب باسم "ماسو الكبيرMESUE MAIOR ". كذلك نذكر الطبيب اللامع "حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠ هـ) الذي عرف عند علماء الغرب باسم يوهانيتس YOHANTUSدرس "حنين " الطب على أستاذه "يحيى بن ماسويه" ثم واصل دراسته في بلاد الروم والإسكندرية وفارس، والف كتباً كثيرة أهمها كتاب في الرمد باسم "العشر مقالات في الـعين "، وكتاب " السموم والترياق "، وكتاب في أوجاع المعدة، وكتاب في الحميات، وكتاب في الفم والأسنان. وهذا الكتاب الأخير أعجب به الخليفة الواثق لأنه يصف الفم والأسنان وصفاً دقيقاً. وقد نقل المسعودى في كتابه "مروج الذهب (ج ٤ ص ٨٠-٨١) " قسماً منه، ذكر فيه أن عدد الأسنان في الفم اثنتان وثلاثون سناً، منها في اللحى (الفك) الأعلى " ستة عشر سناً، وفي اللحى الأسفل كذلك.

وهكذا ازدهرت العلوم العقلية والتجريبية الإسلامية نتيجة لهذه الاستراتيجية العباسية التي قدمت كل تشجيع.

لحركة النقل والترجمة، مما أدى إلى ذيوع الكتب العلمية المنقولة إلى العربية، ومن ثم صارت اللغة العربية لغة علمية بعد أن كانت لغة شعر وأدب فقط.

ومما يجب ملاحظته بهذا الصدد ما تميز به علماء الإسلام من الجمع بين العلوم الفقهية والعلوم الطبيعية، فالكندي مثلاً ت ٢٦٠ هـ/٨٧٣ م جمع بين الفلسفة والمنطق والحساب والفلك والهندسة والسياسة والطب والفقه وأصول العقيدة، وابن سينا ت ٤٢٨ هـ ١٠٣٦ م جمع بين الطب والفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية والموسيقى والفلك والحدود والشعر واثبات التنبؤات والقدر، ومثلهما الفارابي والرازي وعمر الخيام وابن النفيس وعبد اللطيف البغدادي وابن رشد وابن الطفيل والسمعاني وغيرهم.

لقد عرض هؤلاء العلماء لكبريات المشكلات المنطقية فعالجوها بأصالة المنهج في الملاحظة والتشخيص والكشف عن الأسباب والعلامات، فإن الشيء لا يعلم العلم اليقين إلا من جهة أسباب، ولذلك كان علم الأسباب واجباً، لم يقع العلماء المسلمون فريسة التفريق بين الإلهام الإلهي والنظر الاستنباطي، وإنما جعلوهما يلتقيان على نحو من التكامل، فغاية العلوم الفقهية، تعليم الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورسم نهج الحياة، وغرض العلوم الطبيعية، الوقوف على الحقيقة والتوجه إلى الخير والتحويل عن الشر، فالدرس والتفحص مقرون بالقياس واستخراج الحكمة هي السبل الصحيحة للوصول إلى الحقيقة العلمية، قال الله تعالى:

"أو لم ينظروا في ملكوت السموت والأرض وما خلق الله من شيء " سورة ا لأعراف- آية ١٨٥)، وقال تعالى: " فاعتبروا يأولى الأبصر"، (الحشر- أية ٢). فكانت محصلة كل ذلك دراسة العلوم الدنيوية دون أن تؤثر على العقيدة الإسلامية، إذ عملوا على سد الثغرات التي يمكن أن تؤثر على علمهم وذلك بالبحث والدرس. وهذا ما جعلهم يربطون بين ما تلقوه من تعاليم القرآن وتصوراتهم وآرائهم الفلسفية والعلمية بتوازن تام ونسق منهجي باهر، إن أعظم نشاط فكري قام به العلماء المسلمون، يبدو جليا في حقل المعرفة

التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً عجيبين حين يلاحظون ويمحصون، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد، لقد كانت الشمولية المدعمة بالبحث والتفحص أهم ظاهرة تميز بها العلماء المسلمون، حيث أن العالم هو العالم الشامل ولا خطر على العلم من الدين ولا خوف من تأثير العلوم الدنيوية على تعاليم الدين. فجاءت مصنفاتهم وثيقة العرى بالشريعة، موصولة بالعلوم الفقهية.

وإلى جانب هذا الازدهار العلمي التجريبي والعقلاني، اشتهرت بغداد أيضاً بالعلوم النقلية أو الشرعية التي تتصل بالقرآن الكريم والسنة النبوية مثل التفسير. والقراءات والحديث والفقه واللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا. .. الخ. وقد حرص خلفاء بني العباس منذ بداية دولتهم على الاهتمام بهذه العلوم الإسلامية وتشجيع العلماء المشتغلين بها ولا سيما علماء أهل الحجاز الذين كانوا على دراية واختصاص بعلوم القرآن والحديث والسنة. ومثال ذلك الخليفة "أبو جعفر المنصور" الذي حض علماء أهل المدينة على القدوم إلى بغداد ويسر لهدم مكانة مرموقة. وتابعه في هذا الاهتمام ابنه "المهدي " الذي أكرم وفادة القادمين من أهل المدينة وقربهم إليه وأجزل لهم العطاء وأطلق عليهـم اسم الأنصار، وصارت لهم في بغداد قطيعة وقنطرة ومسجد ومقابر خاصة بهم، كما كان لهم نقيب خاص. لهذا كان من أوائل قضاة بغداد عدد من أهل الحجاز مثل "يحيى بن سعيد الأنصاري "، و، " سعيد بن عبدا لرحمن الجمحي". هذا إلى جانب المحدث، "والإخباري المعروف "محمد بن إسحاق بن يسار (ت١٠٢ هـ) " الذي رحب المنصور بمقدمه. ويقال أنه لما دخل على الخليفة المنصور وكان بين يديه ابنه المهدي، قال له المنصور: "أتعرف من هذا يا ابن إسحاق؟ "، فقال نعم، هذا ابن أمير المؤمنين. قال. " اذهب وصنف " كتاباً منذ خلق الله تعالى أدم عليه السلام إلى يومك هذا".. فصنف ابن إسحاق كتابه "المغازي والسير وأخبار المبتدأ ". على أن هذا الكتاب للأسف لم يصل إلينا إلا في رواية مختصرة له كتبها"عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ) " وتعرف باسم

سيرة رسول الله وتعرف عموما بسيرة ابن هشام. غير أنه يلاحظ من الحوار الذي دار بين المنصور وابن إسحاق " أن الكتاب الذي طلبه المنصور لا يقتصر على السيرة النبوية فقط، بل يشمل تاريخاً منذ خلق الله آدم إلى اليوم الذي يعيشه ابن إسحاق، أي أنه يجمع بين ماضي الأمة الإسلامية وحاضرها، وهذا يدل على أن كتاب المغازي لابن إسحاق كان أشمل وأوسع بكثير مما وصل إلينا عن طريق ابن هشام، وقد يؤيد ذلك أن ابن إسحاق كان موضع مديح العلماء الذين جاءوا بعده، إذ وصفوه بأنه لم ينزع في كتابه إلى تدوين تاريخ النبي فحسب، بل إلى تاريخ النبوة بذاتها. وقال فيه "الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) "من أراد التبحر في المغازي، فهو عيال على ابن إسحاق". وعلى أية حال، فإن هذه النقلة التي أقدم، عليها ابن إسحاق من رواية الحديث إلى الاشتغال برواية الأخبار، تعتبر بداية انفصال التاريخ عن الحديث، على اعتبار أن التاريخ كان نوعاً من أنواع الحديث.

وهكذا صار التاريخ علماً مستقلاً، وأخذ يتطور تدريجياً حتى أخذ مظهره الرائع كعلم من أجل علوم المسلمين، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الإسلامية كرجال لهم خطرهم في الحياة العامة، سياسية كانت أو علمية، بينما تضاءل مدلول لفظ إخباري حتى صار يطلق فقط على من يروي الحكايات والقصص.

ولقد كانت بغداد مركزا لتطور الدراسات التاريخية والحضارية على مستوى عالمي، فلم يعد إنتاجها في هذا الصدد قاصراً على العراق فحسب، بل شمل العالم الإسلامي والحياة الإسلامية. ومثال ذلك تاريخ الرسل والأمم والملوك للطبري (ت ٣١٠ هـ)، وكتابا "مروج الذهب "- "والتنبيه والأشراف " للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ)، وكتب المسالك والممالك، وكتاب " الأغاني"لأبي الفرج الأصفهاني(ت ٣٥٥هـ) "، وقصص "،ألف ليلة وليلة"، كلها صور عامة للحياة الإسلامية بمختلف مظاهرها التاريخية والحضارية.

وما يقال عن التاريخ يقال أيضاً عن علم الفقه الذي يقوم على البحث في الأحكام الشرعية، ومعرفة حكم الدين في القضايا التي تحدث للمسلمين

سواء في قضايا دينهم (العبادات) أو في قضايا دنياهم (المعاملات). ومع قيام الدولة العباسية كان المسلمون قد بدأوا في تدوين فقههم واستنبطوا الأحكام والشرائع في القرون الأولى للهجرة، وهو ما لم يتفق لدولة من الدول السابقة، فالقانون الروماني مثلاً لم يستقر أمره إلا زمن الإمبراطور "جستنيان " أي بعد تأسيس الدولة الرومانية بأكثر من عشرة قرون.

وهكذا ظهرت المذاهب الفقهية في عصر الدولة العباسية، واحتلت بغداد مكان الصدارة لهذه الدراسات الفقهية، إذ ظهر فيها الإمام " أبو حنيفة النعمان (ت ١٥٠ هـ) " في "خلافة أبي جعفر المنصور، وكان مذهبه يعتمد على الرأي والقياس والاجتهاد، بسبب تعقد الحياة وتطور المدنية في البيئة العراقية لكونها مجمعاً لمختلف الأجناس والملل والنحل مما أدى إلى ظهور قضايا ومشاكل جديدة لا تنطبق عليها نصوص القرآن والسنة، وتحتاج إلى وضعها محل الاجتهاد، والحكم فيها عن طريق الاستنباط العقلي القائم على المنطق الدقيق وهو القياس أو الرأي.

وقد عاصر الإمام أبو حنيفة كلاً من الأئمة "مالك بن أنس في المدينة (ت ٧٩ ا هـ) "، و "الليث بن سعد في الفسطاط (ت ١٧٥ هـ) "، وهم جميعاً من أهل الحديث، أي أنهم يتمسكون عند إصدار أحكامهم بنصوص القرآن والحديث، ولا يرضون عما استحدثه الأحناف من أقيسه ذات طابع فلسفي.

وفي السنة التي توفى فيها الإمام أبو حنيفة (١٥٠ هـ)، ولد الإمام "محمد بن إدريس الشافعي " في غزة، وعاش في الحجاز حيث حفظ موطأ الإمام مالك بن أنس " بالمدينة المنورة وقرأه عليه وهو صبي في العاشرة من عمره، ثم رحل إلى العراق حيث تعلم في بغداد فقه "أبي حنيفة" قبل رحيله واستقراره قي مصر. ومن ثم جاء مذهبه وسطاً بين مذهب " أبي حنيفة" المتوسع في الرأي، ومذهب "مالك بن أنس " المعتمد على الحديث. وتوفي "الشافعي " قي الفسطاط سنة (٢٠٤ هـ) ومقامه معروف هناك، ومن أشهر مؤلفاته "كتاب الأم " في الفقه، و "رسالة في أصول الفقه "، تعتبر الأولى من نوعها، إذ وضع فيها لأول مرة قواعد الاستنباط في الأحكام

الشرعية وهو ما يسمى بأصول الفقه.

وجاء بعده تلميذه الإمام "أحمد بن حنبل الشيباني "، الذي ولد وعاش ومات في بغداد (١٦٤- ٢٤١ هـ) وكان يرى أن يقوم الفقه على النص من الكتاب أو الحديث، وأنكر على أستاذه " الشافعي " أخذه بالرأي، واعتبر الحديث أفضل من الرأي، فعاد بذلك إلى رأي الإمام مالك. ومن أشهر كتبه "المسند" الذي يعتبر موسوعة لأحاديث الرسول(r) .

وأخيراً يعتبر الشيعة "الإمامة" ضرورية ومن أساس الدين، والإمام عندهم هو الذي يسير بالأمة إلى الهدف الأعلى ويدفعها إلى السير في الطريق المستقيم، والفقه من اختصاص الإمام وحده فهو المجتهد المطلق، ومن كتبهم كتاب الكافي للكليبي ت ٣٢٨ هـ/٩٣٩ م والنهاية في الفقه لمحمد بن الحسن الطوسي ت ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م.

وهكذا نرى أن بغداد عرفت من الفقهاء الذين أقاموا أو درسوا فيها، عدة اتجاهات فقهية، فهناك المتمسك بالرأي، كأبي حنيفة"، وهناك المتمسك بالنصوص "كابن حنبل "، وهناك من لاءم بينهما واتخذ مذهباً وسطاً "كالشافعي. والواقع أن كل المذاهب الفقهية الإسلامية تتفق معاً في العمل بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة والتابعين، ولكنها تختلف في فهم واستنباط الأحكام الشرعية وتطبيقها.

أما دراسات العلوم اللغوية والنحوية، فقد شهدت العراق فيها ثورة واسعة ضخمة على أيدي علماء البصرة والكوفة الذين حققوا إنجازات وابتكارات علمية في هذا المجال للحفاظ على كلام العرب وتقويم اللسان العربي، بعد أن فشا اللحن في كلام المسلمين، نتيجة لاختلاطهم بالأعاجم في البلاد المفتوحة. لهذا قام هؤلاء العلماء بجمع وتدوين ألفاظ اللغة العربية وأشعارها من منابعها الصافية في نجد بقلب الجزيرة العربية. كذلك وضعوا قواعد نحوية للغة العربية، وابتكروا النقط والشكل على الحروف لمعرفة نطق الكلمات نطقاً سليماً، ولا سيما القرآن الكريم، حتى لا يتعرض للتحريف. هذا إلى جانب تصنيف المعاجم اللغوية، ووضع علم العروض

لمعرفة أوزان الشعر وأحكامه وبحوره. ومن أشهر الرواد الذين حققوا هذه الابتكارات العلمية مع بداية العصر العباسي العالم البصري العربي، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ/ا ٧٩ م) "، وتلميذه وشيخ البصريين بعده العالم الفارسي "أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه (ت ١٧٧ هـ/٧٩٣ م) ". ولم تلبث العاصمة بغداد أن شاركت في هذه النهضة العلمية، حيث انتقل إليها عدد من علماء الكوفة والبصرة أمثال " أبي حنيفة" و"، المفضل الضبي " و "الكسائي "الفراء "، و "ابن السكيت "، بحيث صارت بغداد مسرحاً لمناظرات علمية حامية الوطيس بين أشهر علماء العصر.

أما الأدب، فقد تطور هو الآخر في العصر العباسي تطوراً كبيراً، ونهج الشعراء فيـه مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب والأخيلة، وغير ذلك من فنون الشعر المختلفة التي تناسب ما انتشر في العصر العباسي من حضارة وترف ولا سيما في رصافة بغداد أو بغداد الشرقية. ومن أشهر هؤلاء الشعراء، أبو نواس " الذي ذاعت قصائده في الخمر والغزل والصيد.. الخ، و" أبو تمام الطائي " المشهور بنزعته العقلية والفلسفية في الشعر، وتلميذه "أبو عبادة البحتري " صاحب المدائح الخالدة، و "ابن الرومي " المعروف بطول نفسه وغزارة شعره، و" أبو العتاهية" الذي اشتهر بالحكمة والغزل الرقيق، والمتنبي، الذي اشتهر بالفخر، وأبو العلاء المعري، شاعر الحكمة، وغيرهم كثيرون. ويكفي أن نشير إلى ما قاله الخليفة الشاعر، "عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) " في كتابه "طبقات الشعراء" من أن عدد شعراء الدولة العباسية في أواخر القرن الثالث الهجري فقط بلغ أكثر من مائة وثلاثين شاعراً. هذا إلى جانب الشاعرات والأديبات من النساء اللائى لعبن دوراً هاماً في الحياة الأدبية وفي الأحداث المهمة في المجتمع الإسلامي مثل "رابعة بنت إسماعيل العدوية" التي سلكت طريق الزهد والتصوف والأميرة، علية بنت المهدي " التي وصفها "الحصري " بأنها "تعدل الكثير من أفاضل الرجال في فضل العقل وحسن المقال، ولها شعر رائق وغناء رائع ". ومثل الأميرة "العباسة بنت المهدي " التي لعب الخيال دوراً كبيراً في القصص التي أحاطت بها، إذ تروى لها أشعار تدل على ذكاء وحسن

تأت للموضوع الذي تقصد إليه. ومثل "عابدة الجهنية" التي قال "السيوطي " عنها أنها"أديبة شاعرة فصيحة فاضلة كاتبة".

هذا، ويروي "ابن الفوطي " أن الخليفة العباسي "الناصر لدين الله (ت ٦٢٢ هـ) كانت لديه جارية تركية تسمى "شجرة الدر"، مقربة إليه، وكانت تكتب خطاً جيداً، وتقرأ له المطالعات الواردة عليه لما تغير نظره، ويملي عليها الأجوبة. وتوفيت سنة ٦٣٤ هـ ١٢٣٦ م) ودفنت في تربة الخلاطية ببغداد.

ومن الطريف أن هذه الأديبة العراقية "شجرة الدر"، عاصرت ملكتين مسلمتين في العالم الإسلامي: أولاهما، الملكة، رضية الدين " سلطانة دلهي بالهند الإسلامية، وهي تعتبر أول ملكة مسلمة جلست على عرش مملكة إسلامية (٦٣٤- ٦٣٨ هـ -١٢٣٦- ١٢٤٠ م). والملكة الثانية هي سميتها في الإسم، سلطانة مصر المعروفة "شجرة الدر"، صاحبة الفضل الأول في إخفاق الحملة الصليبية السابعة التي قادها ملك فرنسا لويس، التاسع عن مصر سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م(.

وإذا انتقلنا إلى عالم الفنون والعمـارة، نجد أن، العباسيين لم يكونوا أقل اهتماما من الأمويين في مجال التشييد والتعمير، ففي العمارة بنى (أبو جعفر المنصور" على نهر دجلة عاصمته" بغداد (١٤٥- ١٤٩ هـ) على شكل دائري، وهو اتجاه جديد في بناء المدن الإسلامية، لأن مـعظم المدن الإسلامية، كانت إما مستطيلة كالفسطاط، أو مربعة كالقاهرة، أو بيضاوية كصنعاء. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن هذه المدن نشأت بجوار مرتفعات حالت دون استدارتها، ولعل الخليفة "المنصور" تأثر بهندسة بعض العواصم القديمة مثل مدينة الحضر جنوب غرب الموصل ومثل مدينة همذان مثلاً. المهم هنا أن خطة المدينة المدورة بغداد، تعتبر ظاهرة جديدة في الفن المعماري الإسلامي. هذا إلى جانب المدن الأخرى التي شيدها العباسيون مثل مدينة سامراء وما حوته من مساجد وقصور خلافية فخمة.

وإلى جانب العمارة وجدت الزخرفة التي وصفت بأنهما لغة الفن الإسلامي،

وتقوم على زخرفة المساجد والقصور والقباب بأشكال هندسية أو نباتية جميلة تبعث في النفس الراحة والهدوء والانشراح. وسمي هذا الفن الزخرفي الإسلامي في أوروبا باسم أرابسك بالفرنسية " ARABESQUEوبالأسبانية (ATAURIQUE) أي التوريق. وقد عرف الفنان المسلم ما يسمى الآن بالفن التجريدي SURREALISM) (ABSTRACT لأنه كثيراً ما كان يأخذ الوحدة الزخرفية النباتية كالورقة أو الزهرة، ويجردها من شكلها الطبيعي حتى لا تعطى إحساسا بالذبول والفناء، فيجردها ويحورها في أشكال هندسية حتى تعطي الشعور بالدوام والبقاء والخلود.

كذلك وجد الفنانون المسلمون في الحروف العربية أساسا لزخارف جميلة، ومن ثم صار الخط العربي فناً رائعاً، على يد خطاطين مشهورين. فهناك الخط الكوفي الذي يستعمل في الشئون الهامة مثل كتابة المصاحف والنقش على العملة، وعلى المساجد، وشواهد القبور. ومن أبرز من اشتهر بكتابة الـخط الكوفي، مبارك المكي " في القرن الثالث الهجري في خلافة "المتوكل على الله العباسي "، وهناك خط النسخ الذي استعمله الناس في التراسل والتدوين وفي نسخ الكتب، ولهذا عرف بهذا الاسم، وقد نبغ في كتابته عدد من الخطاطين أمثال "ابن مقلة (ت ٣٢٨ هـ) " ولابن البواب (ت ١٣ ٤ هـ) " وياقوت المستعصمي في القرن السابع الهجري" .

أما فن التصوير، أي رسم الإنسان والحيوان، فبالرغم من أن بعض علماء المسلمين الأولين، اعتبروه مكروهاً، إلا أنهم لم يفتوا بتحريمه. والظاهر أن خلفاء بني أمية وبني العباس قد ترخصوا في ذلك إذ توجد صور آدمية متقنة على جدران قصورهم التي اكتشفت آثارها منذ عهد قريب في شرق الأردن وسامراء،كذلك ورد في كلام المؤرخين أن الخليفة "الأمين " كان لديه قوارب لنزهته في دجلة على هيئة الأسد والنسر والدلفين، وأن قصر "(المقتدر بالله " اشتمل على تماثيل متحركة لفرسان بخيلها تتقدم وتتأخر

كما في الحرب. هذا إلى جانب قبة القصر الخلافي في بغداد التي أقيم في أعلاها على عهد "المنصور" تمثال لفارس بيده رمح يتحرك في اتجاه الريح. كذلك وصلت إلينا كتب عربية موضحة بالصور الجميلة التي رسمها المصورون المسلمون مثل " الو اسطي " وغيره في مقامات "الحريري " وكتاب "كليلة ودمنة. "

كذلك ازدهرت الموسيقى وتطورت آلاتها ولا سيما في مدينة بغداد التي صار لها مركز الصدارة والشهرة في هذا الفن. ومن أشهر المغنين والمغنيات في العصر العباسي الأول: قمر البغدادية" و" إبراهيم الموصلي "، وابنه "إسحاق " وتلميذه "أبو الحسن علي بن نافع " الملقب "بزرياب " الذي هاجر إلى المغرب والأندلس وحمل معه إلى هناك الموسيقى الشرقية التي ما زال تأثيرها باقيا في الموسيقى التي تعرف إلى اليوم في المغرب والجزائر وتونس باسم "الموسيقى الأندلسية". كذلك برع في دراسة الموسيقى من الناحيتين النظرية والعملية عدد من كبار العلماء وعلية القوم أمثال "الكندي " و!الفارابي " والخليفة "الواثق العباسي ". وكل هذا يدل على أن الحضارة المزدهرة التي اختصت بها بغداد، قد غذت الروح الإسلامية في مختلف الأقطار غذاء تاماً.

ولقد واكب هذه النهضة العلمية نشاط صناعة الورق، ونسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها مما ساعد على انتشار الفكر الجديد في مختلف الأمصار،فأصبحت بغداد بذلك المدينة الممتازة في العالم الإسلامي، CITY) (PAREXCELLENCEوهذه الصفة العالمية التي تميزت بها بغداد جعلتها كعبة يحج إليها المسلمون من جميع أنحاء العالم الإسلامي، كما جعلت حضارتها تطغى على جميع الحضارات الإسلامية الأخرى

كيف استفاد الغرب من نتاج المسلمين الثقافي والعلمي بعد سقوط الأندلس "مراكز الترجمة"

تمت عملية الإخصاب بين الفكر العربي البالغ كمال تطوره وبين العقل الأوروبي، وهو بسبيل يقظته وتلمس طريقه في البداية، تمت عملية الإخصاب هذه في منطقتين: الأولى أسبانيا وفي مدينة طليطلة منها بخاصة، والثانية صقلية، وجنوب إيطاليا، خصوصاً في عهد ملوك النورمان وأشهرهم رجار الثاني المتوفى سنة ١١٥٧ وفردريك الثاني المتوفى سنة ١٢٥٠م. فقد كانت هاتان المنطقتان نقطتي التلاقي بين الثقافة العربية الإسلامية الزاهرة وبين العقلية الأوروبية الناشئة، لأنهما على الحدود بين دار الإسلام وبين أوروبا. يبدأ هذا التبادل بالرحلة التي قام بها جربير دي أورياك Gerbert d'Aurillac الذي أصبح فيما بعد بابا باسم البابا سلفستر الثاني Silvestre II ، رحلته إلى قرطبة، "طلباً للحكمة". ولم يعد الجادون من المؤرخين يشكون في قيامه بهذه الرحلة التي شهد بها معاصره المؤرخ ادمار دي شابان Ademar de Chabannes خصوصاً ومن الثابت أنه زار أسبانيا وأمضى بها ثلاث سنوات من سنة ٩٦٧ إلى سنة ٩٧٠، بجوار أسقف فتش Vich، فماذا عسى أن يطلب العلم في قطالونيا خلال هذه السنوات الثلاث؟ لم يكن في قطالونيا من العلم آنذاك ما يشغل ذهن هذا الراهب ثلاث سنوات، لهذا فمن المؤكد أنه رحل من قطالونيا إلى حيث مركز العلم والثقافة في ذلك الحين، أعني إلى قرطبة الزاهرة في عهد الحكم الثاني (المتوفى سنة ٣٦٦هـ). فكان لهذه الرحلة أثرها البالغ في اهتمام جربير بالعلم العربي ومحاولة نشره في أوروبا المسيحية. وبلغ هذا التبادل أوجه في طليطلة بعد أن استردها الأسبان سنة ١٠٨٥، فأصبحت على الحدود بين الدولة الإسلامية في الأندلس وبين الدولة النصرانية في سائر أسبانيا.

وكانت مدينة جليلة الشأن منذ عهد بعيد إذ كانت عاصمة مملكة القوط الغربيين. وفي عصر ملوك الطوائف بلغت مكانة كبرى على أيدي ملوكها من

بني ذي النون إلى أن استولى عليها الفونس السادس سنة ٤٧٨هـ.. فقد امتازت بمكتباتها العظيمة، خصوصاً وقد انتقل إليها آلاف المجلدات من المشرق. وكان فيها ثلاث طوائف قوية تعيش إلى جوار بعضها: المسلمين والنصارى واليهود. وتولت الطائفة الثالثة التوسط بين الطائفتين الأخريين، سواء في التجارة أو في نقل العلوم. وشجع على قيام حركة نقل الكتب العربية إلى اللاتينية _إما بتوسط اللغة العبرية أو اللغة الدارجة الرومانية _ مطران طليطلة ريمندو(1152 _ 1126) Raimundo . وتلاه خلفاؤه من المطارنة، حتى استمرت هذه الحركة طوال أكثر من قرن.

ولقد اعتاد المؤرخون أن يتحدثوا عن "مدرسة المترجمين" في طليطلة ولكن ليس المقصود وجود مدرسة بالمعنى المادي، أي هيئة وبناء يضمها يتولى القيام بالترجمة، مثل بيت الحكمة الذي أنشأه الخليفة المأمون للمترجمين من اليونانية أو السريانية إلى العربية في سنة ٢١٥هـ، بل كان هناك جماعة حرة من المترجمين يعملون في طليطلة في نفس المكتبات، وبنفس الطريقة، وفي ميدان واحد هو العلوم العربية. لكن أول ما اهتم به هؤلاء المترجمون هو العلوم العربية المنقولة عن العلوم اليونانية.

ذلك أن أوروبا كانت قد أقفرت أو كادت من العلم اليوناني، وانحصرت بضاعتها العلمية في متون جافة عقيمة، هي تلك التي وضعها مارشيانو كابلا Marciano Capella الذي عاش في شمال أفريقية في عهد الوندال في القرن الخامس، أو التي وضعها بوتيوس Boece في القرن السادس في إيطاليا في عهد القوط الشرقيين، أو تلك التي كتبها القديس "ايسيدور" الذي عاش في أسبانيا في القرن السابع على عهد القوط الغربيين، وأخيراً في القرن الثامن ما كتبه بيد Bede الموقر الذي عاش في بريطانيا. وهذه المتون كانت مجرد خلاصات شاحبة لآثار ضئيلة من العلم اليوناني، فبقيت الدراسة في أوروبا تافهة كل التفاهة، محصورة في فئة نادرة من الرهبان. وما كان يمكن هذه الدراسة أن تغير مجراها إلا إذا أمدها مصدر خصب جديد، فكان هذا المصدر هو العلوم العربية، وبخاصة ما تنطوي عليه من علوم اليونان.

لهذا اتجه المترجمون إلى نقل الكتب العربية التي تتضمن علوم اليونان أولا. وكان على رأسهم الشماس دومنجو غنصالبه Domingo Gonsalvo المتوفى حوالي سنة ١١٨٠. وبرز نشاطه في الفترة ما بين سنة ١١٣٠ وسنة ١١٧٠م، ويعد أشهر رجال الترجمة في العصر الوسيط من العربية إلى اللاتينية عن طريق الأسبانية العامية. فقد كانت الطريقة في الترجمة أن يقوم يهودي مستعرب بترجمة النص العربي شفوياً إلى اللغة الأسبانية العامية، ثم يتولى "غنصالبه" الترجمة إلى اللاتينية. ومن بين ما ترجمه "غنصالبه" على هذا النحو بعض مؤلفات "للفارابي" و "ابن سينا" و "الغزالي" و "ابن جبيرول". وشاركه في الترجمة أحياناً "خوان بن داوود" إذ اشتركا معاً في ترجمة كتاب "في النفس" لابن سينا. ويخلط أحياناً بين "ابن داوود" هذا وشخص آخر هو "يوحنا الأسباني" الذي ترجم من العربية إلى اللاتينية عدة مؤلفات في الفلك والنجوم، من بينها كتب للخوارزمي، بفضلها انتقل الحساب الهندي إلى أوروبا والنظام العشري في الحساب؛ حتى عرفت العمليات الحسابية باسمAlguarismo . والغريب أننا ترجمناها حديثاً باسم "اللوغاريتمات" وهي في الأصل منسوبة إلى الخوارزمي!! والصحيح أن نترجمها بـ "الخوارزميات" أو "الجداول الخوارزمية" بدلا من الترجمة المضحكة: "اللوغاريتمات" أو "جداول اللوغاريتمات" كما تسمى في كتب الطلاب في المدارس الثانوية في البلاد العربية، ومن كتب الخوارزمي عرفت أوروبا "الصفر"، وهو في العربي ترجمة للكلمة الهندية سونيا Sunya أي "خال، خاو"، والصفر هو الخالي أو الخلوى، وقد نقلت كلمة "صفر" العربية إلى اللاتينية هكذاCifra Cifrum :بمعنى "الصفر"، ثم أطلقت من بعد على العدد عامة، كما نجد في اللغات الأوروبية chiffre :في الفرنسية و cifra الأسبانية. ومنها أخذت كلمة "السفرة" في الدبلوماسية أي اللغة الرمزية، لأنها تقوم على أرقام. ومن المرجح أن أول الأوربيين غير الأسبان الذين استفادوا من حركة الترجمة هذه من العربية إلى اللاتينية هو "أدلهرد أوف باثAdelhard of Bath ". وكان رحالة وعالماً، جال خلال فرنسا وصقلية

وقليقية وسوريا حوالي سنة ١١١٥؛ وقد ترجم من الأسبانية سنة ١١٢٦ الزيج الذي وضعه الخوارزمي وعرف باسم "السند هند" وفي أوروبا باسم Tablas Astronomicas وقد أصلحه "مسلمة المجريطي".

أما المركز الثاني للتبادل الثقافي فكان كما قلنا في صقلية بعد أن استولى النورمان عليها ٤٨٤هـ. وكان العرب قد فتحوها سنة ٢١٢هـ على يد الأغالبة فكأنها ظلت تحت حكم العرب ٢٧٢هـ سنة. وأما التأثير العربي فقد ظل طوال عهد النورمان، "فروجار الثاني" تأثر في كل مظاهر بلاطه بمظاهر الخلافة الفاطمية في مصر، فكان يظهر وعليه عباءة فاخرة مكتوب عليها بالحروف العربية الكوفية، وأنشأ أكاديمية كان يعمل فيها العلماء النصارى واليهود جنباً إلى جنب، وأحسوا بالحاجة إلى ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية، فبدأت حركة مناظرة لحركة "طليطلة" وان تأخرت عنها بعشرات السنين. ففي عهد "جيوم الأول"، ابن روجار الثاني، نشطت حركة الترجمة ليس فقط من العربية بل وأيضاً من اليونانية، حتى أن وزيره المشهور "انريكو ارستبو Enrico Aristippo" ترجم "الآثار العلوية" لأرسطو من اليونانية وكذلك ترجم محاورتين لأفلاطون، كما ترجم هو و "الأميرال يوجنيو دي بالرمه Eugenio de Palermo" "كتاب "المجسطي" لبطلميوس من العربية إلى اللاتينية حوالي سنة ١١٦٠، وترجم يوجينو أيضاً كتاب "المناظر" لبطلميوس من العربية. كما اشترك في حركة الترجمة من العربية مترجم إيطالي فذ هو "جيرردو الكريموني Gerardo de Cremona " (1114_1178) الذي رحل إلى طليطلة طمعاً في دراسة العلوم الفلكية، وعنى خصوصاً بكتب الفلك لبطلميوس، وعلى رأسها "المجسطي"، وهي كلمة يونانية تعني في أصلها: "الأعظم"، وقد أطلقها اليونانيون على أكبر كتب بطلميوس في الفلك، وعربها العرب كما هي: "المجسطي". فقام "جيرردو" بترجمته إلى اللاتينية سنة ١١٧٥ وهو لا يعرف أن الكتاب قد ترجمه أيضاً "أرستيبو"؛ على أن ترجمته هي التي حظيت بالشهرة الأوسع. كذلك ترجم "جيرردو" أكثر من سبعين كتاباً عربياً في الفلك والجبر

والحساب والطب. واستمرت حركة الترجمة في طليطلة في القرن الثالث عشر وأمّ طليطلة علماء أوروبا الكبار مثل "ميخائيل أسكوت" الذي شارك أيضاً في حركة الترجمة فترجم لابن سينا. ومن بين كبار المترجمين نذكر "ماركوس" شماس طليطلة الذي ترجم من العربية بعض مؤلفات "جالينوس" الطبية كما ترجم القرآن الكريم وبعضه الكتب في علم التوحيد. كما نذكر خصوصاً هرمانوس المانوس Hermannus Alemanus الذي ترجم شرح "ابن رشد" على الأخلاق "لأرسطو" سنة ١٢٤٠، وتلخيص الخطابة "لابن رشد". وفي عهد "الفونسو الحكيم" انتشرت حركة الترجمة من العربية إلى الأسبانية الناشئة. فترجمت "كليلة ودمنة" و "مختار الحكَم" للمبشر بن فاتك، وعشرات من كتب الفلك من اللغة العربية إلى اللغة الأسبانية، فكان لهذا أثره العظيم ليس فقط في تقدم الدراسات العلمية في أسبانيا ومنها إلى أوروبا كلها، بل وخصوصا في قيام اللغة الأسبانية.

ومن هذا كله نتبين مدى حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغتين اللاتينية والأسبانية، مما سيكون له أخطر الأثر في بعض العلم والأدب في أوروبا كانت مساهمات المسلمين في أوروبا العصور الوسطى متعددة، وأثرت على مجالات مختلفة كالفن والعمارة والطب والصيدلة والزراعة

والموسيقى واللغة والتكنولوجيا. من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر، نهلت أوروبا المعرفة من الحضارة الإسلامية، عن طريق نقل الكلاسيكيات[1] وبالأخص أعمال الفيلسوف الأغريقيأرسطو، بعد ترجمتها من العربية.

الطرق التي انتقلت من خلالها المعرفة

كانت نقاط التواصل بين أوروبا والأراضي الإسلامية متعددة، فقد انتقلت المعارف الإسلامية بكثافة إلى أوروبا عن طريق صقلية والأندلس، وبالأخص في طليطلة) على يد جيراردو الكريموني بعد أن استولى الإسبان المسيحيون

على المدينة عام ١٠٨٥). وفي صقلية، بعد ضم المسلمون الجزيرة عام ٩٦٥، واستعادها النورمانمرة أخرى عام ١٠٩١، تولّدت ثقافة نورمانية عربية، التي رعاها حكام أمثال روجر الثاني ملك صقلية، الذي كان لديه جنود وشعراء وعلماء مسلمين في بلاطه. ويعد كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذي كتبه العالم الجغرافي الإدريسي للملك روجر أحد أعظم المخطوطات الجغرافية في العصور الوسطى. [٢]

كان للحملات الصليبية أيضًا دورها في تبادل المعرفة بين أوروبا وبلاد الشام، وبالأخص الجمهوريات البحريةالتي لعبت دورها في هذا التبادل، حتى أن مدنًا كأنطاكية اختلطت فيها الثقافتين العربية واللاتينية بشدة. [٣]

خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، رحل العديد من المسيحيين إلى الأراضي الإسلامية لطلب العلم، أمثال ليوناردو فيبوناتشي وأديلارد أوف باث وقسطنطين الإفريقي. أيضًا خلال القرون الحادي عشر إلى الرابع عشر، درسالعديد من الطلبة الأوروبيين في مراكز العلم الإسلامية لدراسة الطب والفلسفة والرياضيات والعلوم الأخرى. [٤]

العلوم القديمة

بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية وبداية العصور الوسطى، لم تكن العديد من النصوص القديمة متاحة للأوروبيين. كان الوضع على العكس تمامًا في الشرق، ترجمت العديد من النصوص الإغريقية (كأعمال أرسطو) من اليونانية إلى السريانية في القرنين السادس والسابع على أيدي الرهبان النسطوريين والملكانيين واليعاقبةالذين سكنوا فلسطين، أو المنفيين من أثينا أو الرها. العديد من تلك النصوص حفظت وترجمت وتطورت في العالم الإسلامي، وخاصة في مراكز العلم كبغداد التي كان بها "بيت الحكمة"، الذي ضم الآلاف من المخطوطات بحلول عام ٨٣٢. تُرجمت تلك

النصوص مرة أخرى إلى اللغات الأوروبية في العصور الوسطى. [١] كما لعبالمسيحيون الشرقيون دوراً هاماً نقل تلك المعرفة إذ نشطوا في الترجمة من اليونانية إلى السريانية ومن ثم للعربية وخاصةً في عهد الدولة العباسية حيث كان معظم المترجمين في بيت الحكمة من اليعاقبة والنساطرة وعملوا بشكل خاص في حقول الطب والرياضيات والفيزياء والفلك فاعتمد عليهم الخلفاء .[٥].

ثم ترجمت تلك النصوص ثانيةً إلى اللاتينية من خلال طرق مختلفة. كانت أهم مراكز نقل العلوم الإسلامية إلى أوروبا في صقلية وطليطلة. كما اكتشف بورغونديو البيزي في أنطاكيا نصوصًا مفقودة لأرسطو وترجمها للغة اللاتينية.

العلوم الإسلامية

ساهم العالم الإسلامي بمساهمات عظيمة الجبر والخيمياء والكيمياء

والجيولوجيا حساب المثلثات الكروي، وغيرها، ومنه انتقلت إلى الغرب.[١][٦] ترجم ستيفن البيزي عام ١١٢٧ ، كتيباً عربياً حول النظرية الطبية إلى اللاتينية. طوّر الخوارزمي) من اسمه اشتقت كلمة" خوارزمية ("طريقة لأداء العمليات الحسابيةباستخدام الأرقام العربية في القرن التاسع، والتي نقلها ليوناردو فيبوناتشي إلى أوروبا. [٧] كما ترجمروبرت من شيستر كتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة للخوارزمي نحو عام ١١٤٥.

كانت لابن الهيثم مؤلفات في علم البصريات، اعتمد عليها إسحاق نيوتن ورينيه ديكارت كمصادر في أبحاثهم. وكانت أيضًا العلوم الطبية متطورة للغاية عند المسلمين، بشهادة المشاركون في الحملات الصليبية، الذين اعتمدوا على الأطباء العرب في أكثر من مناسبة، كما ذكر جان دي

جوانفيل أنه تم إنقاذه على يد طبيب مسلم عام ١٢٥٠. [٨]

اهتم الأوروبيون بالفلسفة الإغريقية والنصوص العلمية (وبالأخص المجسطي (التي لم تكن متواجده باللاتينية في غرب أوروبا، ولكنها حفظت وترجمت إلى العربية في العالم الإسلامي. ويقال أن جيراردو الكريموني رحل إلى طليطلة وتعلم العربية "لحبه للمجسطي"، وهناك استغل "وفرة الكتب بالعربية في كل المواضيع ."[٩] كانت الأندلس وجنوب إيطاليا أكثر المناطق انتاجاً في نقل العلوم، نظراً للتقارب بين العلماء متعددي اللغات. ترجم هؤلاء العلماء العديد من النصوص العلمية والفلسفية من العربية إلى اللاتينية .[١٠][١١] ترجم جيراردو الكريموني وحده ٨٧ كتاباً من العربية للاتينية، منها المجسطي، وكتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة للخوارزمي، وكتاب الهيئة في إصلاح المجسطي لجابر بن أفلح[١٢] والبصريات للكندي وكتاب جوامع علم النجوم والحركات السماوية للفرغاني وتصنيف-العلوم للفارابي[١٣] وأعمال الخيمياء والكيمياء والطب والصيدلة للرازي وأعمال ثابت بن قرة وحنين بن إسحاق،[١٤] والزرقالي وبني موسى وشجاع بن أسلم والزهراوي وابن الهيثم) بما فيها كتاب المناظر.)

الكيمياء

اعتمد علم الكيمياء الغربي تماماً على المصادر العربية. [١٥] فقد كانت الترجمات اللاتينية لأعمال جابر بن حيان في الخيمياء المرجع الأساسي لعلماء الكيمياء الأوروبيين. إلا أنه ما زال الإسناد الدقيق لهذه الأعمال إلى مؤلفيها مثار بعض الجدل، فبعضها دون شك ترجمات من العربية لأعمال لجابر بن حيان ومنها كتاب الكيمياء) الذي ترجم في أوروبا بعنوان كتاب تراكيب الكيمياء) بالإنجليزية Book of the Composition of :

((Alchemy، الذي ترجمه روبرت من شيستر عام ١١٤٤[١٦]، وكتاب الرسائل السبعين الذي ترجمه جيراردو الكريموني) قبل عام ١١٨٧([١٧]. وبغض النظر عن من كتب تلك الكتب، فأنها بلا شك كانت ذات تأثير عظيم على علم الكيمياء في أوروبا العصور الوسطى. [١٨] كما ترجمت الأعمال الكيميائية للرازي إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر تقريبا.

وترجع أصول العديد من الكلمات التقنية الكيميائية إلى كلمات عربية مثل) alkali قلوي(،[١٩] والتي انتقلت إلى العديد من اللغات الأوروبية وأصبحت جزء من المصطلحات العلمية.

الفلك والرياضيات

كان لترجمة أعمال الخوارزمي أكبر الأثر على علم الرياضيات في أوروبا. كتب الأستاذ الجامعي فيكتور كاتز قائلاً: "معظم الأعمال الأولى في الجبر في أوروبا، اعتمدت في الأساس على الترجمات لأعمال الخوارزمي والعلماء المسلمين الآخرين. كما أنه كان هناك إقرار بأن معظم علمي حساب المثلثات المستوي والكروي ينسبان إلى العلماء المسلمين ."[٢٠] كما أن كلمة) "algorithm"خوارزمية(، مشتقة من الترجمة اللاتينية لاسم الخوارزمي "Algorismi"، وأيضًا كلمة) "algebra" جبر (مشتقة من عنوان كتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة، لذا فهما يصنفان ككلمات إنجليزية من أصل عربي. كما ترجمت الأعمال الفلكية والرياضياتية العربيةللبتاني[١٢] والفزاري إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر. [٢١]

ترجم أيضًا كتاب الزيج السانجاري للخازني إلى اليونانيةعلى يد غريغوري شونيادس في القرن الثالث عشر، وكان يدرّس في الإمبراطورية البيزنطية . [٢٢] قادت التعديلات الفلكية التي أدخلها البتاني وابن رشد على نموذج مركز الأرض إلى النماذج غير البطلمية التي صنعها مؤيد الدين أوردي ونصير

الدين الطوسي وابن الشاطر، والتي طوّرت بعد ذلك إلى نموذج كوبرنيكوس [بالإنجليزية]. كما ترجمت كتب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة والقانون المسعودي للبيروني إلى اللاتينية تحت اسم Indica و *Canon Mas'udicus* على الترتيب. وفي عام ١٢٠٢، نقل ليوناردو فيبوناتشي نظام العد الهندي العربي بالأرقام العربية إلى أوروبا في كتابه Liber Abaci .

كان لكتاب "القسي المجهولة في الكرة "لابن معاذ الجياني) وهو مخطوط في علم حساب المثاثات الكروي (أثره البالغ على علم الرياضيات في أوروبا،[٢٣] وقد ذكر جيرولامو كاردانو في القرن السادس عشر، أن ريجيمونتانوس اعتمد في كتابه On Triangles على المراجع العربية، وبالأخص أعمال جابر بن أفلح .[٢٠] كما كانت أعمال فولبرت من شارتر، أقدم الدلائل على استخدام كلمات عربية مستعارة في النصوص اللاتينية[٢٤][٢٥]

الطب

كانت ترجمة كتاب القانون في الطب لابن سينا أحد أعظم أعمال الترجمة لكتب طبية، والذي ترجم إلى اللاتينية، ثم طبع وانتشر في أوروبا. ظل هذا الكتاب المرجع الأساسي في الطب في أوروبا، حتى بداية العصر الحديث، وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر وحدهما، طبع الكتاب أكثر من ٣٥ مرة .[٢٧] لاحظ ابن سينا ظاهرة نقل العدوى لبعض الأمراض المعدية التي تنتقل عبر الهواء من قبل شخص مريض، وشرح كيفية اختبار بعض الأمراض الجديدة حينها. [٢٨] وقد كتب ابن سينا أيضًا كتاب الشفاء، والذي كان بمثابة موسوعة عامة في العلوم والفلسفة، وقد حظي هذا الكتاب أيضًا بشعبية في أوروبا. كتب أبو بكر الرازي كتاب الحاوي في

الطب، والذي وصف فيه بعناية بدل وميز بين مرضي الحصبة والجدري، وقد كان لهذا الكتاب أيضًا أثره في أوروبا. كما كتب الزهراوي كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وهو موسوعة طبية اشتهرت بسبب قسم الجراحة بها. تضمن هذا الكتاب وصف ورسوم لأكثر من مائتي جهاز جراحي، العديد منها من اختراع الزهراوي نفسه. وقد ترجم جيراردو الكريموني جزء الجراحة في الكتاب إلى اللاتينية، واستخدم من حينها في كليات الطبالأوروبية لقرون، وظلوا يصدرون منه الطبعات حتى نحو عام ١٧٧٠. [٢٩][٣٠]

الفيزياء

كان كتاب المناظر لابن الهيثم من أهم الأعمال الفيزيائية التي ترجمت، لما كان لهذا الكتاب من أقدمية في إجراء التجارب المبنية على منهج علمي،[٣١] وفيه وضع نظرية في الرؤية والضوء فنّدت نظرية كلاوديوس بطليموس)تفترض نظرية بطليموس بأن الضوء ينبعث من العين، بينما أصر ابن الهيثم بأن أشعة الضوء هي التي تدخل العين)، والتي تعد أهم حدث علمي في هذا المجال حتى عصر يوهانس كيبلر .[٣٢] لذا، فيعد كتاب المناظر نقطة انطلاق مهمة في تاريخ المنهج العلمي وتاريخ علم البصريات .[٣٣] أثرت الترجمات اللاتينية لكتاب المناظر في الكثير من أعمال العلماء الأوروبيين اللاحقين، ومنهم روجر باكون ويوهانس كيبلر . [٣٤][٣٥] كما أثر الكتاب في جوانب أخرى في الثقافة الأوروبية. ففي الدين، على سبيل المثال، فقد أشار جون ويكليف الرائد في الفكر الإصلاحي البروتستانتي إلى ابن الهيثم في مناقشة السبع خطايا المميتة عندما شبهها بالتشوهات التي ترى في أنواع المرايا السبع في كتابDe aspectibus . وفي الأدب، أشاد جيوم دي لوريه بكتاب المناظر في روايته Roman de la Rose.[٣٦] وفي الفن، وضع كتاب المناظر أسس تقنيات الرسم المنظوري، وربما أثر في استخدام العوامل المساعدة البصرية في فنعصر النهضة . [٣٦] استخدمت نفس التقنيات في الخرائط الجغرافية التي رسمها رسامي

الخرائط أمثال باولو توسكانيللي خلال عصر الاستكشاف .[٣٥]

ربما أثرت نظرية الحركة التي طورها ابن سينا من الفيزياء الأرسطية نظرية قوة الدفع لجان بوريدان) التي سبقت مفاهيم العطالة وزخم الحركة .[٣٧] أيضًا أعمال جاليليو جاليلي في الميكانيكا الكلاسيكية والتي أبطلت الفيزياء الأرسطية) تأثرت بكتابات الفيزيائيين المسلمين كابن باجة .[٣٨]

أعمال أخرى

ترجمت أعمال إسلامية أخرى إلى اللاتينية خلال العصور الوسطى ومنها أعمال أبو بكر الرازي وابن سينا) ومنها كتاب الشفاء والقانون في الطب(،[٣٩] وأعمالابن رشد[٢٩] وكتاب حركة الكواكب للبطروجي[٤٠] وموسوعة ابن المجوسي الطبية كامل الصناعة الطبية الضرورية وكتاب المدخل الكبير إلى علم أحكام النجوم لأبي معشر البلخي[٤١] وكتاب الوصايا بالجبر والمقابلة لأبي كامل شجاع بن أسلم[١٢] وكتاب خصائص العناصر) باللاتينية (De Proprietatibus Elementorum: وهو عمل جيولوجي عربي نسب عن طريق الخطأ إلى الفيلسوف الإغريقي أرسطو. ومع بداية القرن الثالث عشر، ترجم مارك الطليطلي القرآنوالعديد من الأعمال الطبية .[٤٢]

التقنيات الإسلامية

عرفت أوروبا عددًا تقنيات الزراعية الجديدة لبعض الفواكه والخضروات في العصور الوسطى على أيدي المسلمين، بعضها منقول من الصين والهند، ومنها الخرشوف والسبانخ والباذنجان .[٤٤]

كما نقل المسلمون تقنيات جديدة في الملابس والمواد كالنسيج الموصلي والتفتة والساتان.

الفنون

كان فن الزخرفة الإسلامي من الواردات ذات القيمة العالية إلى أوروبا طوال العصور الوسطى. في الفترة الأولى، كانت المنسوجات ذات أهمية خاصة، وتستخدم لأثواب الكنيسة والأغطية الواقية والستائر وملابس النخبة. كما كان الفخار الإسلامي عالي الجودة يلقى رواجاً بين الأوروبيين، نظراً لزخارفه ومشاهد الصيد الصغيرة المنقوشة عليه وما شابه ذلك. ولأنها لم تكن مفهومة النقوش حينئذ، فلم تكن تلك الأشياء تسيء إلى مشاعر المسيحيين. [٤٥] وكان فن العصور الوسطى في صقلية مثار اهتمام، نظراً لنمطه الذي يخلط بين الثقافات النورمانية والعربية والبيزنطية في كالفسيفساءوالتطعيمات المعدنية والنحت والأعمال البرونزية.

الكتابة: محاكاة الغرب للخطوط العربية

اعتاد الغرب في العصور الوسطى وعصر النهضة محاكاة الزخارف بالخط الكوفي العربي لإنتاج ما عرف باسمشبيه الكوفي":كان يوصف الفن الأوروبي الذي يقلد نظيره العربي بشبيه الكوفي. نقل هذا الفن عن الخط العربي خطوطه المستقيمة والمائلة، والتي كانت شائعة الإستخدام في الزخارف المعمارية الإسلامية ."[٤٦] انتشر هذا الفن الأوروبي في الفترة من القرن العاشر حتى القرن الخامس عشر، بل وكان ينسخ عادة على حالته دون فهم ما يعنيه النص، لزخرفة المنسوجات أو الإطارات أو الهالات الدينية. ويظهر استخدام هذا النمط من الزخارف

بجلاء في رسوم جوتو دي بوندوني .[٤٦] السبب الحقيقي وراء استخدام زخارف النمط شبيه الكوفي في لوحات عصر النهضة غير معروف. لكن يبدو أن الغربيين نقلوا زخارف القرنين الثالث عشر والرابع عشر عن طريق الخطأ ظنًا منهم أنها الزخارف التي كانت شائعة في زمن المسيح.[٤٧]" في فن عصر النهضة، استخدم نمط الزخارف شبيهة الكوفية لتزيين ملابس أبطال العهد القديم كديفيد ."[٤٨] هناك سبب آخر محتمل، وهو أن الفنان كان يأمل في التعبير عن عالمية ثقافة الإيمان المسيحي، عن طريق مزج عدد من اللغات المكتوبة، في الوقت الذي كان فيه للكنيسة طموحات دولية قوية

السجاد الاسلامى

كان السجاد الإسلامي القادم من الشرق الأوسط، سواءَ منالدولة العثمانية أو بلاد الشام أو مصر المملوكية،[٥٠][٥١] أحد مظاهر الثراء والترف في أوروبا، وهو ما يتضح من تكرار استخدامه كملمح زخرفي مهم في لوحات القرن الثالث عشر، وحتى عصر الباروخات. قدّم هذا السجاد والنمط شبيه الكوفي أمثلة رائعة لاستخدام العناصر الشرقية في اللوحات الأوروبية، وخاصةً تلك التي تصور الموضوعات الدينية .

التقنية

انتقلت عدد من التقنيات المستخدمة في العالم الإسلامي إلى أوروبا في العصور الوسطى، ومنها تقنيات زراعة عدد منالمحاصيل،[٥٩] إضافة إلى عدد من الأجهزة الفلكية منها الإسطرلاب الإغريقي الذي طوره الفلكيون العرب ليستخدم في أي خط عرض جغرافي،[٦٠] والصفيحة الزيجية وهو إسطرلاب اخترعه الزرقالي،[٦١] وآلة السدس، وعدد من الأجهزة الجراحية[٣٠] إضافة إلى المسننات المتقدمة التي استخدمت في الساعات المائية والالآت ذاتية التشغيل .[٦٢] ورغم أنالتقطير كان شائعًا في عصر الإغريق والرومان، إلا أنه

أعيد اكتشافه مرة أخرى في أوروبا العصور الوسطى نقلاً عن العرب، حتى أن كلمة) "alcohol" التي تستخدم لوصف السائل الناتج عن التقطير) مشتقة من كلمة "الكحول" العربية. [٦٣] وكذلك كلمة) "alembic" من الكلمة اليونانية ("Ambix" هي في الأصل كلمة عربية) الأنبيق .([٦٤] كما كان للنماذج الإسلامية من الساعات المائية المعقدة والالآت ذاتية التشغيل تأثيرها القوي على الحرفيين الأوروبيين الذين صنعوا أولى الساعات الميكانيكية في القرن الثالث عشر. [٦٥] وفي المجمل، يمكن القول بأن انتقال التقنية القديمة والحديثة من الشرق الأوسط إلى أوروبا عصر النهضة، مثّل أحد أكبر عمليات انتقال التقنية في التاريخ العالمي

وفي عام ١٩٧٤ ، أصدر المؤرخ أندرو واطسون بحثًا خلُص فيه إلى أنه كانت هناك ثورة زراعية عربية بين عامي ٧٠٠-١٠٠٠، أدت إلى انتشار العديد من المحاصيل والتقنيات الزراعية من الأندلس إلى أوروبا العصور الوسطى، والتي كانت زراعتها تنحصر في زراعة القمح الذي انتقل إليها من وسط آسيا في زمن سابق. وعدّ واطسون ثمانية عشر نوعا منها الذرة الرفيعة من أفريقيا، والفواكه الحمضية من الصين، إضافة إلى عدد من المحاصيل من الهند كالمانجو والأرز والقطن وقصب السكر، والتي كانت منتشرة في العالم الإسلامي. وأضاف واطسون أن انتقال تلك المحاصيل مع التطور في ميكنة الزراعة، أدى إلى قفزات في الاقتصاد والانتشار السكاني والنباتي والإنتاج الزراعي والدخل ومستويات المعيشة والنمو الحضري والصناعات المرتبطة بالزراعة وفنون الطهي والملابس. كما تطورت صناعة الحرير، وزُرع الكتان وجمعت الحلفاء من البرية وتم تحويلها إلى مواد مختلفة. [٥٩]

إلا أن مايكل ديكر، عارض بل وتحدى بعض فرضيات واطسون، بالأخص حول ما إذا كانت تلك المحاصيل قد عرفت طريقها إلى أوروبا في تلك الفترة أم لا. استخدم ديكر أدلة أدبية وأثرية لإثبات أن أربعة من المحاصيل المذكورة سالفًا (القمح والأرز الآسيوي والذرة الرفيعة والقطن)، كانت شائعة لقرون قبل العصر الإسلامي، كما أن المحاصيل الزراعية الجديدة لم

تكن بتلك الأهمية التي وصفها واطسون. كما قال ديكر بأن الممارسات الزراعية الإسلامية في مجالات مثل الري كانت تطوراً مثيراً في العالم القديم، لكن ليس لدرجة وصفه بالثورة كما وصفه واطسون. [٦٨]

انتقلت صناعة السكر من قصب السكر[٦٩] والساعات المائية ولب الخشب والورق والحرير وتطورات صناعة العطور من العالم الإسلامي إلى أوروبا العصور الوسطى. [٧٠] ويعتقد أن التطورات التي حدثت في تقنيات الطواحين قد انتقل أيضًا من العالم الإسلامي إلى أوروبا العصور الوسطى،[٧١] بالإضافة إلى انتشار استخدام الاختراعات الإسلامية كمضخات الشفط[٧٢] والنواعير والمضخات المتسلسلة لأغراض الري. ويقول واطسون، "كانت مساهمات المسلمين أقل في جانب اختراع الأجهزة الجديدة، عنه في جانب نشر التطبيقات القديم التي كانت تستخدم في فترة ما قبل الإسلام في مناطق محدودة وعلى نطاق محدود."[٧٣] كما مكّنت الابتكارات الإسلامية أوروبا العصور الوسطى من تحويل بعض العمليات الصناعية من الاعتماد على العمل اليدوي أو قوة الحيوانات إلى الميكنة

صك العملة

رغم أن العملات المعدنية الأولى ضربت في روما القديمة وانتشرت في أنحاء أوروبا، إلا أن العملات المعدنية الإسلامية كان لها تأثيرها على سك العملة في أوروبا العصور الوسطى. في القرن الثامن الميلادي، أمر الملك الإنجليزي أوفا ملك مرسيا بضرب عملته التي كانت تشبه إلى حد كبير دينار الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الذي ضرب عام ٧٧٤

منذ نحو عام ٩١٣ في صقلية ومالطا وجنوب إيطاليا، ضربت عملات تاري ذهبية ذات أصل إسلامي بأعداد كبيرة على أيدي الحكام النورمان وأسرة هوهنشتاوفن والكابيتيون الأوائل .[٧٦] وعندما غزا

النورمان صقلية في القرن الثاني عشر، أصدروا عملات تحمل نقوشًا عربية ولاتينية .[٧٧] انتشرت تلك العملات على نطاق واسع حتى أنها انتشر منها عملات مزيفة في جنوب إيطاليا) أمالفيوساليرنو (بها نقوش شبه كوفية بالعربية لكنها غير مقروءة. [٧٨][٧٩]

وتقول جانيت أبو لغد:

كانت العملات الذهبية المسكوكة في بيزنطة ثم في مصر هي المفضلة في الصفقات الدولية قبل القرن الثالث عشر، في أوروبا وكذلك في الشرق الأوسط وحتى في الهند. حتى ذاك الوقت، لم تكن بعض المدن الإيطالية مثل فلورنسا وجنوة قد بدأت في سك العملات الذهبية الخاصة بها، إلا أن تلك العملات كانت تستخدم كتكملة لعملات الشرق الأوسط التي كانت منتشرة حينئذ بالفعل

الفلسفة

أسس ابن سينا مدرسة في الفلسفة، أثرت في العالمين الإسلامي والمسيحي على حد سواء. كان ابن سينا من المعلقين المهمين على أعمال أرسطو، معدلاً فيها في بعض الجوانب بأفكاره الخاصة، وبالأخص في المنطق. [٨٥]ترجع أهمية مدرسة ابن سينا الفلسفية في تفسيرها لمعتقدات ابن سينا في مسائل مثل طبيعة الروح والاختلاف بين الوجود والجوهر، إضافة إلى مناظراته وانتقاداته لبعض أعمال أرسطو، لذا حظي بمعارضة من أتباعالمدرسية الأوروبية. كان لابن رشد أيضًا مرسة فلسفية، جعلته أحد أكثر الفلاسفة المسلمين تأثيراَ في الغرب. [٨٦]اختلف ابن رشد مع ابن سينا حول تعليقات ابن سينا على أعمال أرسطو في بعض الجوانب مثل وحدة الفكر، وظل تعليق ابن رشد حول تلك المسألة هو السائد في أوروبا خلال العصور الوسطى. وقد أتفق دانتي أليغييريمع الرؤية الرشدية لنظرية

علمانية الدولة في كتابه .De Monarchia [٨٤] كما وضع ابن رشد أيضًا مفهوم" الوجود يسبق الجوهر. "[٨٧]

كان لأبي حامد الغزالي أيضًا تأثيره الهام في فلاسفة العصور الوسطى المسيحيين والمفكرين اليهود أمثال موسى بن ميمون .[٨٨] تقول الباحثة مارغريت سميث، "ليس هناك شك أن أعمال الغزالي كانت تجذب للغاية اهتمام هؤلاء العلماء الأوروبيين" و"أكثر هؤلاء الكتاب المسيحين الذين تأثروا بالغزالي، كان توما الأكويني(1225-1274) ، الذي درس أعمال العلماء المسلمين ويدين بالفضل لهم، حيث درس في جامعة نابولي التي كان تأثير الأدب والثقافة الإسلاميين سائدًا فيها في ذلك الوقت.

الادب

في عام ١٩١٩، اقترح أسين بلاثيوس أن دانتي أليغييري في ملحمة الكوميديا الإلهية، والتي تعتبر الملحمة الأكبر فيالأدب الإيطالي، استوحى في العديد من مشاهدها وحلقاتها من النظرة الإسلامية لأحداث نهاية العالم سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة من الأحاديث النبوية حول أحداث يوم القيامة وكتابات ابن عربي. كان كتاب المعراج للقشيري الذي يصف فيه رحلة الإسراء والمعراج، قد ترجم إلى اللاتينية عام ١٢٦٤ أو قبل ذلك بفترة وجيزة. [٨١] كما كان دانتي على إطلاع على أعمال الفلسفة الإسلامية وخاصة أعمال ابن سينا وابن رشد .[٨٢][٨٣] لا يزال مدى قوة أوجه التشابه بين كتاب المعراج للقشيري والكوميديا الإلهية لدانتي مثار جدل علمي. وقد وصف فرانشيسكو غابريللي هذا التشابه بأنه "على الأقل ممكن، إن لم يكن من مرجحًا" أن دانتي قد اقتبس بعض الصور والمفاهيم من النظرة الإسلامية ليوم القيامة.

الفرق الشاسع بين الجهاد والإرهاب

يكثر اللغط فيهذه الأيام حول اختلاط المفهوم بين الجهاد والإرهاب. فلم يكن الجهاد يوما في الاسلام حبا لسفك الدماء ولكنه لرد الاعتداء فقط. ولم يكن الجهاد يوما ارهابا للامنيين. ولكنه دوما لنشر الأمان بين الأفراد. فالجهاد مصطلح عظيم ونشر دعوة التوحيد امر جلل. وطالما كان الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل. فماذا استفادت البشرية من فرض سيطرة أئمة الكفر عليها سوى مجازر بحق البشرية جمعاء على اختلاف دينهم واعراقهم. فهل يخفى على أحد المجازر التي قامت بها امريكا بحق الهنود الحمر وما فعله الامريكان في اليابان وفيتنام والفلبين وبلاد المسلمين ؟؟ هل يخفى على احد ما فعلته روسيا والغرب من مجازر بحق البشرية؟ ولذلك كان الجهاد لرد اعتداء هؤلاء على البشرية وانتصارا للإنسانية جمعاء. فالفطرة السليمة تقبل بذلك. ترفض الظلم وسفك دماء الانسان بدون وجه حق. فالارهاب هو ما تمارسه الدول العظمى بحق الانسان على مر العصور والجهاد هو ما اعلنه المسلمون ضد هؤلاء جميعا حتى ننشر دعوة التوحيد ولفرض الامن والعدل بين البشر جميعهم والتاريخ يشهد والايام تتحدث.

ذلك الدين القيم

سبحان من فصل كل شيء تفصيلا فأرسل خاتم الأنبياء والمرسلين بالهدى ودين الحق ليكون رحمة للعالمين. حقا "ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون" فعندما نكرر مصطلح الشريعة الإسلامية إنما نؤكد في كل ما نكتبه أن الإسلام كل شيء. "ما فرطنا في الكتاب من شئ" فتفصيل كل شيء في الشريعة الإسلامية. فلأن الله كامل فشريعته كاملة. ولأن الله خالق البشر جعل لهم نور يهتدوا به في ظلمات الأرض. فهل ترك الدين قضية تخص حياة الإنسان إلا وتناولها بكل تفصيل؟ أريد أن أقول في كل ما كتبته وكل

ما سأكتبه أن الفكر الصحيح إنما هو في كتاب الله وسنة نبيه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .حقا كما قال تعالى " ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين" وقال عليه الصلاة والسلام "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتي" .فلا خير فيما يخالف الشريعة الإسلامية.. فكلام الله ليس بعده كلام. فكل الأفكار السليمة التي ينبغي أن ننشرها بقوة في المجتمع الهامد كلها من الشريعة .وسنة النبي صلى الله عليه وسلم هي الحكمة فحديث واحد فقط يكفى لتأسيس علم الإجتماع وجميع معاملات وتصرفات الإنسان.

ومما تناولته في الفصول السابقة يؤكد الفرق بين الحضارة والهمجية. يؤكد على شمولية وعدل المنهج الإسلامي. عدل الفتوحات الإسلامية وهمجية الإستعمار بداية من الصليبين مرورا بالتتار نهاية بأمريكا والغرب. ويشهد التاريخ أن الحضارة الإسلامية هي الأقوى والأكثر تأثيرا في البشرية ويؤكد على ذلك الجميع على اختلاف اجناسهم وأعراقهم. ورغم ما حدث من تعثر للمسلمين في العقود الماضية سيعود العالم كله مرة أخرى تحت قيادة المسلمين "ثم تكون خلافة على منهاج النبوة" ليعود الأمان والعدل للبشرية بعد غياب طويل.

تم بحمد الله

الحضارة الإسلامية هل هي الأقوى في التاريخ؟

اللهم إنى اسالك التوفيق والسداد

المراجاع

أ. ينظر كتاب " بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب " محمود شكري الألوسي ، و " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام " و " تاريخ العرب قبل الإسلام " .

د. بدر عبد الحميد هميسه
https://saaid.net/Doat/hamesabadr/87.htm
http://www.saaid.net/female/m103.htm
http://www.alukah.net/culture/0/72421/

[١] وول سميث ـ تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ـ دار الحقائق ـ بيروت ـ ١٩٨٠م.

[٢] جريدة الجماهير: ٢٠٠١/٢/٢م ـ حلب.

[٣] الدكتور طاهر أحمد مكي ـ مسلم إسباني أمام محاكم التفتيش ـ مجلة الدوحة ـ قطر ـ ١٩٨١م.

[٤] وائل علي حسين ـ محاكم التفتيش والمسئولية الغربية ـ مجلة الراية ـ العدد ١٨٦ ـ بيروت ـ ١٩٨٢م.

علي مظهر: محاكم التفتيش،

---

١. [١] كان سقوط بيت المقدس في ضُحَى الجمعة الثاني والعشرين من شعبان سنة ٤٩٢ هـ، وكان عدد جيشهم فيما ذكر ابن كثير يُقارب مليون مقاتل. انظر: "البداية والنهاية" (١٢/ ١٣٨)، و"الكامل" (١٠/ ١٩١)، و"تاريخ ابن خلدون" (٤/ ٦٧)، و"النجوم الزاهرة" (٥/ ١٤٨).

٢. [٢] انظر: كتابه: "أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس" (١١٥ - ١٢٨)، و"الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية" لقاسم عبده قاسم (٢٥٤ - ٢٥٥).

٣. [٣] انظر كتابه: "تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس" ترجمة: جوزيف نسيم يوسف (٢٤٦ - ٢٤٧)، و"الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق" (٢٦٧ - ٢٦٩).

٤.	[٤] انظر كتابه: "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس الآخرين" (٨٤ - ٩٢)، و"الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية" (٢٧٧ - ٢٧٨).
٥.	[٥] "تاريخ الصليبية" لميشو (١/ ٢٢٤)، و"المملكة الصليبية" لبويس (٢٠/ ٢١)، "عن العدوان الصليبي على العالم الإسلامي" للدكتور: صلاح الدين محمد نوار (١٢٢).
٦.	[٦] "تاريخ الأعمال التي تمت فيما وراء البحار" للمؤرخ النصراني وليم الصوري، وقد كتب تاريخه هذا بعد مرور حوالي ثمانين سنة على هذه الحملة الصليبية، وهو مولود في أرض فلسطين لأسرة من الغزاة الصليبيين +الذين احتلوا بيت المقدس (٣/ ١٨٥)، وانظر أيضًا: "تاريخ الصليبية" لميشو (٣/ ٢٢٧)، و"تاريخ الحروب الصليبية" لزوي أولدينبرج (١٥/ ٢٥).
٧.	[٧] انظر كتابه: "قصة الحضارة" (١٥/ ٢٥).
٨.	[٨] "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس الآخرين" (١١٩ - ١٢٠).
٩.	[٩] كان مُسيّر هذه الحملة الصليبية ومهندسها البابا أوربان الثاني بابا الفاتيكان في وقته، وأرسل القادة الصليبيون هذه الرسالة إليه يبشرونه بأخذهم لبيت المقدس، وذبحهم المسلمين، ولم يفرح بهذا الإنجاز الصليبي الذي جيش أوربة من أجله؛ لأن المنية اختطفته قبل وصول الرسالة؛ بل وقبل سقوط القدس في أيدي الصليبيين بأسبوعين. وانظر: "العدوان الصليبي على العالم الإسلامي" (١٢٤).
١٠.	[١٠] انظر في وصف حزن المسلمين في بغداد لما سمعوا بهذه الفاجعة: "المنتظم" (١٧/ ٤٧)، و"الكامل" (١٠/ ١٩٢)، و"البداية والنهاية" (١٢/ ١٣٩)، و"تاريخ ابن خلدون" (٥/ ٢١)، و"تاريخ الإسلام" للذهبي (٣٤/ ١٥)، و"مرآة الزمان" (١/ ٣٢٣)، و"النجوم الزاهرة" (٥/ ١٥١).
a.
١١.
١٢.	المراجع:
١٣.
١٤.	* العالم الإسلامي والاستعمار السياسي و الاجتماعي والثقافي، أنور الجندي ط١، دار المعرفة، ١٩٧٠م.
١٥.

١٦.	* الاستعمار. أحقاد وأطماع. محمد الغزالي. ط٢. الدار السعودية للنشر. جدة، ١٣٨٩هـ.
١٧.
١٨.	* موقع صيد الفوائد (http://www.saaid.net)
١٩.
٢٠.	* ويكبيديا الموسوعة الحرة (http://ar.wikipedia.org)
٢١.
٢٢.	* التعليم الثانوي (http://skikda.high-forums.com
المراجع[^ تعدى إلى الأعلى ل:أ ب ت Lebedel, p.109
١.	^ Lewis, p.148
٢.	^ Lebedel, p.109–111
٣.	^ Shaikh M. Ghazanfar. Medieval Islamic economic thought: filling the "great gap" in European economics. Psychology Press. صفحة ١٢٦.
٤.	^ دور الحضارة السريانية في تفاعل دور العرب والمسلمين الحضاري
٥.	^ فيلدينغ غاريسون، An Introduction to the History of Medicine: with Medical Chronology, Suggestions for Study and Biblographic Data, p. 86
٦.	^ Lebedel, p.111
٧.	^ Lebedel, p.112
٨.	^ C. Burnett, "Arabic-Latin Translation Program in Toledo", p. 255.
٩.	^ C. H. Haskins, Studies in the History of Mediaeval Science, pp.3-4
١٠.	^ R. W. Southern, The Making of the Middle Ages, p.65
١١.	^ تعدى إلى الأعلى ل:أ ب ت V. J. Katz, A History of

.Mathematics: An Introduction, p. 291
١٢. ^ For a list of Gerard of Cremona's translations see: Edward Grant (1974) A Source Book in Medieval Science, (Cambridge: Harvard Univ. Pr.), pp. 35–38 or Charles Burnett, "The Coherence of the Arabic-Latin Translation Program in Toledo in the Twelfth Century,"Science in Context, 14 (2001): at 249–288, at pp. 275–281.
١٣. ^ D. Campbell, Arabian Medicine and Its Influence on the Middle Ages, p. 6.
١٤. ^ Debus، Allen G. (2002). The Chemical Philosophy: Paraclesian Science and Medicine in the Sixteenth and Seventeenth Centuries. Dover Publ. صفحة ١١. ISBN 0486421759.
١٥. ^ هولميارد، Alchemy, p.106
١٦. ^ هولميارد، Alchemy, p.109
١٧. ^ هولميارد، Alchemy, pp.134-135
١٨. ^ Alkali at dictionary reference
١٩. ^ تعدى إلى الأعلى ل:أ ب Victor J. Katz، الناشر (٢٠٠٧)، The mathematics of Egypt, Mesopotamia, China, India, and Islam: a sourcebook، Princeton University Press، ISBN 978-0-691-11485-9, p.4
٢٠. ^ G. G. Joseph, The Crest of the Peacock, p. 306
٢١. ^ David Pingree (1964), "Gregory Chioniades and Palaeologan Astronomy", Dumbarton Oaks Papers 18, p. 135–160.
٢٢. ^ O'Connor، John J.؛ Robertson، Edmund F.، "Abu Abd Allah Muhammad ibn Muadh Al-Jayyani" MacTutor

History of Mathematics archive
٢٣. ^ Burnett، Charles (1997)، The introduction of Arabic learning into England (الطبعة null)، London: British Library، صفحة ٥، ISBN 978-0-7123-4545-3
٢٤. ^ Fulbert of Chartres؛ Behrends, transl. by Frederick (1976)، Frederick Behrends، الناشر، The letters and poems of Fulbert of Chartres (الطبعة Repr.)، Oxford: Clarendon P.، صفحة ٢٦١، ISBN 978-0-19-822233-0، اطلع عليه بتاريخ ١٤ May 2011
٢٥. ^ "Inventions et decouvertes au Moyen-Age", Samuel Sadaune, p.44
٢٦. ^ الأرشيف الإليكتروني للمكتبة الوطنية لعلم الطب
٢٧. ^ David W. Tschanz, MSPH, PhD (August 2003). "Arab Roots of European Medicine", Heart Views 4 (2).
٢٨. ^ تعدى إلى الأعلى ل:أ ب D. Campbell, Arabian Medicine and Its Influence on the Middle Ages, p. 3.
٢٩. ^ تعدى إلى الأعلى ل:أ ب Albucasis Science museum on Albucasis
٣٠. ^ Gorini، Rosanna (2003)، "Al-Haytham the Man of Experience: First Steps in the Science of Vision"، Journal of the International Society for the History of Islamic Medicine (Institute of Neurosciences, Laboratory of Psychobiology and Psychopharmacology، Rome، Italy):
"معظم المؤرخين يؤكدون أن ابن الهيثم كان رائدًا في استخدام المنهج العلمي الحديث. فقد غيّر كتابه مفهوم البصريات وجعل إجراء التجارب هو أساس إثبات صحة النظريات في هذا المجال. لم تكن ابتكاراته تعتمد على نظريات غير تطبيقية، بل على دلائل تجاريبة، كما كانت تجاربه

منهجية ومتكررة."

٣١. ^ Sabra، A. I.؛ Hogendijk، J. P. (2003). The Enterprise of Science in Islam: New Perspectives، MIT Press، صفحات ٨٥-١١٨، ISBN 0-262-19482-1. OCLC 237875424

٣٢. ^ H. Salih, M. Al-Amri, M. El Gomati (2005). "The Miracle of Light", A World of Science 3 (3)، يونسكو

٣٣. ^ Marshall، Peter (September 1981)، "Nicole Oresme on the Nature, Reflection, and Speed of Light"، Isis (journal)72 (3): 357–374 [367–374]، doi:10.1086/352787

٣٤. ^ تعدى إلى الأعلى ل:أ ب Richard Powers (University of Illinois], Best Idea; Eyes Wide Open، نيو يورك تايمز، April 18, 1999.

٣٥. ^ تعدى إلى الأعلى ل:أ ب Falco، Charles M. (12–15 February 2007)، Ibn al-Haytham and the Origins of Modern Image Analysis، International Conference on Information Sciences, Signal Processing and its Applications

٣٦. ^ Buridan

٣٧. ^ Ernest A. Moody (1951), "Galileo and Avempace: The Dynamics of the Leaning Tower Experiment (I)", Journal of the History of Ideas 12 (2): 163–193

٣٨. ^ M.-T. d'Alverny, "Translations and Translators," pp. 444–446, 451

٣٩. ^ Christoph Kann (1993). Bautz, Traugott. ed (in German). Michael Scotus. Biographisch-Bibliographisches Kirchenlexikon (BBKL). 5. Herzberg. cols. 1459–1461.ISBN 3-88309-043-3. http://www.bautz.de/bbkl/m/michael_sco.shtml.

٤٠. ^ Charles Burnett, ed. Adelard of Bath, Conversations

with His Nephew, (Cambridge: Cambridge University Press, .1999), p. xi

٤١. ^ M.-T. d'Alverny, "Translations and Translators," pp. 429, 455

٤٢. ^ "Les Normans en Sicile"

٤٣. ^ Roux, p. 47

٤٤. ^ Mack, 3-8, and throughout

٤٥. ^ تعدى إلى الأعلى ل:أ ب Mack, p.51

٤٦. ^ Mack, p.52, p.69

٤٧. ^ Freider. p.84

٤٨. ^ " Perhaps they marked the imagery of a universal faith, an artistic intention consistent with the Church's contemporary international program." Mack, p.69

٤٩. ^ King & Sylvester, 17

٥٠. ^ Mack, p.77

٥١. ^ (Farmer 1988, p. 137)

٥٢. ^ (Farmer 1988, p. 141)

٥٣. ^ Bell، Joseph Norment (1979). Love theory in later Hanbalite Islam. Albany: State University of New York Press، صفحة ٢٢١، ISBN 978-0-87395-244-6

٥٤. ^ M. Guettat (1980), La Musique classique du Maghreb (Paris: Sindbad).

٥٥. ^ " Troubadour", Grove Dictionary of Music and Musicians, edited by Stanley Sadie, Macmillan Press Ltd., London

٥٦. ^ (Farmer 1988, pp. 72–82)

٥٧. ^ Miller، Samuel D. (Autumn 1973). "Guido d'Arezzo:

Journal of Research in ،Medieval Musician and Educator" Music Education (Journal of Research in Music Education, JSTOR ،doi:10.2307/3345093،Vol. 21, No. 3) 21 (3): 239–245 3345093

٥٨. ^ تعدى إلى الأعلى ل:أ ب Andrew M. Watson (1974), "The Arab Agricultural Revolution and Its Diffusion, 700–1100", The Journal of Economic History 34 (1), pp. 8–35.

٥٩. ^ David A. King (2002). "A Vetustissimus Arabic Text on the Quadrans Vetus", Journal for the History of Astronomy 33, p. 237–255 [237–238].

٦٠. ^ The Saphea Arzachelis, astrolabes.org

٦١. ^ أحمد يوسف الحسن، Transfer Of Islamic Technology To The West, Part II: Transmission Of Islamic Engineering,History of Science and Technology in Islam

٦٢. ^ Thomas Nordegren. The A-Z Encyclopedia of Alcohol and Drug Abuse. صفحة ٣٨.

٦٣. ^ Chambers's encyclopaedia: a dictionary of universal knowledge, Volume 1. J.B. Lippincott & Co. صفحة ١٤٢.

٦٤. ^ " Studies in Medieval Islamic Technology: From Philo to Al-Jazari - From Alexandria to Diya Bakr"، دونالد هيل and David A. King, p.23, 1998, ISBN 978-0-86078-606-1

٦٥. ^ Middle Ages

٦٦. ^ " Examining the enamel on the Aldrevandini beaker".British Museum.

٦٧. ^ Michael Decker: "Plants and Progress: Rethinking the Islamic Agricultural Revolution", Journal of World History, Vol. 20, No. 2 (2009), pp. 187-206

٦٨. ^ "The Sugar Cane Industry: An Historical Geography from Its Origins to 1914 (1989)", pp.34-34, JH Galloway,ISBN 0-521-02219-3

٦٩. ^ أحمد يوسف الحسن، Transfer Of Islamic Technology To The West, Part 1: Avenues Of Technology Transfer

٧٠. ^ Adam Lucas (2006), Wind, Water, Work: Ancient and Medieval Milling Technology, p. 10 & 65, BRILL,ISBN 90-04-14649-0.

٧١. ^ أحمد يوسف الحسن. The Origin of the Suction Pump.

٧٢. ^ Quoted in "The Sugar Cane Industry: An Historical Geography from Its Origins to 1914", JH Galloway, p. 27

٧٣. ^ Adam Robert Lucas (2005), "Industrial Milling in the Ancient and Medieval Worlds: A Survey of the Evidence for an Industrial Revolution in Medieval Europe", Technology and Culture 46 (1), pp. 1–30.

٧٤. ^ تعدى إلى الأعلى ل:أ ب " Gold imitation dinar of Offa". British Museum.

٧٥. ^ Blanchard, Ian Mining, Metallurgy and Minting in the Middle Ages Franz Steiner Verlag, 2001 ISBN 978-3-515-07958-7 [1], p.196

٧٦. ^ British Museum, Islamic Art room

٧٧. ^ Cardini, Franco Europe and Islam Blackwell Publishing, 2001 ISBN 978-0-631-22637-6 [2], p.26

٧٨. ^ Grierson, Philip Medieval European CoinageCambridge University Press, 1998 ISBN 978-0-521-58231-5[3], p.3

٧٩. ^ Janet Abu-Lughod Before European Hegemony, The

World System A.D. 1250–1350, Oxford University Press, ISBN 0-19-506774-6 p.15

٨٠. ^ I. Heullant-Donat and M.-A. Polo de Beaulieu, "Histoire d'une traduction," in Le Livre de l'échelle de Mahomet, Latin edition and French translation by Gisèle Besson and Michèle Brossard-Dandré, Collection Lettres Gothiques, Le Livre de Poche, 1991, p. 22 with note 37.

٨١. ^ Paul A. (Paul Arthur) Cantor - The Uncanonical Dante: The Divine Comedy and Islamic Philosophy - Philosophy and Literature 20:1

٨٢. ^ The Divine Comedy/Inferno/Canto IV - Wikisource, the free online library

٨٣. ^ تعدى إلى الأعلى ل:أ ب Majid Fakhry (2001). Averroes: His Life, Works and Influence p. 135 Oneworld Publications. ISBN 1-85168-269-4.

٨٤. ^ "Avicenna", Lenn Evan Goodman, 2006, p. 209

٨٥. ^ Corbin, History of Islamic Philosophy (1993), p.174

٨٦. ^ Irwin، Jones (Autumn 2002)، "Averroes' Reason: A Medieval Tale of Christianity and Islam"، The Philosopher، LXXXX (2)

٨٧. ^ Ormsby، Eric، "Averroes (Ibn Rushd): His Life, Works and Influence"، H-Net Review�. See also: "The Influence of Islamic Thought on Maimonides". Stanford Encyclopedia of Philosophy. اطلع عليه بتاريخ ٢٠٠٨-٠٨-٢٨.

٨٨. ^ مرجريت سميث، Al-Ghazali: The Mystic (London 1944)

٨٩. ^ Lebedel, p.113

- King, Donald and Sylvester, David eds. The Eastern Carpet in the Western World, From the 15th to the 17th century, Arts Council of Great Britain, London, 1983, ISBN 0-7287-0362-9
- The vital roots of European ،Samar (2007) ،Attar enlightenment : Ibn Tufayl's influence on modern Western ISBN 0-7391-1989-3 ،Lanham: Lexington Books ،thought
- "Islamic Law: Its ،Gamal Moursi (Spring 1978) ،Badr The American Journal of ،Relation to Other Legal Systems" Comparative Law (The American Journal of Comparative Law, Vol. 26, No. 2) 26 (2 [Proceedings of an International Conference on Comparative Law, Salt Lake City, Utah, JSTOR ،doi:10.2307/839667 ،February 24–25, 1977]): 187–198 839667
- Cardini, Franco. Europe and Islam. Blackwell Publishing, 2001. ISBN 978-0-631-22637-6
- Historical facts for the ،Henry George (1988) ،Farmer ISBN 0-405- ،Ayer Publishing ،Arabian Musical Influence OCLC 220811631 ،08496-X
- Frieder, Braden K. Chivalry & the perfect prince: tournaments, art, and armor at the Spanish Habsburg courtTruman State University, 2008 ISBN 1-931112-69-X, ISBN 978-1-931112-69-7
- Grierson, Philip Medieval European Coinage Cambridge University Press, 2007 ISBN 0-521-03177-X, ISBN 978-0-521-03177-6

- The Eastern Origins of ،John M. (2004) ،Hobson Cambridge: Cambridge Univ. ،Western Civilisation ISBN 0-521-54724-5،Press
- Les Croisades, origines et ،Claude (2006) ،Lebedel ،ISBN 2-7373-4136-1 ،Editions Ouest-France ،conséquences OCLC 181885553
- ،Les Arabes dans l'histoire ،Bernard (1993) ،Lewis OCLC 36229500 ،ISBN 2-08-081362-5 ،Flammarion
- Mack, Rosamond E. Bazaar to Piazza: Islamic Trade and Italian Art, 1300–1600, University of California Press, 2001ISBN 0-520-22131-1, google books
- "The Islamic Origins of ،John A. (June 1999) ،Makdisi North Carolina Law Review 77 (5): 1635– ،the Common Law" 1739
- Matthew, Donald, The Norman kingdom of Sicily Cambridge University Press, 1992 ISBN 978-0-521-26911-7
- Les explorateurs au Moyen- ،Jean-Paul (1985) ،Roux ISBN 2-01-279339-8 ،Hachette ،Age
- The influence of Islam ،W. Montgomery (2004) ،Watt ،Edinburgh: Edinburgh University Press ،on medieval Europe ISBN 0-7486-0517-7

https://ar.wikipedia.org/wiki/التأثير_الإسلامي_على_أوروبا_خلال_العصور_الوسطى

https://ar.wikibooks.org/wiki/الدولة_العباسية/خصائص_الحضارة_الإسلامية_في_العهد_العباسي

